إسماعيل كاداريه

الفائز بجائزة بوكر الدولية للرواية لعام 2005

الحصار

رواية

ترجمة: د. محمد درويش





الحصار

إسماعيل كاداريه

الفائز بجائزة بوكر الدولية للرواية لعام 2005

ترجمة

محمد درويش

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة







يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي

Les Tambours de la Pluis

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع مع الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-809-6

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION
tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

مقدمة المترجم

إسماعيل كاداريه: الرواية والتاريخ

إسماعيل كاداريه أديب ألباني عرفه القراء العرب منذ بضعة عقود روائياً مهووساً بالتاريخ، وأي تاريخ؟ إنه تاريخ بلاده إبان الحكم العثماني الذي بدأ مع بواكير القرن الرابع عشر لينتهي مع بدايات القرن العشرين، وتحديداً عام 1921 عندما نالت ألبانيا استقلالها. يبدو أن هناك أكثر من سبب يدفع كاداريه حتى يومنا هذا للتمحيص في تلك القرون الماضية ليقدم لقرائه أنساقاً روائية قلما عرفناها عند غيره من أدباء العالم ناهيك عن أدباء ألبانيا الذين لا نكاد نعرف عنهم إلاَّ النزر اليسير، لا عبر اللغة الألبانية التي يكتبون بها، بل عبر لغات وسيطة لا سيما الفرنسية التي تواصل دور النشر الانكباب على ترجمتها إليها.

بداية، لا مناصّ من التأكيد على أن السلطنة العثمانية، التي وصلت جحافلها إلى حدود النمسا، أثَّرت تأثيراً قوياً في شعوب البلدان التي فتحتها، وما أعقب الفتح من إقامة مؤسسات حكومية وبناء علاقات وطيدة مع سكان تلك المناطق، فخلال تلك القرون الستة اعتنق الكثيرون من السكان الدين الإسلامي، بل إن الإسلام بات دين أغلبية سكان ألبانيا، حتى إن كاداريه نفسه يذكر أن هذه الظاهرة عزلت ألبانيا تماماً عن أوروبا لتغدو جزءاً من السلطنة العثمانية. لكن ألبانيا ظهرت، بحسب كاداريه أيضاً، بعد نيل استقلالها عن السلطنة العثمانية، في عزلة أشدّ في ظل النظام الشيوعي، سوفياتياً كان توجُّهُه أم صينياً، فالعقيدة الجامدة واحدة، والنظام الشمولي واحد، والعزلة الخانقة عن أوروبا، وبالتالي عن بقية

دول العالـم، لا تختلـف كثيـراً، آنـذاك، إن كان النظام الشـيوعي الألباني سار على نهج العقيدة الستالينية أم على نهج العقيدة الماوية.

أما السبب الآخر الذي دفع كاداريه للجوء إلى الماضي البعيد، وهو ابن النظام المدلل - نظام أنور خوجا - فينطوي على مفارقة كبرى، إذ سعى، وهو الأديب المرموق والبارز في بلده والذي عيّنه النظام - أيضاً نظام أنور خوجا - عضواً في مجلس الشـعب (البرلمان)، إلى تجسـيد الكثير من أفكاره وإسقاطها على الأحداث المعاصرة من خلال معالجة الماضي. أراد كاداريه أن يوفر لنفسه الأمان وأيضاً الغطاء الكافي الذي يجعله متحرراً من قيود نظام أنور خوجا، فعالج الماضي البعيد بمنظار الرؤية المعاصرة، وسلّط الضوء على أحداث بلاده الكبرى إبان الحكم العثمانـي ليتمكـن مـن التعبيـر بـكل حرية عن آرائه وأفكاره من دون قيد أو خوف. إذا كان انتقاده لكثير من الظواهر التي اقترنت بحكم السلطنة العثمانيـة، فإنـه بذلـك ينضـم إلى عديد الأدبـاء والباحثين العالقين تحت أنظمـة شـمولية يسـارية كانـت أم يمينيـة، والذيـن آثـروا معالجة أحداث الحاضـر بموضوعـات تنهـل مـن الماضي البعيد لتجنب الرقابة والإثارة. هكذا أصبحت أعمال كاداريه تنطوي على نمط من أنماط النقد الموارب ضد حكومة أنور خوجا، وتوفر له فرصة فنية لتحليل الممارسـات التي عرفت بها تلك الحكومة، أو أي حكومة شـمولية أخرى سـواء في ظل نظـام يمينـي قمعـي ورجعـي، أو نظـام شـيوعي لا يريد أن يسـمع العالم إلا صوته الوحيد. لعل الرقابة، والتجهيل، وتآكل المصداقية، وانحسـار الـروح الحميميـة فـي الحياة اليومية، وتفكيك ميثولوجيا الخرافة، وإعادة كتابة التاريخ، هي من أبرز الموضوعات التي عالجها كاداريه، وإن كان يؤكد، في أكثر من مناسبة، أنه لا يكتب تاريخاً جديداً لبلاده وأنه ليس مؤرخاً. إذاً، هو روائي ينظر إلى الأحداث التاريخية بمنظار آخر، منظار الفحص والتدقيق والتحليل، لا منظار السرد التاريخي لوقائع الأحداث

كما يريدها الحاكم. أما النتائج، فمتروكة للقارئ نفسه ليفهمها بحسب معطياته وانتماءاته الإيديولوجية والفكرية والاجتماعية والسياسية.

ثمة سبب ثالث يكشف عن ولع كاداريه بتلك الحقبة الزمنية المثيرة من تاريخ بلاده، ألا وهو اعتقاده الراسخ بأن العديد من مشكلات ألبانيا الداخلية والخارجية يرجع إلى ممارسات الحكم العثماني وسياساته المتبعة آنذاك. فهو يرى أن بلاده ألبانيا تعرضت إلى التقسيم في أواخر فترة الحكم العثماني، وهو التقسيم الذي أدى إلى اقتطاع أجزاء واسعة منها وضمّها إلى اليونان، واقتطاع الجبل الأسود، والأهم منه كوسوفو، وإلحاقهما بصربيا، فضلاً عن تطورات أخرى على المدى الأبعد لا سيما تعرض ألبانيا للسيطرة الكنيسية اليونانية والتنافس مع غيرها من شعوب البلقان، مثل الصرب، بخصوص مواقع الامتياز في الإدارة العسكرية والمدنية العثمانية. ويرى كاداريه أن ثمة أحداثاً واتجاهات معينة تكمن في جوهر سوء الفهم بين الدول المعاصرة، وأن عرضه إياها في أعماله الروائية إنما هو توكيد على هوية المجتمعات والسياسة البلقانية، وهو عرض ينأى عن التمظهرات الاختزالية والنمذجة التي يلجأ إليها بعض الصحفيين والروائيين المحبين للإثارة، والعديد من السياسيين الذين يعزون المشكلات إلى شخصيات محبة للقتال، أو إلى ضغائن عرقية قديمة، أو إلى حدود ثقافية ودينية غير قابلة للتغيير. علاوة على ذلك، فإن كاداريه يلجأ إلى استخدام التجارب العامة - بشكل مشكلات عامة كالاستغلال الاقتصادي والإمبريالي والإرث الثقافي المشترك بدءاً بالأناشيد الملحمية وانتهاءً برمزية الجسور - لتحديد صفة الإنسانية العامة لجميع شعوب البلقان، ولهذا تراه يعمد إلى إخضاع الدول والأنساق الاجتماعية إلى نقد مدمر. لكن ثمة فسحة للشخصيات كي تُواجه منفردةً على أنها كائنات بشرية وأنها مقبولة ضمن هذا التوصيف حتى لو كان قدرها لا يمنحها السعادة والبهجة.

ولد إسماعيل كاداريه في الثامن والعشرين من كانون الثاني عام 1936 في مدينة جيروكاستر في ألبانيا، وهي مسقط رأس أنور خوجا أيضاً، لأب يعمل موظفاً حكومياً، ونشأ في سنوات الحرب العالمية الثانية الصعبة والمريرة والمضطربة. بالرغم من استقلال بلاده عن السلطة العثمانية، كما أشرنا، إلاَّ أنه وجد بلده الصغير والحديث هدفاً لأطماع إمبريالية احتلالية بما فيها احتلال إيطاليا لها إبان الحرب العالمية الأولى واحتلال ألمانيا الهتلرية في الحرب العالمية الثانية. لمّا سيطرت حكومة أنور خوجا الستالينية على مقاليد الحكم في البلاد عام 1944 أصبحت تحت النفوذ السوفياتي بموجب معاهدة وارسو عام 1955. بعد أن درس كاداريه في جامعة تيرانا، وتخرج منها عام 1956، انتقل إلى موسكو لدراسة الأدب في معهد غوركي العريق، إلاَّ أنه اضطُر إلى مغادرة موسكو عام 1961 بعد أن قطع أنور خوجا علاقاته مع الاتحاد السوفياتي وتحالف مع الصين الشعبية. عام 1963 نشر أولى رواياته **جنرال الجيش الميت** التي نشرت ترجمتها إلى اللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة عام 1971، وكانت بذلك أول رواية ألبانية تنشر باللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة. نظراً إلى علاقاته الطيبة بالنظام الحاكم، فقد عُيِّن عضواً في مجلس الشعب الألباني، وهو أعلى سلطة تشريعية في البلاد عام 1970، وتمتع بامتياز نادر بحكم مكانته الأدبية، وسمح له بالسفر إلى خارج البلاد ونشر أعماله فيها، مما سلّط الأضواء عليه بصدور روايته **الجسر ذو القناطر الثلاث**. بعد وفاة أنور خوجا عام 1985، تزعم كاداريه حركة من أجل الإصلاح الديمقراطي في ألبانيا، لكنه شعر بالإحباط بسبب انعدام فرص التقدم على المسار الديمقراطي في ظل الزعيم الجديد رامز عليا، كما بدأ يخشى على سلامته وأمنه الشخصي مما اضطُّره إلى اللجوء إلى فرنسا عام 1990. وكما هو معروف، فقد سقط نظام رامز عليا بعد ستة أشهر من ذلك العام، وأصبح كاداريه موزع الوقت بين باريس وألبانيا،

مواصلاً الكتابة بالألبانية لغته الأم.

غيـر أن إرث كاداريـه السياسـي ظـل موضـع جدل لم يتوقف حتى يومنا هذا بعد أن ظلت الأوساط الأدبية تتحدث عن ترشيحه لنيل جائزة نوبـل لـلأدب، وبخاصـة بعـد نيله جائزة بوكر الدولية للرواية عام 2005. فمنذ انهيار النظام الشيوعي في ألبانيا، وجد كاداريه نفسه موضع هجوم عنيف من قبل القوى اليمينية والرجعية التي أوضحت أن كاداريه لم يكن يمثل المقاومة الروحية والفنية لنظام خوجا الستاليني في ألبانيا، بل إنه كان واحداً من مستفيديه الكبار ومؤيديه الناشطين، حتى إن مقالة نشرت فـي صحيفـة ذا ويكلـي سـتاندرد اليمينيـة المحافظة حذَّرت: «لا تمنحوا جائـزة نوبـل لكاتـب حزبـي ألباني مأجور». لكـن المدافعين عنه يقولون إنه سولجنتسين ألبانيا.

يبدو أن الأوساط اليمينية تريد أن تتناسى مواقف كاداريه من النظام الشيوعي في ألبانيا والذي اضطُّره إلى الرحيل إلى فرنسا والعيش فيها، وتظل تنبش في تاريخه الشـخصي متخذة من ذلك ذريعة للهجوم عليه وعلى أعماله.

بحسـب كاداريه نفسـه، فإن أول أعماله الأدبية يتمثل في مجموعة شـعرية صدرت بعنوان **الهامات شـابة** وهو في الثامنة عشـرة من عمره، ومن قصائد المجموعة قصيدة الربيع وستالين، لكنّ النقد الأدبي لا ينظر إلى القصيدة أو حتى إلى المجموعة كلها على محمل الجد طالما أنها صادرة عن شاب في مثل تلك السن المبكرة.

أمـا بخصـوص قصيدتـه الطويلـة الباشـوات الحمـر (مئة بيت) فقد قدّمها كاداريه للنشر في تيرانا عام 1975. وبفعل الجدل الذي أُثير حولها، لم تنشر، ذلك أنها تصور أعضاء في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الألبانـي وقـد خرجـوا ليـلاً لنبـش قبـور أعداء الطبقة الذيـن أُعدموا إبان الثورة. اتُّهِمَ كاداريه بأنه يحرض على التمرد المسلح، وتردد **أنه نُفِي إلى**

قرية صغيرة في وسط ألبانيا وأنه مُنِع من النشر لثلاث سنوات. الحق أن هذه القصيدة لم تُطبع قط، ويقول كاداريه إنه لا يملك أي نسخة منها، وأنه لا يتذكر سوى بضعة أبيات منها. أما الناقد الألباني كابلان روسولي فيؤكد أن القصيدة لا وجود لها أصلاً.

من هنا يصعب الحكم على كاداريه وفق هذا السياق، لكن إذا ما أخذنا في الاعتبار الظروف الموضوعية وأسلوب عمل كاداريه نفسه الذي ينأى به عن العدمية والتدمير الذاتي، فإن القصيدة لا يمكن أن تكون هجوماً مباشراً على النظام الهرمي الشيوعي، بل هي، في أحسن الأحوال، ربما تنتقد بعض أعضاء اللجنة المركزية السابقين الذين طردوا من اللجنة، أو أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي. لو كانت القصيدة تهاجم هجوماً مباشراً نظام الحكم في تيرانا، لما عُوقب كاداريه «بالنفي البسيط والمنع من النشر لثلاث سنوات فقط»، وهو ما ينفيه كاداريه نفياً باتاً وقاطعاً إذ يؤكد، في جلسة نظمها اتحاد الأدباء آنذاك، بأنه ذهب ليعيش مع أبناء الشعب في إحدى القرى، وهو أمر دأب عليه عشرات الأدباء في كل الأحوال محاكاةً لواقع الحال في الصين الشعبية بزعامة ماو. أما المنع من النشر، فيؤكد كاداريه أنه قد صدر له ما لا يقل عن أربعة كتب في الفترة بين عامي 1976 و1977 فأين هو المنع من النشر إذاً؟

يقول كاداريه إنه جاءه ابن رئيس الوزراء عام 1981 ليقول له محذراً من أن السلطات الحكومية ترتاب في أمر كونه جاسوساً، وأن عليه التزام الحيطة والحذر، لكن ردّ كاداريه كان نسيان هذا الارتياب وتجاهل السلطات ورأيها فيه لأن أهم شيء في نظر الكاتب، الذي يحيا في ظروف مماثلة لظروف بلاده ألبانيا، هو عدم أخذ النظام الحاكم على محمل الجد. ويوضح قائلاً:

«الكاتب في وضع مختلف، فحياته أكثر غنىً، كما أنه يتصف بصفة

الديمومة بخلاف غيره من الناس، وأن المرء ليس بحاجة إلى أن يضطرب في كل الأحوال. هذا كلام يسهل قوله، لكن في وسع الكاتب أن يلاحظ أن الأمر ليس هكذا (إن كان في بلاده)».

يعتقد كاداريه أن أثر الأديب العظيم لا يمكن أن ينقضي بعدد من السنوات بل يستمر إلى ما لانهاية. ويضرب مثلاً على ذلك بقوله إن شكسبير وهوميروس سيسودان عالم الأدب لألفي سنة أو ربما لثلاثة آلاف سنة، لكن سيادتهما تختلف عن سيادة الحاكم الشمولي، لأن الأدب العظيم يختلف عن الحكم، وأن أديباً عظيماً واحداً يمكنه أن ينجز ما يفوق إنجاز مئة ألف أديب وضيع الشأن.

تدور أحداث رواية الحصار عن حصار الجيش العثماني لإحدى القلاع الألبانية المتخيلة وإخفاقه في الاستيلاء عليها، وهو بخلاف ما يذكره التاريخ. يبدو أن كاداريه أراد أن يشير إلى أن ألبانيا دولة منيعة، يصعب احتلالها كما القلعة نفسها. لكن هناك من ينظر إلى الرواية من غير هذا المنظور الوطني/ القومي على أنها تصور حتمية اندحار أي قوة أمام قوة أخرى أعظم منها وأكبر، وأن القضية هي قضية زمن لا أكثر ولا أقل حتى تجد الأمم نفسها وقد اجتاحتها أمم أخرى أقوى منها.

لكن كاداريه ينفي الصفة الانشقاقية للرواية؛ الصفة التي يؤكد البعض أن القلعة تصور ألبانيا نفسها، وأن المدافعين عنها ضد الحصار هم سكان ألبانيا الذين جثم على صدورهم نظام شمولي/ حصار، ولكنهم حققوا النصر في النهاية. يؤكد كاداريه في حديث يقول فيه:

«لقد كنت سعيداً بنشر الرواية لأنها ليست ذات صلة بالشعارات الشيوعية التي كانت سائدة يومذاك، أو النظريات الإيديولوجية التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من ثقافة المجتمعات الستالينية، وأن القدرة على الكتابة بحرية في ظروف تفتقر إلى الحرية أمر مدهش تماماً».

إننا نأمل بترجمتنا رواية الحصار عن الطبعة الإنكليزية الصادرة عام

2008 أن نكون قد أسهمنا إسهاماً متواضعاً في رفد المكتبة العربية بعمل جديد من أعمال كاداريه، الأديب المثير للجدل، وفي تعريف القارئ العربي الكريم إلى نموذج آخر من نماذج الأدب الألباني الذي نتشوق إلى معرفة ما هو أكثر من هذه الرواية التي نضعها بين أيدي قرائنا.

محمد درويش

أدركنا عند انحسار فصل الشتاء ورحيل مبعوثي السلطان أن الحرب قدرنا الذي لا مفرّ منه. فقد حاولوا الضغط علينا بكل السبل للقبول بأن نكون تابعين للسلطان. ففي البدء تزلفوا إلينا، ووعدونا بدور في حكم إمبراطوريتهم مترامية الأطراف. ثم اتهمونا بأننا مرتدُّون وممالئون للفرسان الإفرنج، بمعنى: عبيد أوروبا، وأخيراً هددونا، وهو أمر كان متوقعاً.

قالوا لنا: تبدون واثقين من حصونكم، لكن حتى لو كانت بالقوة التي تظنون، فإننا سنكتم أنفاسكم بطوق حديدي مخيف؛ بالجوع والعطش. في كل موسم من مواسم الحصاد ودَرس القمح، إن الحقل الوحيد الذي سترونه مبذوراً بالبذار هو السماء، والمنجل الوحيد هو القمر.

ثم انصرفوا. وعلى امتداد شهر آذار، انطلق مبعوثوهم الخاصون انطلاقة الريح، يحملون الرسائل إلى تابعي السلطان في البلقان، يخبرونهم إما أن يقنعونا بالاستسلام أو قطع كل العلاقات معنا. كما هو متوقع، فقد اضطُرِرنا إلى السير في الاتجاه الثاني.

كنا وحيدين، وكنا نعلم أنهم سيأتون عاجلاً أم آجلاً. فقد واجهنا في ما مضى هجمات عديدة من أعدائنا، لكن تربُّصنا بأعتى الجيوش التي عرفها العالم أمر مختلف. فقد كان الطنين يُدَوّي باستمرار في رؤوسنا، في حين كان أميرنا جورج كاستريوني منشغلاً بأفكار صعبة، إذ صدرت الأوامر إلى قلاعنا الداخلية البعيدة عن الساحل والأبراج الساحلية بإصلاح أبراج المراقبة فيها، والأهم من هذا كله، حشد الذخيرة من السلاح والتجهيزات. لم نكن نعرف من أين سيأتون، لكننا سمعنا في مطلع شهر حزيران أنهم بدأوا التقدم على امتداد طريق الرومان القديم، في ما وراء أغنايتا، وبهذا فهم يتقدمون باتجاهنا مباشرة.

بعـد مضـي أسبوع واحد فقـط، وإذ قرر القدر أن تكـون قلعتنا خط الدفاع الأول ضـد الغـزو، جيء إلينا بأيقونة من بلدة شكورد(*). وكانت تلك الأيقونة قد مَنَحـت قبـل مئة عام المدافعين عن دورس(**) القوة على صد هجمات النورمان. وعبَّرنا كلنا عن شكرنا لسيدتنا الطاهرة، وشعرنا أننا أكثر هدوءاً وأشدُّ بأساً.

تحـرك جيشهـم ببطء وعبر حدودنا في منتصف شهر حزيران، وبعد يومين جـاء جـورج كاستريوني مع الكونت موسـكا لتفقد الحامية للمرة الأخيرة. وبعد أن أصدر تعليماته الأخيرة، غادر القلعة بعد ظهر يوم الأحد ومن خلفه حاشيته ونساء الضباط والأولاد لأخذهم إلى مكان آمن في الجبال.

سرنـا إلـى جانبهم برهـة وجيزة صامتين، ثـم ودعناهم وعدنـا إلى البرج وراقبناهـم مـن فتحات الأبـراج وهم يصعدون. ثم شاهدناهم مـن جديد على سفح الشـر (إيفـل سلوب)، ليتواروا بعد ذلك عن الأنظار نهائياً في وادي الريح (ويندي رافيـن). وإذ ذاك أوصدنـا البوابات الخارجية الثقيلة، وبدت القلعة خرساء، إذ لم نعـد نسمـع أصوات صغارنا في داخلها. كما ثبتنا بعوارض خشبية الأبواب الداخلية تاركين الصمت يطبق علينا.

في الثامن عشر من شهر حزيران، سمعنا عند بزوغ الفجر قرع الناقوس، وأعلن الخفير في البرج الشرقي أنه يرى سحابة صفراء في الأفق البعيد. كان ذلك هو الغبار الذي أثارته جيادهم.

* * *

(*) **شكودر أو شَقودَر أو سكوتاري: Shkoder** مدينة ألبانية في الجزء الشمالي الغربي من ألبانيا وتقع على بحيرة بالاسم نفسه، وفيها حصن يعود إلى القرن الخامس عشر. (المترجم)

(**) **دورس Durres**: مرفأ ألباني على البحر الأدرياتيكي. (المترجم)

الفصل الأول

وصلت طلائع الجيش التركي أسفل أسوار القلعة في الثامن عشر من شهر حزيران، وأمضى الجنود النهار وهم ينصبون خيام المعسكر. بحلول المساء، لم يكن كل الجيش قد وصل بعد، فظلت الوحدات تتوالى وطبقة كثيفة من الغبار تلف الرجال، والدروع، والرايات، والطبول، والجياد، والعربات، والجمال المحملة بالمعدات البرونزية الثقيلة. كانت كلما وصلت مجموعة متقدمة إلى السهل الممتد أمام الحامية، أسرع ضباط من أحد الأفواج الخاصة لتحديد موقع في المعسكر لها، فينشغل الجنود المرهقون بإمرة قادتهم بنصب الخيام قبل أن يتهالكوا في داخلها كالموتى من شدة الإرهاق.

وقف قائد الجيش العام أُوغورلو طُرسُن باشا وحيداً خارج فسطاطه الوردي يراقب الشمس الغاربة. كان المعسكر يحتدم كله، هو وصفوف الخيام الطويلة الأشبه بأخطبوط يمد ذراعاً إثر ذراع مداً بطيئاً، لكنه واثق، ليحيط بالقلعة فيخنقها. كانت أقرب الخيام تبعد عن المتاريس أقل من مئة خطوة، أما أبعدها فكانت وراء الأفق. كان مساعدو الباشا قد أصرُّوا على أن يكون فسطاطه على مسافة لا تقل عن ألف خطوة من أسوار القلعة، لكنه رفض أن يكون بعيداً كل تلك المسافة. فقبل سنوات قليلة، وإذ لا يزال شاباً آنذاك، وبرتبة أدنى، كان ينام غالباً على بعد يقل عن خمسين خطوة من المتاريس، بل عند أقدام القلعة المحاصرة. لكن لون خيمته وبعدها عن الأسوار قد تغيّرا ترادفياً في مرحلة لاحقة بعد حروب وحصارات متتالية وبعد أن أصبح برتبة أرقى. فقد نصبت الخيمة على بعد يزيد قليلاً على نصف ما أوصى به مساعدوه، بمعنى، ستمئة خطوة، أي أقل بكثير من ألف خطوة. الأمر سيّان.

تنهد الباشا، وهو ما دأب عليه عندما يشرع في احتلال أرض قبل أن يضطر إلى احتلال قلعة، كما أنه فعلٌ لاإرادي ناجم عن أول انطباع لـه، ودائمـاً مـا يكـون عميقـاً، قبـل أن يعتاد الحالة؛ الأمر أشـبه بالاعتياد على امرأة ما. فقد بدأ كل هاجس من هواجسه على نحو مشابه، وكان ينتهي دوماً بتنهيدة أخرى، تنهيدة تنم عن ارتياح، عندما ألقى نظرة أخيرة على قلعة متوارية عن الأبصار تنتظر، مثل أرملة هزيلة ذات بشرة داكنة، الأمر باستعادتها أو تحطيمها نهائياً.

فـي هـذه المناسـبة، بـدت القلعـة الشـاخصة أمامـه كئيبة على وجه الخصـوص، شـأنها شـأن معظـم قـلاع النصـارى. أمر غريـب، أو مريب ينطوي عليه شكل أبراجها وتصميمها. لقد تولَّد لديه الانطباع نفسه قبل شـهرين عندما أحضر إليه المسَّـاحون المسـؤولون عن تخطيط الحملة مخططات البناء التي بسطها على حضنه مرات عديدة وعلى مدى ساعات مـن غيـر انقطـاع بعـد تنـاول وجبـة العشـاء، فيما كان الآخـرون نياماً في قصره العظيم في بورصة. كان يحفظ أدق التفاصيل الخاصة بالتصاميم عن ظهر قلب، لكنه بالرغم من ذلك، شـعر بنذير الشـر بعد أن شـاهد القلعة أخيراً بأم عينيه.

نظـر إلـى الأعلـى نحـو رمـز النصارى الديني المرتكز على قمة دار العبادة في القلعة، ثم إلى الراية المثيرة للذعر بنسرها الأسود ذي الرأسين، لكنه لم يسـتطع أن يتبين شـكله بوضوح. فالمسـافة العمودية من تحت البرج الشـرقي والأرض اليباب المحيطة بالهيكل والقلعة بفتحاتها التي تطلق منها النيران، كل هذه المشـاهد الأخرى احلولكت تدريجياً. نظر إلـى الأعلـى ليلقـي نظـرة أخـرى على رمز النصـارى الديني الذي بدا له متوهجاً على نحو غريب.

لـم يظهر القمر بعد. وبدا له غريباً أنَّ النصارى بعد أن رأوا الإسلام يتّخذون القمر شـعاراً لهم، لـم يتخذوا من الشـمس شـعاراً لهم بدورهم

على الفور. لم يكونوا على ما يبدو بالذكاء الذي كان يدعيه الناس.

...

استدار الباشا كي يلقي نظرة على معسكره. بدأ السهل يغرق رويداً رويداً في الظلمة، ولاحت الخيام البيضاء التي لا تعد ولا تحصى تحوم فوق الأرض وكأنها ركام من ضباب. كان في وسعه مشاهدة مختلف فيالق الجنود، وقد انتشرت بحسب الخطة المتفق عليها. ففي البقعة التي كان يقف فيها، بات يستطيع رؤية رايات الانكشارية البيضاء كالثلج والمراجل النحاسية التي يعلقونها فوق عمود طويل. كانت قوات المغاوير قد اصطحبت الجياد للشرب من جدول الماء القريب. على مسافة أبعد قليلاً نُصِبَت خيام لا تُعّد ولا تحصى لوحدات المشاة، ثم خيام الخيالة الذين جُندوا لهذه الحملة. بعد هذه الخيام تجد خيام الجنود من حَمَلة السيوف، فمواقع الاستشهاديين والجنود المسلمين والمهاجع الأكثر جاذبية للخيالة العاديين، ومن ورائها تنتشر الوحدات الكردية والفارسية والتتارية والقوقازية والقلموقية(*)، بل وينتشر وراءها، حيث لا يمكن لنظر القائد أن يتبين بوضوح ملامح أي شيء، حشدٌ متنافرٌ من المتطوعين غير النظاميين لا يَعرف عددهم الحقيقي أيُّ شخص. بدا كل شيء ينتظم في هدوء على نحو تدريجي، وكان قطاع واسع من الجيش قد استسلم للنوم، ولم يعد يُسمع أيُّ صوت سوى صوت المشرفين على الميرة وهم يفرغون الإمدادات عن قطارات الإبل: صناديق تحتوي على قطع برونزية، ومراجل وأعداد لا حصر لها من أكياس تحتشد بالمؤن والزيت والعسل، وعلب كبيرة تحتوي على كل أنواع المعدات كالقضبان المعدنية والأوتاد والمذاري والحبال المصنوعة من القنَّب المثبتة في نهاياتها كلاليب، والهراوات، وأحجار الشَّحذ، وأكياس الكبريت، ومجموعة كبيرة متنوعة

(*) **القلموق kalmyks**: هي قبائل مغولية بوذية تقطن في منطقة تمتد من غربي الصين إلى وادي نهر الفولغا الأدنى. (المترجم)

من الأدوات المعدنية لا يُعرَف لها اسم؛ جاءت كلها الآن لتستريح في أكوام تزداد حجماً على الأرض.

في هذه اللحظة، كان الجيش قد غمره الظلام، لكن عند بزوغ الفجر يبدأ بالوميض مثل سجادة فارسية وهو ينتشر في كل الاتجاهات. رِيَشٌ وخيام وأعراف ورايات بيضاء وزرقاء وأَهِلَّة - مئات ومئات من الأَهِلَّة البرونزية والفضية والحريرية - من شأنها أن تتمخض عن زهرة. من شأن مهرجان الألوان أن يجعل القلعة أكثر سواداً تحت رمز النصارى الديني. لقد جاء إلى أقصى طرف الأرض كي يطيح بذلك الرمز.

أصبح صوت المشاة وهم يعملون على حفر القنوات أشد وضوحاً في ذلك الصمت العميق. كان يدرك إدراكاً جيداً أنَّ العديد من ضباطه كانوا يستنزلون اللعنات بأفواههم، ويأملون أن يصدر الأمر بوقف العمل في القنوات لأنه هو نفسه خائر القوى من شدة التعب. أطبق فكَّيه على النحو الذي أطبقه عندما تكلم للمرة الأولى عن المراحيض في اجتماع القيادة العليا، وقال إنَّ الجيش كان في المقام الأول محيطاً من البول قبل أن يكون حشوداً متقدمة، أو مجموعة رايات، أو دماء تسفك، أو نصراً أو هزيمة. أصغوا إليه فاغري الأفواه عندما أوضح أن الجيش قد يبدأ في الكثير من الحالات بالإخفاق لا في ميدان المعركة، بل في تفاصيل عادية ذات أهمية لا يرقى إليها شك، تفاصيل لن تخطر ببال أحد مثل القذارة والرائحة الكريهة.

شاهد في مخيلته قنوات صرف المياه وهي تقترب أكثر فأكثر من النهر، فتستيقظ في الصباح باهتة شاحبة... في الحقيقة، الحرب بدأت على ذلك النحو، وليس كما تخيلتها الهوانم - سيدات المجتمع الراقي - في العاصمة.

كاد يضحك عندما فكّر في هؤلاء النساء الأنيقات، لكن الغريب في الأمر أن إحساساً بالحنين إلى الماضي حال دون ذلك. كانت تلك

هي المرة الأولى التي تنبَّه فيها إلى نفسه على أنه يملك مثل تلك المشاعر. فهز رأسه وكأنه يريد أن يهزأ من محنته. نعم، إنه يفتقد حقاً إلى هوانم بورصة، لكن هذا جزء واحد من المحنة، لأن ما يفتقده هو وطنه البعيد الأناضول، الذي طالما فكّر في سهوله الهادئة الكسولة إبَّان التقدم الطويل في البلقان. فكّر فيه أكثر من أي وقت مضى عندما دخل جيشه بلاد الأرناؤوط، وشاهد للمرة الأولى قممها المثيرة للفزع. في صبيحة أحد الأيام، وقبل أن ينتصف النهار، سمع والنعاس يغالبه على صهوة جواده، صيحة من مختلف الأرجاء: «الجبل! الجبل!»، تتردد بطريقة معينة كأنها تعبّر عن هلع. رفع ضباطه رؤوسهم ونظروا شمالاً، ثم يميناً وكأنهم يحاولون الحصول على صورة أوضح، وحدَّق طويلاً هو الآخر إلى الجبال. لم يسبق له أن شاهد ما يشبهها، وذكَّرته بالكوابيس المفزعة التي لا تخفف اليقظة منها شيئاً. بدت الأرض والصخور وكأنهما تتدافعان تدافعاً جنونياً صوب السماء ساخرتين بقوانين الطبيعة. سأل للمرة المئة منذ بدء الحملة إن كانت قيادته الجيش تُعدُّ مكسباً لأصدقائه أم لأعدائه.

لاحظ طوال الرحلة أن مجرد رؤية تلك الجبال يمكن أن تُقلِق ضباطه. فقد بدأوا يتكلمون في أغلب الأحيان عن السهل الذي تمنوا رؤيته أمامهم بأسرع ما يمكن. تحرك الجيش ببطء، إذ لم يعد الآن يجر بعناء شديد أسلحته وتجهيزاته، بل يجر أيضاً ظل الجبال الألبانية الثقيل. كان أسوأ ما في الأمر هو أنه لم يكن في وسعه عمل أي شيء للتخلص منه. كان ملاذه الوحيد متمثلاً باستدعاء مُوثِّق الحملة وسؤاله عن الأسلوب الذي سيصف به التضاريس الجبلية، فردَّ عليه وقد ارتعدت فرائصه من شدة الخوف إنه جمع سلسلة من الصفات الرهيبة كي يرسم المشهد الألباني. إلاَّ أنها لم تحظَ بموافقة الباشا، فأمر الموثِّق أن **يفكّر** مرة أخرى. في صباح اليوم التالي، مَثُلَ الموثِّق أمامه **محتقناً بالدم إذ**

فارقه الكرى في الليلة الماضية، وقرأ له وصفه الجديد. تكلم بطريقة خطابية قائلاً إنَّ الجبال الشاهقة التي لا تستطيع حتى الغربان الطيران إلى علوٍّ أعلى منها، وأن الدجاج لا بد من أن تكون له مخالب مغلفة بالحديد كي يتسلقها.

أثارت هذه الصور السرور في نفس الباشا. لقد انتهى التقدم الآن، وهبط الليل، وحاول أن يتذكَّر العبارات المستعملة، إلاَّ أنه كان منهك القوى ولم يتمكن عقله المرهق من التفكير في أي شيء سوى الراحة. كانت تلك الحملة هي الأطول والأشد إرهاقاً طوال حياته العسكرية. كان الطريق القديم، الذي يتعذر المرور في بعض أجزائه، وقام المهندسون بإصلاحه بأسرع ما يستطيعون، يحمل اسماً غريباً هو طريق أغنايتا، وهو يرجع إلى زمن الرومان، لكن يبدو أنه سيبقى إلى الأبد. في بعض الأحيان، كان جنوده يتعطلون عن الحركة في الممرات الضيقة إلى أن يقوم سلاح الهندسة بإنشاء تحويلة. ثم بات الطريق سالكاً مرة أخرى، وواصل جيشه تقدمه البطيء المغبر، كما كان شأنه في اليوم الأول والثالث والخامس والثامن من قبل. ولا تزال تلك الطبقة الكريهة من الغبار الرمادي عالقة في ذاكرته حتى اليوم بعد أن كانت قد زالت.

سمع صهيل الجياد من ورائه. كانت العربة المغلقة التي أتت بأربع من حريمه لا تزال في مكانها، متوقفة قرب خيمته.

فكّر مراراً قبل مغادرته إن كان يتعين عليه أن يُحضر زوجاته معه. لكنّ بعض أصدقائه نصحوه بخلاف ذلك، قائلين إن من الحقائق المعروفة جيداً أن النساء يجلبن الحظ العاثر للحملة العسكرية، فيما أشار آخرون برأي مغاير وقالوا إنه لا بد له من أن يصطحبهنّ معه إن أراد أن يشعر بالهدوء وينعم بالراحة والنوم الهانئ (بقدر ما يمكن لكل امرئ أن ينام نوماً هانئاً خلال الحرب). لقد كان مألوفاً تماماً عدم اصطحاب الباشوات زوجاتهم معهم في ظروف مشابهة. لكن هدف هذه

الحملة هو الوصول إلى أراضٍ جدّ بعيدة. علاوة على ذلك، واستناداً إلى كل التوقعات، فإن الحصار يُرجَّح أن يستمر زمناً طويلاً. لكن لم تكن تلك هي الأسباب الحقيقية، لأن الأسرى في جميع الحملات، مهما كانت بعيدة واستغرقت زمناً طويلاً، كانوا يؤخذون دائماً، وكانت النساء اللواتي يتم الفوز بهن على حساب دماء الجنود أكثر إثارة وجاذبية من أي من الحريم. لكن الأصدقاء حذَّروه أنه سيصعب عليه أسر أي أنثى في الأراضي التي سيذهب إليها. الفتيات هناك جدُّ جميلات على وجه التأكيد، لكنهن بحسب وصف شاعر رافق غزوة مبكرة في تلك البقاع، مغويات، واحسرتاه، يصعب الوصول إليهن وكأنهن حلم. كنَّ يرمين بأنفسهن من فوق جرف صخري في أغلب الأحيان كي يهربن من المطاردة. قال البعض إنَّ هذا ليس إلاَّ ضرورة شعرية، غير أنّ أقرب أصدقاء الباشا هزوا رؤوسهم بالنفي. في نهاية المطاف، وبينما كان رئيس الوزراء ينصرف، لاحظ العربة الصغيرة ذات النوافذ محكمة الإغلاق، فسأله عن السبب الذي دفعه لاصطحاب النساء إلى بلاد مشهورة بجمال نسائها. فردَّ عليه وهو يتحاشى نظرة رئيس الوزراء الماكرة قائلاً إنه لا يريد أن يأخذ أي حصة من الأسيرات اللواتي سيأسرهن جنوده البواسل بجهدهم ودمهم.

لم يفكّر البتة في أثناء التقدم في زوجاته. لا بد من أنهن نائمات الآن في خيمتهن ذات اللون الأرجواني الفاتح بعد أن أعياهن طول السفر.

سمع صوت قطرات المطر وهي تنهمر على الخيمة قبل أن يشعر بها على بشرته. بعد برهة وجيزة، تناهى إلى سمعه من مكان ما داخل المعسكر صوت المطر المألوف وهو ينهمر، واستدعى صوت هطوله المنذر بالشؤم والمختلف اختلافاً بيِّناً عن الضربات على الصناديق الثقيلة أو النفخ في أبواق الحرب، صورة جنوده الذين كانوا، بالرغم من قواهم

المنهكة، مضطرين إلى جذب القماش المشمع المتين لتغطية مُعِدّاتهم وهم يصبّون اللعنات على الطقس خلال عملهم الشاق. تناهى إلى سمعه من يقول إن ما من جيش أجنبي يملك وحدة خاصة مهمتها الإعلان عن قدوم المطر سوى المغول. حدَّث نفسه قائلاً إنّ كل ما هو مفيد في فنّ الحرب يرجع إلى المغول. ثم دخل خيمته.

كان الخدم قد أعدوا سرير الباشا، ووضعوا الأرائك حوله، وبدأوا الآن يفرشون السجاد على الأرض. كانت قطعة من القماش مزخرفة بآيات من القرآن الكريم معلقة عند المدخل. علقت الكلاليب وفق أسلوب مألوف من أعلى الوتد الرئيس كي يتمكن من تعليق ردائه الخارجي وقراب سيفه. بخلاف ما كان يتوقعه دوماً، وجد خيمته تزداد كآبة كلما رُقِّي إلى مرتبة أعلى.

جلس على إحدى الأرائك واضعاً رأسه بين يديه، وانتظر أن يكمل آمر المعسكر تقريره. في هذه الأثناء كان معظم الجنود قد وصلوا، وكانت الأماكن قد خصصت لهم في المعسكر، فيما أُرسل الحرس والخفائر والكشافة إلى جميع الأرجاء؛ باختصار، أُنجز كل ما هو ضروري، وبانتظام، وأصبح في وسع القائد أن ينام قرير العين.

أصغى الباشا من دون مقاطعة، بل لم يرفع رأسه عن يديه كي لا يرى آمر المعسكر عينيه، بل مجرد الياقوتة في أصبع القائد الوسطى. كانت الياقوتة من ذلك الصنف الذي يسمى بحجر الدم بسبب لونها.

عندما انصرف الضابط المرؤوس، نهض طُرسُن وخرج مرة أخرى. كان المطر أقل مما تصور من خلال الضوضاء التي كان قد تسبب بها داخل الخيمة. كانت أذناه لا تزالان تدويان بما يكرره عليه آمر المعسكر من ابتهالات الحرس والخفائر والكشافة، إلا أنها بدلاً من أن تُهدِّئ من روعه جعلته أكثر قلقاً واضطراباً. فكّر في أنَّ الليل يحمل دوماً تشوشاً، وكان قد تناهى إلى سمعه مثل هذا الكلام في مكان ما أيام شبابه، إلاَّ

أنه لم يكتشف إلا بعد عمر طويل أن ذلك لا يرجع إلى نتائج الحب أو الشهوة، بل إلى مفاجآت مزعجة.

كانت الليلة حُبلى وكان هو في رحمها، بمفرده. كان في وسعه مشاهدة وميض باهت ينبعث من الخيام القابعة على ميمنة خيمته. كان الآخرون يقظين مثله تماماً. ربما كانوا من المشرفين أو طاردي الأرواح الشريرة. كان مألوفاً أن تكون خيام موثِّق الحملة، وطاردي الأرواح الشريرة جنباً إلى جنب. وكانوا كلهم يعرفون أكثر مما كان يعرف هو ما يخبئه القدر على وجه التأكيد. إلاَّ أنه بالرغم من ذلك لم يثق بهم ثقة تامة.

كان صوت قطرات المطر يزداد ارتفاعاً، فشعر الباشا أنه جدّ قريب من السماء ولا يفصله عنها سوى تاج خيمته الواهي.

تغلَّب عليه حنين غريب وهو يفكّر في حجرة نومه في البيت، في قصره، الذي نادراً ما يسمع فيه صوت طقس سيئ. لقد أصبح معرَّضاً أكثر للشوق إلى الحرب. عندما يكون في بيته، مستلقياً في حجرة مفروشة بالسجاد تحول دون سماع الأصوات، يفكّر بشوقٍ في خيمة ممتلئة والريح تصفر من حولها... ألم يبلغ الآن السن التي ينبغي له فيها انتعال الخف والعودة إلى بيته الأناضولي الهادئ؟ ألا ينبغي له الذهاب قبل الخريف؟

كان يدرك أنّه أمرٌ عسير يصعب تنفيذه، إذ إنه لا يزال شاباً، لكن ليس ذلك هو السبب الرئيس. لقد وصل رتبة عسكرية بات التوقف معها أمراً مستحيلاً. فهو محكوم عليه إما بالمضي قُدماً والارتقاء أو السقوط. كانت السلطنة تتوسع يومياً. وكل من يتمكن من إثبات أنه الأَقوى والأشجع يمكنه الحصول على كل شيء. هناك آلاف الرجال الطموحين الذين يشقّون طريقهم كالوحوش الكاسرة صوب الثروة والمجد، فيدفعون الآخرين جانباً، بالمناورة الذكية أحياناً، وبالدسيسة والسم في أغلب الأحيان.

لقد شعر مؤخراً أنَّ الأرض تميد تحت قدميه. لم يكن هناك أي سبب واضح كذلك الإحساس غير الأكيد الذي تصعب معالجته كما هو شأن مرض من الأمراض الغامضة التي لا يعرف لها أحدٌ علاجاً.

استخدم كل الوسائل المتاحة أمامه كي يكتشف الدوائر الخفية التي تحوك المؤامرات ضده. مضيعة للوقت. فهو لم يكتشف أي شيء قط. بدأ أصدقاؤه ينظرون إليه نظرة إشفاق، لا سيما بعد أن تلقى آخر هدية من السلطان؛ مجموعة من الدروع. شعر الجميع أنَّها نذير شؤم. كان الناس يتوقعون أن يسقط عندما تواترت الأخبار على حين غرة بأنه عُيِّن بأمر مقتضب قائداً لحملة كبرى توشك على الانطلاق ضد الألبان. قال الناس إنه لا بد من أن يكون له حتى الآن بعض الأصدقاء في مواقع رفيعة حتى لو كان هناك أعداء كثيرون. لكن في الوقت نفسه بات واضحاً أنَّ إرساله لمحاربة إسكندر بِك يعني أنَّ السلطان منحه فرصة أخيرة.

لم تكن تلك المرة الأولى التي يتصرف فيها ملك الملوك مثل ذلك التصرف، إذ كان يعين دائماً أولئك الرجال الذين يلعبون ورقتهم الأخيرة لقيادة أشد الحملات خطورة، مدركاً الإدراك كله أنَّ أشد المحاربين هم أولئك الذين يقاتلون قتالاً مستميتاً ولا يتقهقرون.

نهض الباشا، وشرع يذرع الخيمة جيئة وذهاباً على السجادة الفاخرة داخل خيمته. ثم جلس مرة أخرى وأخذ مجموعة صغيرة من الورق والورق المقوى من حقيبة جلدية كبيرة. كانت ثمة خارطة للقلعة بين الوثائق. وضعها الباشا على حضنه، وطفق يتأملها. كانت خارطة تحتوي على كل التفاصيل الخاصة بالموقع لا سيما ارتفاع المتاريس والأبراج، ومنحدر الأرض من كل جانب، ومواصفات الباب الرئيس والمدخل الثانوي من جهة الجنوب الغربي، والأخدود في الجانب الغربي، والنهر. كان الرسام قد وضع علامات استفهام بالحبر الأحمر في ثلاثة أماكن أو أربعة للدلالة على المواقع المحتملة لدخول قناة الماء إلى القلعة

والخروج منها. نظر الباشا إلى هذه العلامات نظرة ثابتة.

جاءه أحد الخدم بالعشاء فوق صينية، إلاَّ أنه لم يلمسه. وظلت أصابعه تُسبِّح بالمسبحة، غير أنَّ الصوت الذي كانت تحدثه لم يفعل شيئاً أكثر مما تفعله طقطقة قطرات المطر في طرد مشاعر الخواء من أعماقه.

صفق يديه، فبرز مخصيٌّ أمام باب خيمته.

قال من دون أن ينظر إليه:

- أحضر لي أزهار.

مال المخصيُّ إلى الأرض، لكنه مكث واقفاً في مكانه، وبدا وكأنه يريد أن يقول شيئاً، إلاَّ أنَّ الخوف تملكه فلم يعد يستطيع فتح فمه.

سأل الباشا بعد أن شاهد الرجل لا يزال واقفاً في مكانه:

- ماذا هناك؟

تمتم المخصيُّ بشيء ما من دون أن يصدر عنه صوت.

سأل الباشا:

- أهي مريضة؟

- لا يا حضرة الباشا، لكنك تعلم أنَّ الحمام... وربما...

أشار إليه الباشا أن يلتزم الصمت، ونظر إلى مسبحته مرة أخرى. بدت الليلة وكأنها ستكون طويلة مثل ليلة شتوية.

نطق بغير تبصر:

- أحضرها إليَّ في كل الأحوال.

انحنى المخصيُّ مرة أخرى، وتوارى عن الأنظار وكأنه ظل.

عاد بعد بضع لحظات وهو يمسك بيد امرأة شابة صفف شعرها على عجالة، وبدت وكأنها لا تزال نائمة. كانت أصغر النساء بين حريمه. ولم يكن يعرف سنوات عمرها، ولا هي تعرف أيضاً، لكنها لم تكن قد جاوزت السادسة عشرة.

أومأ إليها الباشا، فجلست على السرير. لم تثره، لكنه استلقى إلى جانبها من دون حراك. اعتذرت لأنها لم تتمكن من أن تغتسل تلك الليلة لأسباب خارج نطاق إرادتها. فأدرك الباشا أن المخصيَّ لقَّنها تلك العبارة، فلم يردَّ عليها. عندما شمَّ رائحة الفتاة المألوفة، التي امتزجت للمرة الأولى برائحة الغبار، فكّر لبرهة وجيزة في أنه ربما لا ينبغي له وضع يده على امرأة في تلك الليلة قبل المعركة، إلاَّ أن تلك الفكرة سرعان ما غابت عن ذهنه تماماً مثلما دخلته.

نظر إلى الفتاة فبدت غريبة إلى حدٍّ ما، مما جعله أكثر رغبة فيها. كان يقول لنفسه دائماً إنه يجب ألاَّ يعاشر المرأة عندما يكون ذهنه منشغلاً بشأن من شؤون الدولة.

لكنه سرعان ما كان يغير رأيه مؤملاً أنه بذلك سيتمكن من معالجة الأمور. وفي هذه الليلة استطاع أن يقهر تردده.

إنّ اهتمامه غير المألوف الذي أظهره تجاهها لم يثر دهشته. فكّر في أن ذلك ربما يرتبط بالرحلة الطويلة التي تحملتها الفتاة مع جنوده فأصبحت بالتالي جزءاً من جيشه.

تحرك بتثاقل وكأن الرغبة كامنة خارج جسده. كانت متعته قصيرة الأمد لكنها حادة وقوية، كأنها متعة مركزة في ذاتها، مثل جذع شجرة بلا أغصان.

اعتذرت له مرة أخرى. لكنه لم يردَّ عليها، واستند إلى مرفقه ومال إلى الوراء فوق الوسائد، وبدأ يعد حبات مسبحته مرة أخرى. علت وجنتيها حمرة، ووضعت رأسها فوق الوسادة، وفكّرت في الوجه قاسي الملامح لذلك الرجل الذي تنتمي إليه.

نسي كل شيء عنها، ومدَّ يده إلى كومة الوثائق، وأخرج من بينها خارطة القلعة. رسم علامتين عليها، ثم علامة ثالثة بالحبر الأسود. رفعت الفتاة نفسها قليلاً مستندة إلى مرفقها، وألقت نظرة خاطفة

بعينيها الجميلتين إلى الورقة وإلى مجموعة العلامات الغريبة. رأت أنَّ عيني سيدها الرماديتين الباردتين لم تتزحزحا عنها. فأبدت حركة صغيرة بحرصٍ شديدٍ كي لا تزعجه. إلاّ أنها عندما حركت مرفقها الذي أصابه خِدر، اهتز السرير، وكادت إحدى الرايات الثقيلة أن تسقط فوق الخارطة. حبست الفتاة أنفاسها؛ لكنه لم ينتبه إلى أي شيء، كان مستغرق التفكير في الخارطة.

نظرت إلى وجه الباشا تارةً وإلى العلامات التي يضعها على الخارطة تارةً أخرى. كانت كثيرة الفضول وجريئة إذ سألت:

- إذاً، أهذه هي الحرب؟

نظر نحوها، وحملق فيها كأنه مندهش لرؤيتها مضطجعة، لكنه التفت وعاد إلى تأمل الخارطة.

استمر في وضع العلامات على الخارطة مدة طويلة من الزمان. وعندما التفت إليها، وجدها قد استسلمت للنوم. كانت أنفاسها عميقة، وشفتاها مفتوحتين إلى حدٍّ ما، وبدت أصغر سناً من عمرها الحقيقي.

كان المطر لا يزال يهطل بغزارة على الخيمة.

فيما كان الباشا يتأمل رموش زوجته الرابعة ورقبتها الطويلة الشاحبة، عاد بتفكيره إلى الوراء - من يدري ما السبب؟ - إلى المراحيض التي شُيِّدت بأقصى سرعة. لا بد من أنّ القناة الأولى تزحف الآن صوب النهر، مثل حيَّة ماء... رفع البطانية، وخلافاً لعادته المألوفة، ألقى نظرة إلى رفيقته، وفكّر في أنها ربما ستحمل منه. قد تُنجب ابناً في غضون تسعة أشهر. كان النعاس الذي بدأ يغالبه قد دفعه للتفكير في المعدّات التي ينبغي أن تكون الآن تحت القماش المشَّمع، وفي الخفائر، وفي اجتماع مجلس الحرب يوم غد، ليعود بعد ذلك ويفكّر في بطن المرأة التي ربما بدأ فيها تواً تكوين ابنه. عندما سيكبر ذلك الابن، هل تراه سيتصور أنه تكوَّن أصلاً في خيمة الحملة تحت ذلك المطر المدرار

عند أسفل القلعة الشنيعة، بعيداً عن الشمس الغاربة...؟ ربما سيصبح جندياً هو الآخر، وإذ يترقى في الرتب العسكرية ربما ستنتقل خيمته مسافة تبعد مئتين أو ستمئة أو ألف ومئتي خطوة عن المتاريس... ثم أطلق تنهيدة وقال: «يا الله! لِمَ خلقتنا هكذا؟»، ثم مال رأسه وكأنه فوق حفرة لا قرار لها.



كانت خيامهم البيضاء تحيط بقلعتنا على شكل تاج كبير. وفي فجر ذلك اليوم الذي تلا وصولهم، بدا السهل وكأنه مغطّىً بطبقة سميكة من الثلج. لا يمكن رؤية الأرض، ولا العشب، ولا الصخور. تسلقنا حتى وصلنا فتحات جدار القلعة كي نلقي نظرة على هذا المشهد الشتائي. عندئذٍ أدركنا عظمة الصراع الذي دخله كاستريوني مع مراد الذي كان أقوى أمير(*) في ذلك العصر.

يمتد معسكرهم إلى أبعد ما يمكن أن تراه العين. كما توارت الأرض عن البصر وغاصت قلوبنا. إننا الآن وحدنا، ما من رفيق لنا سوى الغيوم، كما هو الأمر دوماً، فيما تشكل مختلف الخيام تحت أقدامنا مشهداً جديداً، عالماً لا مكان له، إن جاز التعبير. كأنه مشهد كابوسي.

يمكن من هذا المكان مشاهدة الفسطاط الوردي للقائد العام. كان في يوم أول من أمس قد أرسل وفداً لطلب استسلامنا. وأوضحوا موقفهم بمنتهى الوضوح:

إنهم لن يمسوا أحداً منّا، وسيتركوننا نرحل عن القلعة بسلاحنا وأمتعتنا الشخصية، وإنّ في وسعنا الذهاب إلى حيث نشاء. كان كل ما أرادوه لقاء ذلك هو مفاتيح القلعة كي يتمكنوا من إنزال الراية ذات الطائر الأسود (وهو الاسم الذي كانوا يطلقونه على نسرنا) عن البرج الذي تخفق عليه، لأنها تشكل إهانة للسماء. وكانوا يريدون أن يضعوا محلّها الابن الحقيقي للعالم السماوي، ألا وهو الهلال.

هذا ما كانوا يفعلونه في كل مكان في الأزمنة الحديثة: كانوا يتظاهرون بأنهم يلاحقون رمزاً، في حين أن هدفهم الحقيقي كان يتمثل بالفتح. أما قضية الدين فكانوا يتركونها إلى النهاية لأنهم كانوا واثقين أنه عرضهم الفائز. كان زعيمهم يشير إلى أنه يمكننا أيضاً أن نبقى على ديانتنا النصرانية، وأضاف أننا سنتخلى عنها في الوقت المناسب لأن ما من أمة يمكن أن تفضل الشهادة على سلام الإسلام.

(*) لم تذكر كتب التاريخ أن أيًّا من سلاطين آل عثمان الخمسة الذين يحملون اسم مراد كان يسمى أميراً، بل كلهم كانوا سلاطين. (المترجم)

كانــت إجابتنــا حاسمة ومقتضبة: لن يُرفع النســر ولا الرمز عن سمائنا: فهما القدر الذي اخترناه، وسنظل أوفياء لهما. وكي يحتفظ كل فريق منا برموزه وقدره بحسب تعاليم الله، فإن لا خيار أمامهم سوى الرحيل.

لم ينتظروا المترجم كي يترجم كلماتنا الأخيرة، إذ نهضوا بعجالة ووقفوا على أقدامهــم ثائريــن. قالوا إننا عميان، وقالوا إنهم تفاوضوا بما فيه الكفاية حتى الآن، وإنّ الأوان قــد آن للســلاح كــي يتكلم. ثم أسرعوا صوب البوابــة الخلفية، وشقوا طريقهم وسط الفناء كي يظهروا لنا روعة ثيابهم.



الفصل الثاني

توقف موثِّق الحملة مولى جلبي على بعد خمسين خطوة من خيمة الباشا، وحدَّق باهتمام في أعضاء المجلس وهم يدخلون الفسطاط واحداً إثر الآخر. كان أمام الخيمة عمود معدني يتربع على قمته هلال نحاسي؛ رمز السلطنة. فيما هو يتفرس في الضابط من ذوي الرتب العالية، حاول أن يتذكر الصفات التي يمكنه أن يستعملها في وصفهم في مدوّنته. إلاَّ أنّ كل ما استطاع أن يعثر عليه هو بعض العبارات الركيكة، استلهم أسلافه معظمها. يضاف إلى ذلك، لو أنه ترك جانباً تلك العبارات التي سيضطر إلى استعمالها في وصف القائد العام، فلن تبقى سوى عبارات قليلة نفيسة، وعليه أن يبذل عناية فائقة كي لا يستنفدها بعجالة. بدا وكأن في قبضته مجموعة من المجوهرات ينبغي له أن يوزعها توزيعاً مُقَتِّراً بين هؤلاء المحاربين الذين لا عدَّ لهم ولا حصر.

لم يترجل قائد المغاوير كورديسجي عن صهوة جواده، وبدا رأسه الضخم المحمر لا يزال مستغرقاً في النوم. وصل بعده قائد الانكشارية تافجا توكما خان العنيف بالرغم من كبر سنه والذي بدت ساقاه القصيرتان وكأنهما مكسورتان، وأعيدتا إلى وضعهما على نحو سيئ. دخل قائد المشاة قره مقبل بمعية مفتي الجيش وقائدين آخرين من قادة الأقاليم. وجاء في إثرهم أصلان خان ودلي بورجوبا وأُولو بِك بيه وأولتشا قره دومان وهاتاي وأُوتش قورتوكموز وأُوتش تونجقورت وبكر خان بيه وتاهانكا الأصم وعلي بيه من الجيش. فطن جلبي إلى أنه ينبغي له أن يذكر في سجله كل واحد من هؤلاء القادة المشهورين الذي تردد صدى أسمائهم بقعقعة الحديد، والوحوش الكاسرة، والغبار الأسود في التقدم الطويل، والزوابع والبرق وغيرها من الأمور التي تثير الهلع.

باستثناء القائد العام وقره مقبل اللذين كان وجهاهما البيضاويان مقبولين للناظرين، وكذلك علي بيه الذي كان أسوة بمعظم ضباط جيشه رجلاً رفيع المقام، فإن كل القادة كانوا من ذوي الملامح التي بدت وكأنها لم تُرسم إلاَّ على النحور، الأمر الذي يزيد من صعوبته في توثيق كتابه. مرَّت بذهنه على نحو آلي صفات لا تستحق الظهور في ملحمة حربية: بشرة جفن أُولتشا قرة دومان، وربو المفتي، وسن أُوتش قورتوكموز الإضافية، وتقرحات أُوتش تونجقورت، والظهور المحدودبة، والرقاب القصيرة، والأذرع الفزاعة، والأكتاف المصابة بِعِرق النِّسا لآخرين كثيرين، كذلك الشعيرات الخشنة البارزة من أنف كورديسجي.

كان يفكّر في تلك الشعيرات الأنفية لسبب لا يعرفه أحد عندما سمع أحداً ينادي اسمه:

- مرحباً يا مولى جلبي.

التفت الموثِّق، وانحنى انحناءة تذلُّلٍ وخنوعٍ إلى الأرض. كان الرجل الذي حيَّاه ضابط الميرة في الجيش الذي قدم له صحبة المهندس ساروجا، سبَّاك المدفع الشهير. كان المهندس شاحب البشرة ذو العينين المحتقنتين من سهر الليالي هو العضو الوحيد في المجلس الذي يرتدي عباءة سوداء، تنسجم انسجاماً حسناً مع هالة الغموض التي تحيط بعمله.

سأل ضابط الميرة جلبي:

- ماذا تفعل هنا؟

أجاب الموثِّق بلهجة طنانة كأنما يريد تبرير وجوده.

ابتسم ضابط الميرة له، ومضى في سبيله برفقة ساروجا صوب باب الخيمة حيث كان الحراس واقفين كالتماثيل.

شعر الموثِّق بالذنب مرة أخرى بسبب الأفكار التي راودته قبل قليل، وبدأ بمراقبة قوام ضابط الميرة الفارع والرشيق الذي سبق أن بدأ

بالتعرف إليه في أثناء التقدم الطويل. لكنه كان في هذه المرة يعطي على نحو غير مألوف تماماً انطباعاً بالغطرسة.

كان آخر من قدم للاجتماع هو المعماري جاور، فتعقبه جلبي، وانتابته دهشة بسبب طريقته في المشي التي بدت غير طبيعية. لم يكن هناك أحد يعرف تماماً جذور جنسية هذا الرجل الذي كان يعرف كل سرٍّ من أسرار مباني القلعة. لم تكن لديه أسرة معروفة، وهو أمر لا يبعث على الدهشة بالنسبة إلى أجنبي، لكنه بدا وحيداً مرتين بسبب طريقة كلامه التي استعمل فيها لغة تركية خاصة لا يستطيع إلاَّ القليل فهمها. ولمّا كان ذقنه أملس، فقد ظن كثيرون أنه امرأة حقاً، أو على الأقل نصفه رجل ونصفه الآخر امرأة؛ أي خنثى كما كان الناس يرددون.

أخيراً، دخل المعماري الخيمة، ولم يبقَ خارجها سوى الحراس المكلفين بالخدمة الذين بدأوا يلعبون لعبة النرد. كان الموثِّق يتحرق لمعرفة ما كان يدور من حديث داخل الخيمة. لو أنه عُيِّن مساعداً لمجلس الحرب، إضافة إلى وظيفته موثِّقاً للحملة، لكان في موقع يؤهله معرفة كل شيء. كان أمراً طبيعياً بالنسبة إلى الرجل نفسه أن يتبوأ كلا المنصبين. لقد علّل موقعه المحدد بأساليب متباينة معتمداً على مزاجه. ففي بعض الأحيان فكّر في أنهم أحسنوا صنيعاً عندما لم يزيدوا العبء عليه بالعمل، وبهذا سمحوا له بالتركيز على التوثيق تركيزاً كاملاً، وهو عمل يفترض به أن يكون سجلاً هائلاً للحملة. لكنه خمَّن في أوقات أخرى، كما الآن وهو ينظر إلى فسطاط الباشا عن بعد مسافة قصيرة، السبب الحقيقي لاستبعاده وشعر بالمرارة وبخيبة الأمل.

كان يوشك أن ينصرف عندما رأى عدداً من أعضاء المجلس يغادرون الخيمة، وكان ضابط الميرة من بينهم. وعندما شاهد جلبي ناداه:

- هيَّا يا مولى، هيَّا نتمشَّى، وستتمكن من تجاذب أطراف **الحديث**.

إنَّ المجلس يراجع الآن تفاصيل الهجوم، وقد طُلب مِنَّا الانصراف، نحن الذين لسنا طرفاً مباشراً.

سأل جلبي على نحو خجول:

- متى سيبدأ الهجوم؟

- بعد أسبوع كما أعتقد، حالما يتم سبك المدفعين العملاقين.

سار الاثنان الهوينا، فيما اقتفى أثرهما حاجب ضابط الميرة مثل ظل.

قال ضابط الميرة وهو يؤشر بذراعه:

- لنذهب إلى خيمتي لتناول بعض الشراب، ونهرب من هذا الصخب البالغ.

وضع جلبي يده على قلبه، وانحنى انحناءة منخفضة مرة أخرى، وقال:

- إنه لشرف عظيم لي.

كانت الدعوة إلى الخيمة وإلى الحديث عن التاريخ وعن الفلسفة مرة أخرى، وهو ما كان قد فعله قبل بضعة أيام، قد ملأته غبطة سرعان ما تبخرت خشية أن يُخيب صديقه البارز أمله.

قال المسؤول الرفيع:

- رأسي يكاد ينفجر، وأنا بحاجة إلى بعض الراحة. ولديَّ أشياء كثيرة أريد إنجازها.

أصغى موثِّق الحملة إليه، وقد بانت على ملامحه سيماء الشعور بالذنب.

قال ضابط الميرة:

- إنه لأمر غريب جداً أنكم اعتدتم، أنتم المؤرخون، على أن تعزوا كل أمجاد الفتوحات إلى القادة العسكريين، لكن تذكّر ما أقوله لك يا

مولى، تذكّر جيداً: إنَّ هذا الرأس الذي يلي رأس القائد العام هو الذي يحمل مشاغل أكثر من أي رأس آخر.

ثم نقر بسبابته على جبهته، فيما انحنى جلبي احتراماً له.

استرسل ضابط الميرة بلهجة تنم عن ضيق:

- إنَّ تجهيز الطعام لجيش ما مشكلة أساسية في الحرب. ففي وسع كل فرد أن يلوّح بسيف، لكن تجهيز أربعين ألف رجل بالماء والطعام في أرض جرداء غير مأهولة هو العقبة الكأداء.

لاحظ الموثِّق:

- هذا صحيح تماماً.

فجأة قال ضابط الميرة:

- هلاّ أُفشي لك سراً؟ إنَّ الجيش الذي تراه قد خيَّم من حولك لا يملك تجهيزات إلا لخمسة عشر يوماً!

رفع جلبي حاجبيه، لكنه فكّر في أنهما ليسا كثيفين على نحو يعطي انطباعاً مناسباً عن مدى دهشته.

استرسل الضابط في كلامه:

- استناداً إلى الخطة، يفترض بقطارات التموين أن تغادر أدِرنَة(*) كل أسبوعين. ولو سلَّمنا بذلك، هل أستطيع الاعتماد عليها في ضوء المسافة الطويلة التي يتعين عليها أن تقطعها؟ التموين. لو سمعت يوماً ما أنني أصبت بالجنون، فستعرف السبب!

أراد موثِّق الحملة أن يحتج: ماذا تقول؟ هزَّ رأسه ورفع ذراعيه؛ إلا أنهما بدتا أقصر من أن تُفصِحا عمّا يريد قوله.

استمر الرجل الثاني في حديثه:

(*) أدِرنَة: مدينة تركية على نهر مارتيسا قرب الحدود اليونانية، كانت عاصمة العثمانيين 1362_1453 فيها آثار بيزنطية وإسلامية أهمها جامع السليمية. (المترجم)

- هكذا، فإن كامل المسؤولية تقع على عاتقنا. لو جاء الطهاة وقالوا في يوم لطيف إنهم لا يملكون شيئاً يملأون به قدورهم، فمَن يا ترى سيستدعي الباشا ليلومه؟ ليس كورديسجي، ولا تافجا العجوز، ولا أي قائد آخر، بل أنا وحدي.

ثم دفع أصبعاً من أصابعه في صدره كأنه خنجر.

بدا وجه جلبي الذي كان الانصياع والاهتمام ظاهرين عليه مثل قناع، يشي بأمارات المواساة، وهو ما لم يكن صعباً، إذ كان في الأحوال الاعتيادية كثير التجاعيد والخطوط.

كانت خيمة ضابط الميرة في قلب المعسكر، ولهذا، فعندما اقتربا منها، سارا وسط مجاميع من الجنود، بعضهم كانوا يجلسون خارج الخيام يفرغون أغراضهم، وبعضهم الآخر يلتقطون القمل من دون أن يلوح عليهم أي حرج. تذكر جلبي أنّ ما من موثِّق ذكر إخراج الجنود أغراضهم. أما بخصوص البحث عن القمل، فلم يأتِ أحد على ذكره بكل تأكيد.

سأل محاولاً طرد كل الأفكار التي تستحق التوبيخ من ذهنه:

- ماذا عن المغاوير؟ أَلَن يُسمح لهم بالسلب في ضواحي المدينة؟

ردَّ الضابط:

- بلى، سيسمح لهم. لكنّ الغنيمة التي سيغنمونها لن تكفي عادة إلاّ لأقل من خُمس احتياجات الجنود، وفي المراحل الأولى من الحصار فقط.

عبَّر الموثِّق عن رأيه قائلاً:

- هذا غريب...

- ليس هناك سوى حل واحد: البندقية.

بدا جلبي متفاجئاً:

- لقد اتفق السلطان مع جمهورية البندقية، ويفترض بتجار البندقية أن يجهزونا بالطعام والمواد.

صعق الموثِّق، لكنه أومأ برأسه.

قال ضابط الميرة:

- إنني أفهم سبب دهشتك. لا بد من أنك تجد غرابةً في اتهامنا إسكندر بِك كونه يخوننا لحساب الغربيين في حين أننا نعقد الاتفاقيات مع البندقية من وراء ظهره. لو كنت مكانك لاعترفت بأنني أجد هذا الأمر فظيعاً.

ابتسم ضابط الميرة ابتسامة رسمية، لكنّ عينيه لم تبتسما قط.

- هذا درس في السياسة لك يا مولى.

أحنى الموثِّق رأسه، وكان ذلك أسلوبه الذي يتبعه كي يحمي نفسه كلما توغّل الحديث في مناطق خطرة.

مرَّ صف طويل من المشاة، يحملون نبات السَمّار(*) على ظهورهم. راقبهم ضابط الميرة وهم يمرون بهما.

- أعتقد أن هذا النبات يستعملونه لحياكة حواجز يستعملها الجنود لوقاية أنفسهم من القذائف الحارقة. ألم تشاهد حقاً من قبل أي حصار؟

تورد وجه موثِّق الحملة وقال:

- لم يسعدني الحظ بذلك.

- آه، إنه مشهد رائع.

- يمكنني أن أتخيل ذلك.

قال الضابط على نحو غير رسمي:

(*) السَمّار: جنس نبات عشبي من فصيلة الأَسَلِيَّات، له عادة سيقان طويلة ومنتصبة، ينبت في الغدران والأراضي الرطبة، وتستعمل أوراقه لصنع السلال والحصر والأطباق وغيرها. (المترجم)

- صدقني، لقد اشتركت في عدد كبير من الحصارات، لكن هذا هو المكان (وهنا أشار إلى أسوار القلعة) الذي ستحدث فيه أفظع مذبحة في عصرنا. كما أنك تعلم أيضاً على وجه التأكيد، مثلما أعلم أنا، أن المذابح الكبرى تنتج كتباً عظيمة دائماً.

هنا تنفس تنفساً عميقاً، وأضاف:

- أمامك حقاً فرصة لكتابة سجل مدوٍّ يعبق برائحة القار والدم، وسيكون مختلفاً اختلافاً بيِّناً عن الكتابات الرشيقة التي يؤلفها الوشاة حول مدفأة من دون أن يكونوا قد شهدوا حرباً.

تورَّد وجه جلبي مرة أخرى إذ تذكَّر استهلال كتابه، فقال:

- إذا شئت، فسأقرأ عليك يوماً ما بعض الفقرات مما دونته، وكلِّي أمل ألاَّ تُخيِّب ظنك.

- موافق. أنت تعلم مدى شغفي بالتاريخ.

مرت مجموعة من الانكشارية من أمامهما محدثة جلبةً.

قال ضابط الميرة:

- مزاجهم جيد، فاليوم هو يوم دفع المرتبات.

تذكر جلبي أن يوم دفع المرتبات لم يذكر قط في مثل هذا النمط من الروايات.

كان الجنود ينصبون بعض الخيام البيضاوية، وعلى مسافة غير بعيدة، كان سائقو العربات يفرغون عرباتهم من روافد خشبية ومن نبات السَمَار قرب خندق حُفر حديثاً. بدا المعسكر وكأنه موقع بناء أكثر مما هو معسكر للجيش.

قال ضابط الميرة:

- انظر! هناك عجائز شمطاوات من الرُّومَلِّي(*).

(*) **الرُّومَلِّي**: (بلاد الروم): اسم أطلقه العثمانيون على ولايتي تراقية ومقدونية في البلقان. (المترجم)

التفت موثِّق الحملة إلى جهة الشمال حيث تمكن من مشاهدة مجموعة من العجائز داخل فناء مُسَيَّج، وكن يشغلن أنفسهن بقدور متدلية فوق نار المعسكر.

سأل جلبي:

- ماذا يطبخن؟

- بلاسم للجروح، خاصة للحروق.

نظر موثِّق الحملة إلى وجوه النساء، الوجوه الطاعنة في السن، ميتة الإحساس، التي أكسبتها الشمس سمرة.

قال ضابط الميرة مُغتماً:

- سيعاني محاربونا جروحاً بليغة، لكنهم لا يعرفون حتى الآن مهمة نساء الرُّومَلِّي الحقيقية. يقال إنهن مشعوذات.

نظر جلبي نظرة بعيدة كي لا يشاهد الجنود وهم يلتقطون قملهم. في الحقيقة، عدد كبير منهم جلسوا والساق على الساق يتفحصون مسامير أقدامهم.

قال ضابط الميرة بعين العطف:

- أقدامهم متقرحة من طول المشي. لم أقرأ حتى يومنا هذا أي كتاب تاريخي يأتي على ذكر أقدام الجنود.

شعر موثِّق الحملة بالندم لأنه أظهر امتعاضه، ولكن سبق السيف العذل.

قال ضابط الميرة متحذلقاً:

- في الحقيقة، إن السلطنة مترامية الأطراف التي نفخر كلنا بها لم تتوسع إلاَّ بهذه الأقدام المتقرحة والممزقة. كان أحد الأصدقاء يقول لي في أغلب الأحيان: إنني أرغب في أن أنحني وأُقبِّل هذه الأقدام النتنة.

لم يعرف موثِّق الحملة ماذا يفعل. لكن لحسن حظه، كانا **قد وصلا** إلى خيمة ضابط الميرة.

قال الضابط بنبرة مختلفة:

– هـا هـو عرينـي. تفضـل بالدخـول يا مولـى جلبي. أتحب عصير الرمـان؟ لا يوجـد فـي مثـل هـذا الجـو الحارق ما هـو أفضل من عصير الرمان لتهدئتك. ثم لتتبعه بحديث مع صديق في قضايا ذات أهمية بالغة يشبه تفتح زهر البنفسج وسط الأشواك. أليس كذلك يا جلبي؟

عـادت ذاكـرة موثّـق الحملـة إلى أقدام الجنـود المتقرحة والقذرة، ولكنـه سـرعان مـا وجـد العـزاء فـي فكرة أنَّ الإنسـان عظيـم، لذا، فكل شيء يمكن أن يُسَوَّغ له.

– لقـد غمرتنـي الصداقـة التـي أنعمـت بهـا علـيَّ، أنـا مجرد موثِّق للحملة.

قاطعه ضابط الميرة:

– لا، أبـداً. وظيفتـك هـي أشـرف وظيفـة: أنت مـؤرخ. الجاهلون وحدهم هم الذين يخفقون في إضفاء احترامهم عليك. والآن يا صديقي العزيز، هل تقرأ لي بعض الفقرات من كتابك كما وعدتني؟

كان من شأن جلبي أن يتورد خداه سروراً لو لم يكن خائفاً. فبعد تبادل كلمات كل تلك المجاملات، بدأ موثّق الحملة، الذي كان يحفظ ما كتبه عن ظهر قلب، يتلو ببطء ما يلي:

«تلبية لأمر ملك الملوك الذي يدين له الإنس والجن بكل الطاعة، هُجرت النساء، وانطلقت الأسود صوب بلاد الأرناؤوط...».

أوضـح ضابـط الميـرة أنَّ هـذا الاسـتهلال لم تكن تنقصه المسـحة الشعرية، إلاَّ أنه كان يفضل أن تقترن فكرة هجر الحريم بعنصر أساسي أكثر أهمية من عناصر الحياة البشرية، بشيء أكثر حيوية للاقتصاد، مثل، الحراثة أو الكروم. ثم أضاف أنَّ بعض الأشكال ستمنح محتوىً أكبر.

في تلك اللحظة برز أمام باب الخيمة حاجب الضابط. فأشار إليه سـيده أن يتقدم، فما كان من الحاجب إلاَّ أن همس بشـيء ما في أذن

الضابط الذي ردد أكثر من مرة كلمة نعم وكلمة لا على نحوٍ متساوٍ.

ما إن انصرف الحاجب حتى سأل الضابط موثِّق الحملة:

- ماذا كنا نقول؟ آه، نعم. الأشكال. لكن ينبغي لك ألاّ تهتم كثيراً بما قلت في هذا الموضوع لأنني مهووس بالأرقام. فأنا لا أفعل شيئاً طوال النهار سوى العد والحساب!

عاد الحاجب من جديد.

عندما شاهد سيده متجهم الوجه صاح:

- مبعوث من الباشا.

تقدم رجل الحاشية من الضابط، وانحنى ليهمس في أُذنه، وظل على تلك الحال مدة طويلة من الزمن، ثم قرَّب أُذنه من فم ضابط الميرة كي يسمع الجواب.

قال ضابط الميرة بعد أن انصرف الرجل:

- لنخرج. ستكون فرصتنا أفضل في الحديث خارجاً، وإلاَّ انغرست أشواك الأمور اليومية في بنفسج حديثنا!

هبط الظلام، وكان المعسكر في حال مفعمة بالحيوية والنشاط. كان أفراد المغاوير يأتون من كل حدب وصوب، يقودون جيادهم نحو الماء، وخفقت البيارق في الريح وهي فوق قمة أوتاد الخيمة، ولو أضيفت مجموعة من الأزهار إلى الروائح، فإن من شأن المعسكر متعدد الألوان أن يبدو أشبه بحديقة يانعة أكثر مما هو منشأة عسكرية. تذكر موثِّق الحملة أنَّ أحداً من زملائه لم يصف من قبل جيشاً بأنه بستان من الزهور. لكنّ هذا ما سيفعله. سيُشَبِّهُهُ بمرج من المروج أو بسجادة مزركشة بألوان متعددة، لكن ستظهر من بينها حوافّ الموت السوداء وسرعان ما تصدر الأوامر بالتحرك إلى الأمام.

وصلا مركز المعسكر تقريباً، وهناك التقيا المهندس ساروجا الذي كان يتجول في أرجاء المعسكر، وقد بدا شارد الذهن.

سأل ضابط الميرة:

- هل انتهى الاجتماع؟

ردَّ ساروجا وهو يفرك عينيه المحاطتين بدائرتين حمراوين:

- نعم، انتهى قبل قليل. إنني منهك القوى إذ لم يُغمض لنا جفنٌ على مدى ثلاث ليالٍ على التوالي. وقد أصدر لنا الباشا في هذا اليوم أوامره النهائية بأن نُعدَّ المدفع للأسبوع المقبل...

وقال إنه يريد أن يسمع الانفجار بعد ثمانية أيام.

- وهل يمكنك تدبير ذلك؟

- لا أدري. ربما. لكن لا يمكنك أن تتخيل كم سيكون العمل صعباً، وخاصة أننا نستخدم نوعاً جديداً من السلاح، هو سلاح لم يُصنع من قبل، لهذا يجب أن أشرف على كل تفاصيل عملية التصنيع.

قال ضابط الميرة:

- أفهم.

سأل ساروجا:

- أتريدان إلقاء نظرة على مصنع سَبك المعادن؟

قبل أن يسمع إجابتهما قادهما إلى ما وراء الخَرِبة.

فرح موثِّق الحملة للثقة الكبيرة التي حظي بها. فقبل مغادرته العاصمة، كان قد سمع كل أنواع الشائعات عن السلاح الجديد. كان الناس يتحدثون عنه بإعجاب تارةً وهلع تارةً أخرى، كما هو الأمر مع أي سلاح سري. وقالوا إن هديره يصيبك بالصمم لما تبقى من حياتك، وإن الانفجار الذي يسببه من شأنه أن يقلب كل شيء حوله ضمن قطر من عدة فراسخ.

في أثناء التقدم الطويل، لاحظ الجمال التي قيل إنها كانت تحمل أجزاء الماسورة التي ستستخدم في المدفع العملاق. ولم يرفع الجنود

الذيـن سـاروا صامتيـن علـى كلا الجانبيـن أعينهم عن القماش المشـمّع المبلل بالمطر والذي كان يخفي تحته السرّ القاتل.

تحرَّق جلبي شوقاً لمعرفة المزيد عن حمولة الجمال، لكنه خاف أن يثير الشكوك. عندما أفلح أخيراً في التغلب على خجله، وسأل ضابط الميرة الذي عرفه قبل قليل، انفجر الأخير بضحكة مدوية واضعاً كلتا يديه على وركيه. وقال إن هذه الحمولة الثقيلة لا تحتوي على أي أنابيب، وإن كل ما هناك هو قضبان من الحديد والبرونز ونوع محدد من الفحم:

- إذاً، أتريد أن تسألني أين هو السلاح السري؟ سأخبرك يا مولى جلبـي. إن المدافـع العملاقـة المثيـرة للهلع موجودة داخل حقيبة جلدية صغيـرة جـداً... صغيـرة مثـل تلـك التي تتدلّى مـن كتفي، هنا... لا تنظر إليَّ هكذا، فأنا لا أمزح معك!

هنا همس في أُذن مولى، وأومأ باتجاه رجل شاحب الوجه يلتف بعباءة سوداء، وأضاف:

- المدفع السري موجود حقاً في حقيبته.

اسـتغرق موثِّق الحملة وقتاً قصيراً كي يدرك أنَّ حقيبة كتف ذلك الرجل ممتقع الوجه تحتوي على تصاميم وخطط ستسـتخدم في سـبك المدفع العملاق.

شُـيِّد مصنع سـبك المعادن بعيداً عن المعسـكر في منطقة مسـوَّرة بأكملها وخاضعة لحراسة مشددة، تفصلها عن جدول الماء هضبة صغيرة، وعلى مسافة تبعد عشرين خطوة عن البوابة ثمة يافطة كتب عليها: منطقة محظورة.

قال المهندس:

- المنطقـة تحـت حراسـة مشـددة ليـلاً ونهـاراً، إذ قـد يحـاول الجواسيس سرقة سِرِّنا.

تصرف المهندس وكأنه مرشد جولتهما وسط منطقة العمل **الفسيحة**

التي بنيت بعجالة، وأوضح لهما مفصّلاً ما يمكن مشاهدته. كان الكير والأفران قد أُضرمت فيها النيران قبل قليل، فانبعثت من اللهب حرارة خانقة. كان هناك رجال منهمكون في العمل، بلا قمصان، سودٌ كالسخام ويتفصدون عرقاً.

كانت الأرض كلها تقريباً مغطاة بسبائك معدنية وبرونزية وقوالب ضخمة من الطين.

ثم أطلعهما المهندس على تصاميم المدفع العملاق.

نظر الزائران نظرة ملؤها الدهشة إلى حجم الخطوط المستقيمة والأقواس والدوائر التي استخرجت بعناية فائقة عن نسخ طبق الأصل.

قال ساروجا وهو يريهما إحدى رسوماته:

– هذا هو الأكبر. وقد أسماه الصُّنَّاع عندي باسم المدفع الذي لا يأكل العسل.

سأل ضابط الميرة:

– المدفع الذي لا يأكل العسل؟ لماذا تسميه بهذا الاسم الغريب؟

ردَّ ساروجا:

– لأنه يفضل أن يلتهم الرجال. إنه مدفع له نزواته، إن جاز التعبير، وهو يشبه إلى حدٍّ ما طفلاً مدللاً يقول لأمه صباح يوم مشرق: لقد سئمت العسل! والآن هيا لنشاهد المكان الذي سيتم فيه السبك.

هنا سار في اتجاه آخر وأضاف:

– هذه هي الحفرة العظيمة التي ستوضع فيها القوالب الطينية. وهناك ستة أفران لإذابة المعادن. إنَّ المدفع الاعتيادي تتطلب صناعته فرناً واحداً، أما هذا المدفع، فتكاد لا تكفيه ستة أفران. هذا هو أحد الأسرار المهمة عن عملية السبك. ولا بد للأفران الستة من أن تنتج

معدناً مُنصهراً بدرجة الانصهار نفسها تماماً وفي الوقت نفسه أيضاً. إذا ما حصل هناك أدنى صدع، أو أصغر فقاعة، إذا جاز التعبير، فإن المدفع سينفجر عندما يطلق القذيفة.

أطلق ضابط الميرة صفيراً للتعبير عن دهشته.

بالرغم من أن مولى جلبي كان مندهشاً بدوره لما كان يسمعه، فإنه كان حريصاً على ألاَّ يُدير رأسه صوب الضابط خشية أن يشعر الأخير، إذا ما استعاد ثقته بنفسه، بالقلق عندما يضبطه في لحظة ضعف موثِّق حملة لا أكثر، أو بكلمات أدق، عندما يسمح بالكشف عن دهشته في حين ينبغي له أن يكون متسامياً على مثل هذه المشاعر.

غير أنَّ ضابط الميرة لم يكن يحاول إخفاء حيرته. أما موثِّق الحملة فقد ارتعدت فرائصه عند التفكير في أن المهندس ساروجا كان منهمكاً في عمل يجعل أفرانه تنتج حمماً سائلة...

فيما استمر المهندس في شرح عملية السبك، انقلب في أعينهما إلى مشعوذ وهو ملتف بعباءته السوداء ويوشك أن يؤدي طقساً قديماً غامضاً.

أخيراً صرَّح ساروجا بافتخار:

- هذه هي المرة الأولى التي يستخدم فيها مثل هذا المدفع على امتداد تاريخ البشرية العسكري. إنَّ صوت الزلزال سيكون أشبه بأغنية لهدهدة طفل مقارنة بهديره الرهيب.

نظر إليه نظرة إعجاب.

اختتم كلامه وهو يحدق إلى موثِّق الحملة:

- هنا سيشهد العالم أحدث الحروب التي ستندلع.

انتاب القلق جلبي.

لاحظ ضابط الميرة ذلك.

- إن أولويات ملك الملوك هي إجبار البلقان على الاستسلام.

من الواضح أنه لن يدخر وسعاً في تحقيق هدفه.

قال ساروجا وهو يلتفت صوب شاب طويل القامة، منهك القوى يتقدم نحوهم:

- هذا هو ساعدي الأيمن.

نظر الشاب نظرة خاطفة حزينة إلى الزائرين، وأبدى إشارة قلما تُفهم على أنها تحية، ثم همس ببضع كلمات في أُذن المهندس.

سأل ساروجا بعد أن انصرف الشاب:

- أنتما مندهشان لأنني اخترت ذلك الفتى مساعداً أولاً لي، أليس كذلك؟ إن معظم الناس يشاطرونكما الرأي، وهو وإن كان لا يبدو عليه أنه صاحب دور، لكنه شخص مقتدر تماماً.

لم ينبسا بكلمة.

فاسترسل المهندس:

- سنصنع في هذا المكان أربعة مدافع أخرى أصغر حجماً، إلاَّ أنها لن تكون أقل إثارة للرعب من المدفع العملاق. وتُسمى هذه المدافع مدافع الهاون، وهي تقذف كرات ذات مسار مقوس. بخلاف المدفع الذي يسدد مباشرة صوب الأسوار، فإن مدافع الهاون يمكنها أن تُمطر الأجزاء الداخلية من القلعة من الأعلى، وكأنها مصيبة تحل من السماء.

هنا التقط قطعة من الفحم ولوحاً عن الأرض، وأضاف قائلاً:

- لنفترض أنَّ هذا هو سور القلعة، فنضع المدفع هنا، فتنطلق قذيفته باتجاه مستقيم نسبياً.

رسم خطاً، وأردف:

- لتصيب الجدار في هذه النقطة. لكن قذيفة مدفع الهاون أو القنبلة فإنها ترتفع عالياً في السماء، على نحو عشوائي تقريباً، إن جاز التعبير، وكأنها لا تهدف إلى إصابة السور؛ ثم تسقط عمودياً وراءه.

رسم بيده، التي رأى موثِّق الحملة أنها ترتعش قليلاً، شكل قوسين في الهواء، وأضاف:

- إن القنابل تحدث ضوضاء تشبه هدير بحر هائج.

صاح موثِّق الحملة:

- يا الله!

سأل ضابط الميرة:

- من أين تعلمت صنع هذا كله؟

نظر المهندس إليه نظرة تنم عن مراوغة وقال:

- من معلمي ساروهانلي الذي كنت مساعده الأول.

- وهو في السجن الآن، أليس كذلك؟

أجاب ساروجا:

- نعم. أمر السلطان بحبسه في قلعة بوغازكيزن.

فسأل موثِّق الحملة على استحياء:

- ولا يعرف أحدٌ سبب ذلك؟

فأجاب المهندس:

- أنا أعرف السبب.

رفع ضابط الميرة عينيه، ونظر إلى ساروجا نظرة خاطفة ملؤها الدهشة.

- لقد بدأ الرجل يهذي مؤخراً، ورفض أن يصنع مدفعاً أكبر حجماً، وزعم أن ذلك ضربٌ من المحال، لكن الحقيقة، كما أخبرني هو نفسه بها، هي أنه لم يرغب في صنعه، وكان يردّد قائلاً إننا لو صنعنا مدفعاً أكبر حجماً، عندئذٍ سيصبح من عاديات الدهر، ويُهلك الجنس البشري. وقال موضحاً إن المسخ قد ولد في هذا العالم ولا يمكننا إعادته إلى المكان الذي أتى منه، وإنَّ أفضل شيء نستطيع عمله هو ألاّ نجعل

ماسورته أكبر حجماً مما هي عليه الآن. ولو جعلناها أكبر، فإن المدفع سيلتهم العالم، وهكذا توقف الرجل العجوز عن تجاربه، وهذا هو سبب اعتقال السلطان له.

التقط المهندس قطعة من الطين، وفركها إلى أن تحولت إلى تراب وقال:

- هذا ما حدث له.

أومأ الرجلان الآخران برأسيهما.

واصل المهندس شرحه:

- لكنّ لديّ رأياً مغايراً بخصوص القضية. أظن لو أننا استسلمنا لمثل هذه الوسوسات، فسيتوقف التقدم العلمي. لا بد للعلم من أن يتقدم سواء أكانت هناك حرب أم لم تكن. أنا لا أعترض على مَن يستخدم السلاح حقاً ولا على مَن يُضرب به. الشيء المهم عندي هو أنه يجب أن تُقذف كرة المدفع على امتداد خط يتطابق مع حساباتي لمساره. أما البقية فهي من شأنكم.

بهذه الملاحظة المباغتة توقف عن الكلام.

قال ضابط الميرة، وقد عزم على ما يبدو على تغيير دفة الحديث:

- لقد أُفهِمتُ أن المال اللازم لصنع هذا السلاح قد تبرعت به إحدى زوجات السلطان من أجل خلاص روحها.

تساءل جلبي معتقداً أنَّ التفاصيل تستحق التسجيل في سجله:

- من أجل خلاص روحها؟

ثم أضاف بعد وقفة قصيرة وقد هالته جسارته:

- وهل هي باهظة الثمن؟

قال المهندس مشيراً إلى ضابط الميرة:

– هو الذي يعرف. أما أنا، فكل ما أستطيع أن أقوله هو مدى المدفع وقوته النارية.

ابتسم موثِّق الحملة.

قال ضابط الميرة:

– آه، نعم. إن المدفع العملاق يكلف مبالغ طائلة. مبالغ كبيرة جداً، لا سيما أننا نخوض الآن حرباً، وأن سعر البرونز ارتفع ارتفاعاً مذهلاً.

ثم قطّب حاجبيه، وأجرى عملية حسابية سريعة، وصاح:

– مليونا جديد(*) فضي.

امتلأ موثِّق الحملة رعباً، لكنّ الرقم لم يُحدث أي تغيير على السبّاك المعلِّم.

قال ضابط الميرة:

– إنَّ دفع ذلك المبلغ الهائل من أجل إنقاذ روح المرء قد يبدو فادحاً جداً. لكن لو فتحت كرات المدفع هذه الاستحكامات في غضون بضعة أيام، فستساوي وزنها ذهباً.

ثم لاحت على محياه ابتسامة ساخرة.

واستأنف حديثه بالقول:

– في أثناء حصار طرابزون(**)، عندما أطلق المدفع الأول، قذيفته الأولى، وكان مدفعاً أصغر بكثير من هذا المدفع، ظن الكثيرون ممّن

(*) **جديد**: عملة تركية قديمة تساوي 1/120 من القرش. (المترجم)

(**) **طرابزون**: مدينة تركية في أرمينيا على البحر الأسود، أسسها اليونانيون في القرن الثامن ق. م. نقل إليها إلكسيس الأول عاصمة الدولة البيزنطية بعد تأسيس الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية 1204–1461. قضى عليها العثمانيون. وكانت مركزاً مهماً للآداب والفنون، فيها دور عبادة نصرانية وإسلامية أثرية، واشتهرت بصناعة الحرير والسجاد، وبأسواق الصوف والتبغ. (المترجم)

كانـوا حاضريـن أن الماسـورة صاحـت: يـا اللـه! لكننـي فكّرت في أنني ربمـا سـمعت فـي أثنـاء ذلـك الدوي كلمة ضريبة لأننـي كنت أفكّر فيها طوال الوقت.

ذُهِـلَ موثِّـق الحملـة مـرة أخرى فيما بدأ المهندس يضحك ضحكاً مرتفعاً. أما ضابط الميرة فقال:

- أنـت لا تفهـم مغـزى تلـك الكلمـة ولا عـدد الأشـياء، بمـا فيها حصار هذه القلعة، التي تعتمد عليها.

أجاب المهندس:

- حسـناً. عندما يطلق المدفع قذيفته، فإنني لا أسـمعه يقول كلمة اللـه أو كلمـة ضريبـة أبـداً، بـل إنَّ كل مـا أفكّـر فيه هـو أنَّ قوة الانفجار ودويَّه هما نتاج كمية البارود الموجود خلف قذيفة المدفع بالتوازي مع قطر الماسورة وطولها.

ابتسـم ضابط الميرة فيما اسـتغرق جلبي في التفكير في أنه أصبح صديقاً لأُناس متعلمين وأصحاب سلطة، كما فكّر في المدة التي يستطيع فيها أن يُبقي مثل هذا الحديث متواصلاً بعد أن وصل مراحل لم يسبق له أن وصل إليها من قبل.

اقترح ضابط الميرة قائلاً:

- لنخرج من أجل نسمة هواء.

سار معهما ساروجا حتى الباب.

قال موثِّق الحملة:

- يقول الأهالي إن هذه الأسلحة الجديدة ستغير من طبيعة الحرب، وإنها ستجعل الحصون بلا فائدة.

هزَّ ساروجا رأسه مرتاباً وقال:

- ربما. لكنّ الأهالي يقولون أيضاً إنهم سيجعلون أسلحة أخرى أسلحة منقرضة.

تدخل ضابط الميرة:

- من هم الأهالي الذين يتفوهون بمثل هذا الكلام؟ ألا تعتقد أنَّ هذه المدافع يمكنها أن تقهر القلعة وحدها؟

أجاب ساروجا:

- ليتها تستطيع ذلك، لأنها أصلاً من صنعي. لكن على كل حال، لي وجهة نظر أخرى. أعتقد أن الشيء المهم هو جنود سلطاننا العظيم بالرغم من أنَّ المدافع ستؤدي دوراً في تحقيق النصر.

قال ضابط الميرة:

- تماماً.

أضاف ساروجا:

- سيكون للمدفع أثر آخر في الأقل، وهو أن هديره سينشر الهلع وسط المحاصرين ويَفتُّ في عَضُدِهم، وفي ذلك فائدة كبيرة، أليس كذلك؟

وافق ضابط الميرة قائلاً:

- هذا مهم جداً، لكنني لا أفكّر في أولئك التعساء وحسب، إذ إن العالم النصراني برمته سترتعد فرائصه عندما يسمع الأنباء عن سلاحنا الجديد. لقد أصبح أسطورة منذ الآن.

قال ساروجا:

- إنني أحب أن أسير معكما لبرهة وجيزة، ولكن لدي في هذا المساء ألف عمل أريد إنجازه، ولا بد للسبك من أن يبدأ منتصف الليل تقريباً.

ردَّ الزائران معاً تقريباً:

- لا تعتذر، وشكراً لك.

في غضون ذلك، هبط الليل، وأُضرمت النيران هنا وهناك حول

المعسكر. وفي مكان ما في الظلمة، سمعا شخصاً ما يغني لحناً هادئاً حزيناً. على مسافة بعيدة، كان هناك اثنان من الدراويش من ذوي الأسمال البالية يتمتمان بالأدعية.

واصلا سيرهما بصمت. وفكّر موثّق الحملة في مدى غرابة أن يقوم كل هؤلاء الناس على اختلاف مشاربهم بخدمة السلطان، بعد أن جيء بهم إلى هذه البقعة المنسية في أقصى أقاصي العالم.

كان لا يزال في وسعهما سماع صوت الإنشاد من بعيد، لكنهما لم يستطيعا أن يتبينا سوى اللازمة: «آه أيها القدر، آه أيها القدر...».

* * *

سُكــونٌ مُطبِــق. لكــن السكون ثقيل الوطــأة علينا، كما هي الحــال دوماً في الأوقات الحُبلى بالمجهول. في بعض الأحيان يبدو لنا أنَّ الجيش المخيم من حولنا لا شأن له بنا. إذ يسهل أن تتخيل أنَّ قلعتنا والمعسكر العثماني قد وجدا نفسيهما وجهاً لوجه في وسط السَّهب وأنهما سرعان ما سيتوقفان عن استفزاز أحدهما الآخر. لكننا نعلم أن الأوان قد فات، إذ سيُصار إلى إبادة واحد منهما: القلعة أو الجيش.

هم مستعدون للهجوم. ففي وسعنا أن نراهم من مواضعنا وهم يُعِدّون السلالم والحبال والكلاليب والمدكّات والرماح. باختصار، كل آلات الحرب، من أقدم آلة إلى تلك التي أُخترعت في السنوات الثلاث أو الأربع المنصرمة.

الدخان ينبعث ليلاً ونهاراً من معملهم الخاص بسبك المعادن، حيث يسبكون السلاح الجديد الذي يبدو أنه سيُجرَّب ضدنا للمرة الأولى. أخبرنا رجالنا أن السلاح الجديــد ليســ رهيباً بقدر ما هو مخيف، لكــن الواضح أنهم مزعزعون. في الليل، كان أنصارنــا يرسلــون إلينــا رسائل تشجيع باللجوء إلى إشعــال نار فوق الجبال. لكننــا لا نشاهــد الجبال ولا النيران عندما يكون الطقس سيئاً، فنشعر وكأننا معلّقون فوق هاوية مظلمة.

فــي بعض الأحيان، عندما يصيبنــا التعب من كثرة التجسس على المعسكر، نُبقــي أعيننــا مثبّتَــة على السماء ساعات متواصلة. يبدو أن هــذا التركيز المطول قد جعل البعض منا تراودهم رؤىً قلما يمكن تصديقها. فهم يصرون على أنهم شاهدوا جنية أليانيا الطيبة ترفرف وسط السحاب ومعها جنيات أخريات مسلّحات بالرماح والمــذاري أو يحملــن القــدر بأيديهــن. وزعم آخــرون أنهم شاهدوا أيضــاً الجنية الشريرة.

* * *



الفصل الثالث

اجتمع المجلس بعد ظهر يوم الأحد. وعندما حضر الباشا ودخل الفسطاط، كان الموظفون حاضرين، وقد جلسوا جلسة شبه دائرية على الوسائد المفروشة على جوانب الخيمة. تقدم الباشا صوب مجلسه، مكفهر الوجه، لا ينظر إلى أحد.

غمس الكاتب ريشة الكتابة في المحبرة، ورفعها إلى الأعلى فوق صحائف من ورق مفروشة أمامه. تحرك قليلاً ليكون مرتاحاً أكثر في جلسته، لكنه إذ تحرك، خبط مرفقه، وسقطت قطرة من حبر أسود على الصحيفة، فأسرع يمسحها بردنه كي لا يلاحظه أحد، لأن القطرة السوداء يمكن أن تفسر على أنها نذير شؤم وضعها القدر عمداً على الصحيفة.

- أريد آراءكم النهائية بشأن اللحظة الميمونة لشنِّ الهجوم. لكن قبل أن نتخذ أي قرار بخصوص هذه القضية، أود أن أُخبركم بأنني تأثرت لقلقكم الذي تشتركون به بشأن سلامتي الشخصية.

هنا أشار إلى أَصلان خان بِك بيه ومفتي الجيش وأضاف:

- إلاَّ أنني أرفض رفضاً باتاً اقتراحكما بتزويدي ببديل كما يسمونه في هذه الأيام.

نظر نظرة مباشرة إلى وجهي الرجلين اللذين أسماهما، باحثاً عن أدنى إشارة تدل على خبث، إلاَّ أنه سرعان ما اقتنع بأنهما لا يملكان أي دافع آخر، وأنهما لم يقترحا فكرة البديل إلاَّ لأَنها سمة تلك الأيام.

ظن الباشا أن الجنديين بدا عليهما شيء من الانزعاج وفكّر: أنا لا أعتقد أنهما قلقان حقاً بشأن بقائي حياً. لكن بالرغم من ذلك، لم يكن لديه سبب يدفعه للاستياء. لقد كان هو نفسه ضابطاً، وكان يعلم

أن الجنود يشعرون بسعادة كاملة عندما يكون لقائدهم بديل يستطيعون السماح لأنفسهم باحتقاره، بل حتى شتمه بصوت خفيض من دون مجازفة كبيرة. إلاَّ أنَّ الشيء الذي لم يرغبوا في التفكير فيه هو أنهم بسخريتهم من بديل القائد العام سيكتسبون عادة قلة الأدب والحياء. فكّر أيضاً في أن القائد العام بظهوره أمامهم في يوم ما قد تصادفه ردود فعل غير متوقعة... إن لم يحدث ما هو أسوأ من ذلك. في وسعهم أن يزعموا في أي وقت أنَّ طُرسُن باشا هو البديل... أي أنه ظلٌّ لا أكثر... في حين أن جثته مدفونة على عمق ياردتين تحت الأرض...

مسَّد القائد العام جبهته براحة كفه. لم يكن قد نام نوماً هنيئاً، وظل يتقلب طوال الليل، فداهمته الشقيقة الآن.

قال بحدة:

- لنعد إلى الهجوم. تكلموا!

لم يكن يحب الاجتماعات الطويلة، وعبَّر عن استيائه تعبيراً واضحاً. عقد ذراعيه فوق صدره وانتظر. كان الصمت مطبقاً، حتى يمكنك أن تسمع خريشة ريشة الكاتب وهو يدون كلمات الباشا.

كان ساروجا أول المتكلمين. وبلا أي مقدمات مجاملة مألوفة - إذ كان أعضاء المجلس لا يألفون أسلوبه الخالي من الرسميات - قال:

- يمكن أن يكون مدفعي جاهزاً في الغد، أما مدافع الهاون، فلن تكون جاهزة قبل يوم الثلاثاء. وفي ذلك اليوم سأتمكن من إطلاق القذائف باستمرار. إنني بحاجة إلى يوم بأكمله كي أُدمر تلك الأسوار.

- التالي!

جاء دور المفتي. وكان قد استمع إلى مشورة بشأن موقع الأجرام السماوية.

قال وهو يحني رأسه على نحو متذلّل:

- حضرة غازي طُرسُن باشا. بعد أن استمعتُ إلى مفسِّر الأحلام...

هنا أشار إلى الأخير الذي كان يجلس القرفصاء في ركن الخيمة وقد بدا عليه الخوف، وأردف:

- أعتقد أن الهجوم ينبغي أن يبدأ يوم غد.

غمغم المهندس:

- يا لك من أحمق!

استرسل المفتي في كلامه:

- في الغد، سيكون موقع النجوم بالنسبة إلى القمر مؤاتياً. أما الثلاثاء، فلن يكون هكذا. علاوة على ذلك، لقد حلمت الليلة الماضية أنني شاهدت تحت ضوء القمر تمساحاً يهاجم ثوراً أسود اللون ويأكل قلبه. لا بد من أن الثور الأسود هو القلعة. وكما تعلمون، فإن القمر سيكون بدراً في الغد.

غمغم ساروجا مرة أخرى:

- أبله!

أما ضابط الميرة، فاضطر إلى أن يجذب ردنه.

قال الباشا:

- التالي!

تدخل المهندس قائلاً:

- إنني لا أفهم. ماذا يعتقد المفتي؟ هل نقصف القلعة قبل الهجوم أم بعده؟

هنا كاد ضابط الميرة أن يمزق ردن المهندس.

لم يزعج المفتي نفسه حتى بالإجابة، وتبادل وساروجا نظرات عدائية صريحة. أما نظرة الباشا المكفهرة، فقلما أثرت فيهما قبل أن

تحل على علي بيه، إذ أراد أن يستمع إلى رأيه أيضاً. لم يكن علي بيه يشارك في التصويت في مجلس الحرب، وكانت وظيفته الرسمية هي وظيفة مساعد لعدد كبير من الأعضاء الرسميين للمجلس، لكنه كان مبعوث السلطان الخاص، ولهذا السبب كان الجميع يهابونه. خمَّن أنَّ الباشا يريد إخماد النزاع فقدم إسهاماً في الجدال:

- أما بخصوص القصف، فإنني أعتقد أنه يجب أن يكون في مدة أقل مما يقترح ساروجا. فإذا لم تخترق قوتنا النارية الأسوار في منتصفها بحلول منتصف النهار، فإنها لن تخترقها بعد الظهر. ولو بدأ القصف المدفعي المتواصل مع الضياء الأول، فإنني أعتقد أنه يجب علينا أن نخترق القلعة بعد مرور بضع ساعات على ذلك، حالما تتوقف المدافع عن القصف كي لا تمنح العدو فرصة يتعافى فيها من أثر الهول الذي سيوقعه سلاحنا الجديد في قلبه.

تجنب علي بيه الموضوع الشائك ولم يلزم نفسه بأي موقف من المواقف التي طُرحت. فكّر طُرسُن باشا في أنه تكلم كلاماً معقولاً، لكن ما كان يريده في تلك اللحظة وقبل كل شيء هو تحديد وقت الهجوم.

قال:

- التالي!

أعلن تافجا العجوز قائلاً:

- إنَّ قواتي الانكشارية أصابها الإرهاق من كثرة الانتظار. لا بد لنا من الهجوم يوم غد.

صاح كورديسجي بصوت عالٍ:

- غداً!

أظهر الدم المندفع إلى وجنتيه تململه أكثر مما أظهره صوته. لم يكن سعيداً لأن طُرسُن باشا يسمح حتى الآن لقوات المغاوير المتواجدة

خارج المعسكر بسلب الريف المحيط به. لكن الباشا كان يعرف من تجربته أنه إذا سمح لهم بالسلب والنهب قبل يوم من الهجوم، فإن الغنائم التي سيغنمونها ستقوي عندهم غريزة حب التملك، وبالتالي تقلل من تعطشهم إلى خوض المعركة. فهو لا يريد أن تكون القلعة مجرد وحش ينبغي تدميره وحسب، بل أن تكون جائزة يسعى الكل إليها.

طلب ضابط الميرة الإذن بالكلام.

انحنى، وبدأ يختار كلماته بعناية، وأطرى أولئك الذين سبقوه في الكلام، ثم فنَّد بذكاء كل حججهم باستثناء حجة المهندس. وعبَّر عن أسفه لأن الرجال لم يتصرفوا طبقاً للإرشادات التي أرسلها الله إليهم. وهم لا يفعلون هذا عن معرفة، بل لأن الرسائل السماوية غالباً ما تكون خارج قدرة أذهاننا الكليلة ولا تتمكن من دخول أعيننا العمياء ولا آذاننا الصمَّاء!

لاحظ الباشا ومضات الحقد تندفع من عيني المفتي إلى المتحدث. حدَّق كورديسجي وتافجا بأعين واسعة وهما يركزان في محاولة للعثور على أي خطأ خياني قد يكون مستتراً وراء مثل هذه الكلمات الرنانة.

أدرك الباشا أنَّ مجموعتين متناقضتين تشكلتا الآن في مجلسه. بدأت كل مجموعة تعبّر عن حقدها واحتقارها وسخريتها نحو الفريق الآخر تعبيراً صريحاً بأسلوب شبه صريح. فكّر في أنَّ المهندس وضابط الميرة كانا يفكران تفكيراً سليماً، لكن بصرف النظر عن كل ثقته بذكائهما، فإنه لم يكن واثقاً من قلبيهما. أما بخصوص القادة، فالأمر بخلاف ذلك، إذ كان يثق بشجاعتهم أكثر من ثقته بحكمتهم. لكن لا فائدة من الاقتناع بأن الخبيرين كانا على حق عندما لم يتمكن بسهولة من الانضمام إلى معسكرهما ضد رأي المفتي وقائديه القويين. إنه الآن ينتظر القائد العسكري الثالث قره مقبل والمعماري جاور لإيضاح موقفيهما. لم يكن صعباً تخمين الجانب الذي سيلتزمان به. فالجندي يقف إلى جانب رفاقه والمعماري سينضم إلى الخبيرين. ولن يتغير الموقف، وعليه

أن يتخذ القرار بنفسه لأنه لن يهتم بعد الآن بموقف أمراء الألوية أو موقف قائد الخيالة تاهانكا الأصم الذي بدا دائماً رجلاً عنيفاً وكأنه يوشك على شنّ هجوم حتى إن كان ذلك الهجوم سيؤدي إلى هزيمة. وبما أن علي بيه تحرر من أي لوم أو التزام، فقد أدرك الباشا أن عليه أن يحسم الأمر بنفسه.

طلب قائد المشاة الإذن بالكلام. ولدهشة الباشا، أعلن قرة مقبل دعمه للمهندس. لم يقل كلاماً كثيراً، بل فكّر في أن القلعة لا ينبغي اختراقها قبل أن تصاب إصابة بليغة من كل مدفع من المدافع المتوفرة. وبهذا فإن الكثيرين سينجون بحياتهم. في الختام، أوصى بألاّ يبدأ الهجوم قبل أن تفتح ثغرات عديدة ويقطر مناسب في الأسوار. وكانت آخر كلماته هي:

- كلما كانت الإصابات بليغة في السور، كلما انخفضت جروح مقاتلينا.

صاح تافجا العجوز بصوت خشن:

- الخزي والعار لك يا قره مقبل على ما تفوهت به.

احتقن وجه قره مقبل بالدم من شدة الغضب. كان أصغر القادة وقد أثّر فيه تقريع تافجا.

فزمجر غاضباً:

- ما سبب العار والخزي؟ أنت تفضل الهجوم لأنك تعرف أن قواتي من المشاة سيكونون في طليعة المهاجمين، وسيقتلون كالذباب، وستمشي قواتك من الانكشارية فوق جثثهم للاستيلاء على القلعة.

لوّح تافجا العجوز بذراعه القصيرة على نحو قلق.

بالرغم من أن قره مقبل لم يكن إنساناً متذمراً، إلاّ أنّ عينيه اتقدتا حنقاً، ولما فهم أنّ طُرسُن باشا لن يتدخل، رفع من لهجة هجومه على تافجا:

– ما كنتَ لتقول ما قلته لو أنَّ نظام المعركة كان معكوساً. لو أن قواتك الانكشارية كانت في مقدمة الصفوف، لفكّرت مثلما فكرتُ أنا، ولما تظاهرتَ بالأشياء.

ردَّ تافجا باقتضاب:

– لقد وضع ملك الملوك الأعظم قوانين الحرب، ولسنا نحن الذين نرتاب منها.

لم يجب قره مقبل بأي جواب.

فكّر الباشا: لو طرح المعماري الآن أي حجة قوية لتأجيل الهجوم، فإنه سيلتزم جانب الخبيرين.

قال:

– لنستمع إلى المعماري.

بدأ جاور الكلام، ولم تتحرك أي عضلة من عضلات وجهه الشبيه بالقناع. وإذا ما سمعه أحد للمرة الأولى، فسيصاب بالحيرة. لم يكن في كلامه أي عيب أو تأتأة، لكن الكلمات التي تفوه بها بصوت يخلو من أي نبرات، خرجت من بين شفتيه وكأنها سلسلة من خرزات باردة لامعة:

– المدفعية تضرب نقطة الارتكاز الرئيسة في البرج الثاني، وكذلك الباب الأوسط الرئيس في السور الأيمن، والبرج الأول في السور الأيسر...

كان يوضح نقاط الضعف في بناء القلعة وهي نقاط لا تراها العين الجاهلة، لكن دراساته علّمته أن يرى من خلال لوح زجاجي. وفيما هو يبتر الكلمات زوائدها الملحقة ببداياتها ونهاياتها، فإن كلامه، ذكَّر الجنود الحاضرين، الذين مروا بتجارب مهلكة عظيمة، ببقايا الجثث مقطعة الأوصال.

وصل المعماري إلى نهاية حديثه على نحو مفاجئ وكأنه **قطعه**

بسكين. كانت خلاصة الخيط الطويل من كلماته التي لا حياة فيها، نقطة واحدة: إنه لا يؤيد وجهه نظر حلفائه الاعتياديين. كان طُرسُن باشا لا يقوى على كبت حسرة، فكل شيء يسير في الاتجاه غير الصحيح في مجلس حربه. فيما يصغي إلى أمراء الألوِيَة الذين التزموا الجانب المتطرف، وهو ما كان متوقعاً، طالما إنهم عرفوا أن تلك هي الوسيلة الوحيدة لحماية أنفسهم من أي خطأ ينجم عن ذلك، شرع بمراقبة وجه علي بيه من زاوية عينيه. يبدو واضحاً، بعد ظهور وجهة نظر مغايرة، أنَّ علي بيه لا نيَّة لديه لتحويل النقاش إلى جهة أو أخرى. كانت الفكرة المتمثلة بأنَّ هذا الاتجاه ربما طرح عليه بناءً على أوامر سرية من جهات عليا قد أوقفت نبض قلب طُرسُن باشا. نعم، لا بد من أنهم اقترحوا الموقف الذي ينبغي تبنيه، حتى لو لم يكن بكلمات كثيرة: إذا حدث خصام، فلا تَنحَز إلى أي جانب.

كانت حياة ألف وخمسمئة، أو ألفين من مقاتلي علي بيه معلقة بشفتيه. وربما معلقة بضميرك! هكذا فكّر طُرسُن باشا وعلى الفور أعلن قراره:

- غداً، وقبل الضياء الأول، ستطلق المدفعية سداً من النيران على أسوار القلعة، وسنقتحمها بعد الظهر، حالما تبدأ حرارة النهار بالانخفاض. ينبغي إخطار الجنود الليلة، ولتقرع الطبول على امتداد المعسكر، وليخطب الشيوخ في الجند، ولتعزز روح المعركة بكل الوسائل المألوفة. سيُرسل الجنود للاستراحة عند منتصف الليل.

توقف هنيهة ثم اختتم قوله:

- لقد تكلمت.

وقف الجميع، وانحنوا لقائدهم، وخرجوا من الخيمة. أما الفلكي، الذي ظنَّ أنه السبب الرئيس في الخلاف الذي نشب، فقد تنحى وانصرف. كان يعلم أنهم حتى لو هُزموا هزيمة مؤقتة، فإن الأقوياء

يبقـون دومـاً أشـد مـن التابعيـن لهـم، وبدا لـه أن من الفطنة الغياب عن الأنظار بدلاً من التباهي بأن توقعاته هي التي صدقت.

هبط الليل.

تجـوّل الفلكـي فـي أطـراف المعسـكر برهـة مـن الزمـن مـن دون أن يصـادف أي مخلـوق يعرفـه. كان المعسـكر مترامـي الأطـراف، وكان الاحتمـال ضعيفـاً فـي أن يصـادف أي شـخص يعرفه. يضاف إلى ذلك، لقد شُـقَّت طرقات كثيرة متشـابهة بعجالة مما يجعل العثور على خيمة صديـق، حتـى لـو كنـت قـد زرتها من قبـل، تحدياً كبيراً. على كل حال، إنه يكاد ينفجر توقاً ليصادف شـخصاً يمكن أن يخبره آخر الأخبار من الفسـطاط. لكن لم يظهر أحد للعيان، وكأَن الأمرَ متعمّدٌ. كانت الخيام متشـابهة. غيـر أنَّ خيـام الضبـاط وحدهـا هي التي كانـت متميزة برايات صغيرة مثلثة الشكل مثبتة على الباب، تشير إلى رتبة نزلائها. كما وجد ان الوجوه التي تبيَّن ملامحها في ضوء المشاعل المتقدة داخل الخيام، كلما دفع رأسه داخل الباب، كانت دائمة التبدُّل.

سـمع شـخصاً ما يناديه. إنه الشـاعر سـعد الدين، الذي كان يتجه نحوه. فشعر بالغبطة.

سأله سعد الدين:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- كنت أتجول على أمل العثور على صديق؟ أين كنت تختبئ؟

فيما الشاعر يفتح فاه للرد، اشتمّ الفلكي رائحة عرق قوية.

سأل سعد الدين:

- إذاً، هل سمعت؟ سيبدأ الهجوم يوم غد! أخيراً! الحمد لله!

ذُهِل الفلكي، وسأل:

- لكن كيف عرفت؟

- الكل يعرف. هل أنت خارج الدائرة؟

قال الفلكي بلهجة تنم عن استياء:

- أنا؟ كنت أول من عرف! كنت في خيمة الباشا عندما اتُخِذ القرار. في الحقيقة، كنت أعرف به مسبقاً... من النجوم!

أجاب سعد الدين:

- آه...

- فُقدت السيطرة تقريباً على الموقف في الفسطاط...

قاطعه الشاعر:

- لدي قرعة فيها شراب. هيَّا، لنشرب.

لو كان مثل هذا العرض مقدماً من أي شخص بمثل هذه الحميمية لجرحت مشاعر الفلكي، لكنه شعر أنَّ سعد الدين جرَّده من السلاح تماماً.

- سيرانا الناس.

- ثم ماذا؟ إنها ليلة احتفال.

أخذ الفلكي القرعة المجوفة من يد الشاعر، والتفت كي لا يراه أحد من المارة، وجرع بضع جرعات كبيرة.

تناهى إلى الأسماع صوت قرع طبل. ثم صوت طبل آخر.

قال الفلكي:

- لقد بدأوا بقرع الطبول. لقد انتشرت الأخبار.

- لقد أخبرتك بذلك.

أصبح صوت قرع الطبول يسمع الآن في كل الأرجاء. وخرج الجنود من خيامهم مجموعات، وأضرمت نيران عظيمة في كل أنحاء المعسكر.

قال الشاعر:

- ستكون ليلة ليلاء.

اجتـازا وسـط المعسـكر، ثـم انعطفـا يميناً عند النقطـة التي كانت قوات الانكشارية قد نصبت خيامها فيها. فمرَّ بهما واحد من الانكشارية، وتوقف، ثم استدار ليلحق بهما بضع خطوات، وأمسك بردن الشاعر.

اسـتدار الشـاعر وهو يظن أن صديقاً اعترضه، لكن قبل أن يتغلب على دهشته، همس الانكشاري:

- أعطِني شراباً أيها الأخ، لا تزال عندك قطرة في القعر.

قطّب الشاعر حاجبيه:

- كيف عرفت أنَّ لدي شراباً؟

أجاب الانكشاري:

- إنها رائحة أنفاسـك أيها الأخ. لكن لا تخف، فالانكشـاري لا يشي بأحد.

تعجب الشاعر، ووضع يده داخل ردائه.

- انتظر. لا تخرج الشراب إلى أن تتعذر مشاهدتنا.

سأل الشاعر:

- ما اسمك؟

- طُز أوكشتان!

- اسم جميل. اسم جندي حقاً!

عندمـا تأكـد الشـاعر أنَّ مـا مـن أحـد يراهـم، نـاول الغريـب قرعة الشراب.

شرب سعد الدين جرعة كبيرة بدوره، ثم ناول الشراب إلى الفلكي، وسار الثلاثة وسط الضجيج المتزايد.

بان القمر من خلال الشـق بين الجبال وكأنه وجه حيوان وحشـي ضـارب إلـى الصفـرة يراقـب مـا يجري في أرض الوادي، وانهمر ضوؤه البارد فوق آلاف الخيام البيضاء.

صاح الشاعر فجأة:

- مولى جلبي!

كان قد شاهد موثِّق الحملة من مسافة بعيدة.

سأل الموثِّق:

- هل خرجتَ لتتمشَّى؟

أجاب سعد الدين:

- نعم، إننا نتمشَّى. أعرّفك إلى طُز أوكشتان، الانكشاري الباسل الذي تعرفت إليه قبل قليل.

ثم التفت إلى الجندي:

- أعرفك إلى مولى جلبي، الأستاذ والمؤرخ المحترف. أما أنا، فاسمي سعد الدين، وأنا شاعر وهذا صديقي المُنَجِّم الجيش، أي أنه يجعل النجوم تتحدث إليه.

ذُهل الانكشاري عندما وجد نفسه برفقة مثل هؤلاء الناس المهمين.

سأل جلبي:

- أين عثرت على الشراب؟

قال سعد الدين:

- لدي شرابي الخاص.

ثم مدّ يده داخل ردائه وأضاف:

- تفضل! اشرب قليلاً!

قال موثِّق الحملة:

- انتظر لحظة. لنذهب وراء منعطف.

قال سعد الدين:

- لا بأس. إنني أفضّل أن أشرب وأنا أمشي.

التفت جلبي إلى الفلكي، وسأله:

- هل حضرت اجتماع مجلس الحرب؟

بدأ الفلكي يهمس مغتبطاً، إذ سيتمكن من إظهار ما لديه من معلومات حصل عليها من الداخل. أما الشاعر والانكشاري فقد سارا على مسافة قصيرة أمامهما.

بات السهل كله تقريباً الآن مغموراً بضوء القمر الذي انتشر على الخوجات معتمري العمائم، وهم ينطلقون مهرولين في كل اتجاه ويحملون المصاحف. أما الدراويش فكانوا يُعِدُّون العدَّة للبدء برقصاتهم.

أما الطبول فقد استمر قرعها.

سأل الشاعر وهو يلتفت ليواجه رفيقه:

- ألم تنتهيا من لغوكما بعد؟ إذاً، عن أي شيء تتكلّمان؟ وقت الشراب؟

سأل الانكشاري بهلع وهو يومئ صوب الفلكي:

- أتراه حقاً يكلِّم النجوم؟

أجاب سعد الدين:

- هذا ما يبدو.

نظر الانكشاري بطرف عينه إلى النجوم الثلاث المحفورة على القطعة البرونزية التي يضعها الفلكي حول رقبته.

بعد مسافة قصيرة خرج الأربعة عن الطريق العام مرة أخرى، وبدأوا يتناوبون الشراب. وضع الشاعر ذراعه حول كتف الانكشاري وأخذ يناديه الآن بعبارة: أخي الجندي. في موقع اضطرام النيران، كان الخوجات يتلون سوراً من القرآن الكريم. كان الجنود جالسين في نصف حلقة حولهم ويصغون إليهم. وعلى مسافة أبعد قليلاً، وقف شيوخ ومحاربون قدامى يخطبون خطباً نارية بأصوات حماسية كادت تطغى على أصوات قرع الطبول.

قال أحدهم وهو يشير إلى القلعة:

- انظروا إلى رايتهم على قمة البرج الرئيس. انظروا إليها! يمكنكم أن تشاهدوها وهي ترتعد من شدة الخوف!

التفت الجنود صوب الاتجاه المشار إليه، لكن بالرغم من أن الراية كانت بعيدة جداً، وبدت شاحبة تحت ضوء القمر، إلاَّ أنهم ظنُّوا حقاً أنهم يستطيعون رؤيتها وهي ترتعش. لقد شاهدوا العديد من الرايات المثلثة ترفرف في الريح خلال الأسابيع والأشهر الأخيرة، حتى إنهم غالباً ما بدأوا يشاهدونها في أحلامهم.

قال شخصٌ ما في عتمة الليل:

- إنَّ راياتنا ترتجف هي الأخرى.

نظر الشيخ نظرة غاضبة اتجاه المصدر الذي أتى منه الصوت وزمجر.

- هذا صحيح. إنَّ راياتنا ترتجف بسبب نفاد صبرها وهي تنتظر بدء المعركة، تماماً مثلما يهتز شعر الأسود قبل هجومها.

مضوا في سبيلهم، فيما استمر الشاعر في الغمغمة. من الواضح أنه كان يؤلف أبياتاً من الشعر والانكشاري يفغر فاه دهشةً منه، فهو لم يشاهد شاعراً من قبل، ولا حتى شويعراً ينظم الشعر.

سأل سعد الدين الانكشاري على حين غرة:

- هل سبق لك أن رأيت فتيات ألبانيات؟

- لا، لكنني سمعت مَن يتحدث عنهن.

قال سعد الدين وهو يضرب جبهته براحة يده:

- يا لهن من فتيات رائعات. إنني أستطيع أن أحكي لك عنهن، إذ سبق لي أن رأيتهن.

سأل طُز أوكشتان:

- ما شكلهن؟

- آه! نسيت أنك انكشاري. إنني أرثي لك. لقد منحك السلطان امتيازات كثيرة، لكن ما فائدتها إن كانت متعة النساء محرَّمة عليك؟

تنهد طُز أوكشتان:

- هذا صحيح.

تنهد الشاعر بدوره:

- يا لك من فتىً مسكين!

فسأل الانكشاري مرة أخرى:

- إذاً، ما شكلهن؟

علا ضجيج المعسكر، وتحتم عليهم أن يصيحوا بأعلى أصواتهم كي يسمع أحدهم الآخر.

قال سعد الدين:

- حسناً الآن. إنهن... إنهن... إنهن... كيف يمكنني أن أصفهن لك يا أخي؟ هُنَّ كالسحاب، كالحليب... وعندما أجد نفسي برفقة إحداهن أظن أنني سأصاب بالجنون. لا أستطيع أن أفعل شيئاً. أنت تعلم أيها الانكشاري معنى أن تحط عنك الحمل قبل أن تصل إلى الباب!

سأل الانكشاري:

- وهل ستشتري لك واحدة عندما نستولي على القلعة؟

- هذا مؤكد، مهما كان الثمن. لدي مالٌ كثير (وضع يده داخل ردائه). كل ما حصلت عليه لقاء قصائدي.

- أنت رجل محظوظ.

مدَّ الشاعر يده إلى شرابه وشرب.

إحتجَّ الفلكي وقال:

- كفى، فأنت لم تعد تستطيع السير باستقامة كما يجب.

هنا أعاد سعد الدين الشراب إلى ردائه.

- ستكون ليلة ليلاء عندما نستولي على القلعة! ليلة صخب وعربدة. انتظروا حتى تروا لهونا وعربدتنا! وبعد أن يستمتع الرجال، فسيتبادلون الأسيرات. سيبقون عليهن مدة ساعة ثم يبيعونهنّ ليشتروا غيرهن. وستنتقل الفتيات من خيمة إلى أخرى. ستحدث مشاجرات، وربما عمليات قتل! آه. سنلهو كثيراً!

أصغى الانكشاري كالح الوجه.

ساروا مسافة أخرى، على امتداد طريق ينتشر عليه رجال المشاة وقد استلقوا على الأرض تحت ظلال سوداء تلقيها الخيام.

قال سعد الدين:

- هؤلاء المشاة ضجرون. في وسعي أن أخمن الحديث الذي يتجاذبون أطرافه وكأنني أستطيع أن أسمعهم يتكلمون بصوت عالٍ وواضح.

- كيف تعرف ذلك؟ لم أكن أتصور أن هناك من يستطيع أن يُخمِّن ما يدور في عقل جندي المشاة.

أجاب سعد الدين:

- أنا أعرف. إنهم يحلمون بمنحهم قطعة أرض أو بستاناً لزراعة الكروم في البلاد التي يفتحونها، ثم إنفاق البقية الباقية من أيامهم وراء المحراث.

قال الفلكي:

- كل واحد حرٌ في أن يحلم.

أُغري الشاعر بالردِّ، لكنه آثر أن يجرع كمية أخرى من الشراب، وواصل غمغماته وهو ينظم أشعاره.

ازدادت الحشود حجماً، والطبول ضجيجاً في كل مكان، والدراويش يدورون ويسقطون، يبتهلون ويصيحون من دون استراحة.

هتف واحد من الشيوخ قائلاً:

- سنعلم هؤلاء المتمردين الملاعين القرآن الكريم، وعلى أراضيهم المحدودبة سننشيد المنائر التي يباركها الله! وعند طلوع الفجر، ومن هذه الأبراج العالية ستنهال أصوات المؤذنين بالأذان على هذه الرؤوس الجاهلة وتستحوذ على عقولهم. سنتأكد من أنَّ هؤلاء الكفرة سيتعلمون كيف يسجدون باتجاه مكة المكرّمة خمس مرات في اليوم. وسنلفّ جماجمهم المريضة والمضطربة بعمامة الإسلام الشافية.

علَّق الفلكي قائلاً:

- يا له من خطيب مفوَّه.

تدخَّل سعد الدين وهو يتفجَّر حماسة:

- أريد أن أقرأ قصيدة أيضاً، وهي موجودة في رأسي.

ثم بدأ يدمدم بصوت عالٍ سلسلة من الكلمات التي يتعذر فهمها:

- إنّ تأليف قصيدة يؤلم أوكشتان أكثر مما يؤلمه القتال وهو يشق طريقه في حملة البلقان.

كان يصعب جداً شق الطريق وسط الجموع المحتشدة، وكانت تسهل رؤية الدراويش بأسمالهم البالية في كل مكان. كان أصحاب الطريقة الرفاعية قد بدأوا رقصتهم، فيما تدافع الجنود كي يشاهدوهم على نحو أفضل وهم يثبون إلى الأعلى وإلى الأسفل على إيقاع الطبل. كانت رقصة رتيبة، يجلسون على كعوب أقدامهم ثم ينهضون بقفزة سريعة وبحركة متأرجحة ويصرخون صرخات عالية تجعل الدم يتجمّد في العروق. هم في غيبوبة، ووجوههم شاحبة، وعيونهم نصف مغمضة.

أوضح سعد الدين ما يجري للانكشاري:

- إنها رقصة جديدة تماماً، ومنتشرة في جميع الأرجاء. هل تروق لك؟

ردَّ الانكشاري:

- نعم، إنها تروق لي وهي مثيرة.

جرع الشاعر كمية أخرى من الشراب، واسترسل في غمغماته.

صادفوا بعد ذلك مجموعة من الأشخاص ممن يجمعون الحاجيات وهم يتشاجرون بشأن عملهم وكأنهم في سوق من الأسواق. كان هؤلاء الجامعون في ما مضى من الزمان قد وهبوا حياتهم لعدد كبير من الأشياء وبحسب اختصاصهم؛ أن يبحثوا عن الأسنان والأصابع وخصلات الشعر والأظافر والرموش. فبعد أي معركة، تراهم يرمون بأنفسهم على جثث الضحايا من الأعداء ويملأون أكياساً بكاملها بحاجيات يسعون إليها ثم ينقلونها إلى المدن لبيعها هناك. كانت أكثر الحاجيات التي يبحثون عنها هي الآذان البشرية.

يمضون الليلة التي تسبق المعركة عادةً وهم يتحدثون عن العمل، ويحسبون ويحاولون توقع صعود الأسعار وهبوطها، واتجاهات أذواق المقتنين الأثرياء. ولما كانوا مضطرين إلى إنفاق أوقات طويلة بعيداً عن أسواق مدنهم، تراهم لا يعرفون دائماً آخر المستجدات.

سأل سعد الدين الانكشاري:

- أتحب أن تشرب شيئاً؟

لم يقل طُز أوكشتان شيئاً، بل أخذ الشراب الذي ناوله إياه الشاعر، وجرع عدة جرعات. كانت الفوضى تضرب أطنابها حولهم، ولم يلحظ أحد ما كانوا يفعلونه.

سأل موثِّق الحملة:

- إلى أين نحن ذاهبون؟

ردَّ الشاعر:

- إلى حيث تأخذنا أقدامنا، إلى أي مكان.

- ناولني الشراب.

أخرج الشـراب مرة أخرى من تحت ردائه، وكانت قرعة الشـراب قد نفدت تقريباً.

قال للانكشاري وهو يقترب منه كي يهمس في أذنه:

- لديك اسمٌ لطيف جداً، وأنا أغار منه. طُز أوكشتان! لقد سئمت اسمي. الجميع ينادونني سعد الدين العندليب، لكنني...

ذُهِل الانكشاري.

- عندما تضع هذه الحرب أوزارها سأُغير اسمي. أتعرفون الاسم الذي أحبه؟ ساربركان تول - كيليج أُولغونسوي! هل يروقكم؟

- ساربركان يعني الدم المر. نعم، أظنه اسماً جميلاً.

بدا حشد من الناس وقد تجمعوا في بقعة ما إلى شمالهم.

قال الفلكي:

- هناك شجار. هيَّا لنلقِ نظرة.

ساروا باتجاه مجموعة الرجال.

سأل سعد الدين الانكشاري:

- ماذا يجري؟

هـزَّ الجنـدي كتفيـه. وعندما شـاهد الرجـال مظهرهم غير المألوف سـمحوا لهـم بالمـرور. كان هنـاك جنديـان مـن الجنـود الاستشـهاديين يتشاجران مع مجموعة صغيرة من الجنود المغاوير.

قال طُز أوكشتان:

- جنودٌ استشهاديون؟ أين هم؟

قال أحد جنود المغاوير:

- هنالك. كاد أحدهما أن يقتل الآخر بالسكاكين.

كان طُز أوكشتان قد سمع مراراً في كلية الانكشارية عن الفيلق الشهير باسم فيلق الاستشهاديين، وكان قانونه هو عدم التقهقر من أي هجوم إلاَّ بالظفر. كانت تلك هي المرة الأولى التي يشاهد فيها أحداً منهم.

- إنه أعظم فيلق في الجيش كله، بل أعظم من حملة السيوف.

قال الفلكي:

- أعتقد أنهم أدعياء مغرورون.

قال سعد الدين:

- ذلك بسبب الامتيازات التي حصلوا عليها بوصفهم جنوداً استشهاديين.

سأل طُز أوكشتان:

- هل لديهم قانون حقاً يمنعهم من العودة في حالة الهزيمة؟

أجاب سعد الدين باقتضاب:

- نعم. إذا عادوا مهزومين، فسيقتلهم رفاقهم... وقد كنت يوماً ما حاضراً على مثل هذه المقتلة. ليتني لا أرى ما يشبه ذلك مرة أخرى.

تدخل مولى جلبي:

- الأفضل لنا أن نمضي من هنا، فقد يستعر القتال مرة أخرى.

صاحت أصواتٌ من بين الجموع:

- شاويش باشي! شاويش باشي!

هنا دخل قائد المعسكر برفقة قوة من الشرطة العسكرية في إثره.

قال أحد جنود الهندسة العسكرية:

- سيزج بهم في الحبس.

استدار سعد الدين فجأة:

- من هذا الحمار الذي قال إنَّ في الإمكان اعتقال أحد الاستشهاديين؟

قال الجندي:

- أنا.

- إذاً، أصبح مسموحاً لأهل الريف الحمقى أن يكون لهم رأي، أليس كذلك؟

ردَّ جندي الهندسة بصوت عالٍ معتقداً على ما يبدو أن ثيابهم الغريبة تعني أنهم مخصيّون:

- أنا أفضّل ألاّ أخسر خصيتيّ!

ضحك الرجال تحت الضوء الخافت.

- تعال وانظر يا روث البقر!

وهنا شرع مولى جلبي يشمر عن ساعديه.

- هيَّا، فأنت لا تقاتل فلاحاً.

قال الفلكي:

- صحيح تماماً. لنخرج من هنا.

تناهى مرة أخرى من بعيد صوت حوافر الخيل وصوتٌ آمرٌ:

- أغلق فمك القذر!

يبدو أنَّ الشجار استعر من جديد.

صاح أحدهم:

- إنهم يختبئون حقاً. لقد سُلخوا وهم أحياء.

كرر الفلكي:

- لننصرف.

رحلوا من دون أن ينظروا حولهم.

كان البدر قد ارتفع إلى كبد السماء الآن، فجعل النيران المتوهجة تبدو خافتة، وكان المعسكر برمته يفور بالحياة: الجنود يصطدم أحدهم بالآخر وهم يسيرون في هذا الاتجاه أو ذاك. بعضهم شعروا بالإعياء وهم يصغون إلى ابتهالات الخوجات ويشاهدون رقصات الدراويش، فيما انصرف آخرون، بعد أن اكتفوا بما شاهدوه، إلى الخطب الحماسية. توقف سعد الدين أمام مجموعة من الرجال وعلى حين غرة بدأ يلقي قصيدته وقد اتقدت عيناه وارتجفت يداه.

سأل أصدقاءه بعد أن فرغ من الإلقاء:

- هل أعجبتكم؟

أجاب الانكشاري:

- كثيراً جداً. إنها تبعث الدفء في الدماء.

قال سعد الدين:

- هذا هو ما أبحث عنه. إنني أريد أن يشتعل جنودنا حماسة.

ثم أفرغ قرعة الشراب وأضاف:

- ثمة شعراء يلثغون بشعر رديء يستدر الدموع عن طيور جميلة وعن الجنة. هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى، فأنا شاعر لا يسعى إلاَّ إلى خدمة السلطان العظيم. وما جنتي إلاَّ جحيم الحرب!

لم يعودوا متأكدين من مكان وجودهم. فمنطقة المعسكر التي وصلوا إليها كانت تشغلها وحدة كبيرة يتكلم أفرادها لغة لم يتمكنوا من فهمها.

همس جلبي:

- جنود قوقازيون!

صاح سعد الدين:

- ماذا؟ ارفع صوتك!

اقترح الفلكي قائلاً:

- لنعد أدراجنا. لقد ابتعدنا بما يكفي.

استداروا وتتبعوا آثار خطواتهم، واجتازوا الجموع بصعوبة. كان هناك محاربون قدامى تحلقوا حول نيران المعسكر يقصُّون أمام الشبان قصصاً عن الحروب السابقة وحكايات عن الأعمال البطولية الجريئة.

شاهدوا تحت ظلال خيمة كبيرة بعيدة عن الحشد المتجمهر بعض الرجال مستلقين على الأرض. كانت رؤوسهم ترتكز على فؤوس ذات

مقابض قصيرة، يغنون لحناً حزيناً سمعوه من قبل. يبدو أن اللحن حديث لكن أصوله ترجع إلى زمن فتوحات السلطنة حيث انبعثت منها أشد الألحان حزناً. التفت الفلكي صوب مصدر الغناء، إلاَّ أنه صعب عليه أن يتبين وجوه الجنود في الظلمة. كما حال قرع الطبول وآلاف الأصوات وغيرها من الضوضاء دون أن يستوضح الكلمات. لكنه تمكن في أثناء سيره من فهم أحد الأبيات: آه أيها القدر، آه أيها القدر...!

تجولوا مدة طويلة وسط الحشد الصاخب، يكادون لا يتكلمون كلمة واحدة لا يستطيعون سماعها وسط تلك الضوضاء.

قال الانكشاري:

- أصغوا! أعتقد أن هناك رجل دين يتحدث عن نساء المنطقة!

ثم جذب الشاعر إليه، فقللوا من سرعة مشيهم. صحيح. فهناك شيخ يهدر بصوت عالٍ متحدثاً عن النساء الألبانيات، وكان هو الرجل نفسه الذي سمعوه قبل قليل يتحدث عن الرايات.

- سننزع عن زوجاتهم وبناتهم ثيابهن البيضاء غير المحتشمة ونُلبسهن الرداء الأسود المهيب الذي يباركه ديننا، وسنغطي وجوههن بنقاب، ونحول دون أن تنظر عيونهن خفيةً نظرة شهوانية إلى الرجال فيما يمنحن أنفسهن لمرآهم من دون خجل.

كان طُز أوكشتان لا يزال يفكّر في كلمات سعد الدين بخصوص بطون أولئك النساء. لم يشعر من قبل بمثل هذه الرغبة المتقدة. يبدو أنَّ اقتراب موعد المعركة قد زاد من حدة الرغبة في المتعة الحسية على نحو لم يزدها أي شيء آخر.

قال الشيخ بصوت خشن:

- أكثر أجزاء المرأة التي تخلب اللب هي عيناها وشعرها الطويل المسترسل. إن عيني المرأة المستورتين بخمار تسلبان اللب أكثر مما يسلبه جسدها العاري...

فجأة شعر طُز أوكشتان أنه يريد أن يجهش بالبكاء لسبب لا يستطيع أن يسبر غوره. فهو لم يسمع في حياته عن الكثير من الفجور. لكن ما من شيء حفَّزه أكثر من كلمات سعد الدين.

- إنَّنا بإبعادهن عن عاداتهن الوحشية وإلباسهن لباسنا الفخم، سنحول أرواحهن عن طريق الشر، والتي بيقظتها تجعل أجسادهن تهرع من وراء...

مرة أخرى شعر الانكشاري برغبة في البكاء، فمال على ذراع سعد الدين وسأله:

- وماذا سيحدث لعشّ السنونو؟

كانت الصورة قد استحوذت على كامل عقله.

قال سعد الدين وهو يقرِّب شفتيه من أذن الانكشاري:

- لن يتغير أي شيء.

- ماذا؟

- ستتغير عاداتهن. شيئاً فشيئاً، وبمرور السنين، ستزول عاداتهن مثل زهر التفاح. وسيتعودن على أساليبنا. سيألفن عاداتنا حتى إننا لو اضطررنا، لا قدَّر الله، إلى الرحيل عن هذه البلاد، فسيجدن صعوبة بالغة في التكيف من جديد.

واصل الشاعر مناجاته زمناً طويلاً. كان صوته رخيماً جميلاً، إلاَّ أن الجلبة العامة وضجيج الطبول زادا من صعوبة فهم طُز أوكشتان كل ما كان يقوله. كانت وجوه الدراويش تظلم تارة وتضيء تارة أخرى. أما الجنود المذهولون، فوقفوا في شكل حلقات يصفقون بحسب إيقاع الطبول ويصيحون صيحة واحدة مع الراقصين.

سقط بعض الدراويش على الأرض، لكن بعضهم استطاعوا أن يستعيدوا رباطة جأشهم ويجلسوا القرفصاء منقطعي الأنفاس. أما الآخرون فانبطحوا على الأرض كأن نوبة من نوبات تخشب أعضاء

الجسـم حلَّـت بهـم. بـدأ جنـود يتفصدون عرقاً بالإجهـاش بالبكاء. فيما انطلق آخرون يهرولون حولهم.

تعجب سعد الدين وكأنه أصيب بالعمى من المشهد:

- يا لها من ليلة رائعة!

ورفـع قرعـة شـرابه إلـى فمـه للمـرة الأخيرة، ثم رماهـا عند أقدام الجموع المحتشدة.

* * *

إن ما شهدناه عشية الهجوم كان مرعباً أكثر من أي معركة، بل أسوأ من أي هـلاك. فعندما سمعنـا صوت الطبول وهي تقرع ساعة السحر، ربما كانوا يعدون العدة للقيام بغارة ليلية. إلا أننا سرعان ما رأينا أن ما كانوا يحاولون القيام به، بعد أن أصبح سلاحهم جاهزاً للهجوم، هو النفخ في معنويات جنودهم.

مع دقات الطبول الأولى، لم نتحمل المشهد الذي قابل عيوننا. لم نكن نتخيل مثل هذا الجنون؛ لا في عربدة الأزمنة الخالية التي وصلتنا ذكرياتها عبر الأجيال، ولا فـي الليالي المفعمـة بالاحتفالات الصاخبة في قرانا. صراخ، زعيق، ابتهال، رقص، رجـال يضحّـون بأنفسهم، ويعرضون أنفسهم، وكمـا عرفنا في ما بعد، رؤوس تواصـل الحديـث وكأنها تهذي. ولوّل الجنود وكأنهـم بوم الليل وقرعوا طبولهـم قرعـاً جنونيـاً. ارتفعت كل تلك الأصوات لتصل إلـى قلعتنا وكأنها أبخرة كريهة.

بدا نور القمر وكأنه يثيرهم ويقلقهم في الوقت نفسه. وشاهدنا من تحت آسيا بكل صوفيتها ووحشيتها، وشاهدنا قبراً مظلماً على استعداد لابتلاعنا كلنا.

. . . لكن هذه المشاعر لم تُضعف قيد أنملة إصرارنا على القتال حتى النهاية. علـى العكـس مـن ذلك، لم نشعر من قبل بمثل هذه القناعة بأن الموت سيكون علينا أعذب من الكآبة والخيانة الجليّة أمامنا في الأسفل.

هناك سبب آخر لمعنوياتنا الضعيفة. فأعدادهم لا حصر لها! بعدد الحصى على الشاطئ. وكانوا يحاولون مدّ إمبراطوريتهم كي لا تغيب الشمس عنها، بمعنى، أن الليـل والنهار سيظلان دائماً وفـي الوقت نفسه ضمن حدودها. كانوا يعتقدون أنهم بعـد تحقيـق ذلك الهـدف (بعد ربط اللبوة الصفراء والذئـب الأسود بسلسلة واحدة) فإنهم يحكمون الزمن نفسه.

تلك هي نهاية العالم حقاً.

توقف الضجيج عند منتصف الليل وران صمت مطبق.

لـم يكـن الفجر قد بزغ بعد عندمـا أطلق البرج الشرقي إشـارة الإنذار. فقد لاحـظ الخفائـر توهج المشاعل وحركات مشبوهة من حـول المدفع. التزم رجالنا بالتعليمات، فتركوا مواقعهم وتجمعوا في ملاجئ تحت الأرض. وهناك ابتهلنا حتى اللحظة التي سُمع فيها دويٌّ قويّ وكأنه يمزق السماء والأرض على حدٍّ سواء. على إثـر ذلـك هزَّ انفجارٌ الأرض مـن تحتنا. وصاح شخص ما: "السلاح الجديد!"، ثم سمعنا صرخات ثمّ صوت رجال يهرولون إلى مكان يعرفونه.

لقد اندلعت الحرب.

* * *

الفصل الرابع

كان المعماري جاور يشير بأصبعه إلى نقطة معينة على مخطط القلعة الكبير الذي وضعه فوق حضنه:

- يجب علينا أن نضرب الجدار، والجانب الشمالي، والباب الرئيس، على أمل إحداث ثغرة واسعة في ذلك الجانب.

التفت الباشا إلى المساعد وقد بان عليه الضيق. لقد بات أسلوب المعماري في الكلام، الذي كان يسبب له صداعاً نصفياً حتى في الأوقات الاعتيادية، لا يُحتمل تماماً مع ضجيج المدفع.

بدأ المساعد يترجم بصوت خفيض ما كان يقوله:

- يقول إنه لا بد من أن ندك السور من جهة البوابة الرئيسة مرة أخرى. وهو يأمل أن تؤدي ضربات أخرى مباشرة إلى فتح ثغرة كبيرة في ذلك الجزء.

أمر الباشا:

- أحضِروا المهندس.

فانطلق أحد حجّابه.

نَظَرَ الباشا نظرة مكفهرة إلى أسوار القلعة وشاهد المتراس الكائن أمام الأسوار محطماً في العديد من الأماكن. كما شاهد تصدعات في الأسوار أيضاً، إلاَّ أنه لم يكن راضياً عنها، إذ توقع ما هو أكثر من ذلك من تلك المدافع. للمرة العاشرة أخذ الخارطة من بين يدي المهندس، وأمعن النظر إلى النقاط الموضوعة بالحبر الأحمر. كانت قذائف المدفع توشك حقاً أن تصيب الأهداف إصابات مباشرة. بعد كل انفجار كان الباشا يرفع ناظريه باتجاه السور الذي تلقى الضربات بأمل أن يشاهد

ثغرة، لكن بلا طائل. جاوز الوقت الظهر، ولا بد للهجوم من أن يبدأ في غضون ساعتين.

ناول الخارطة إلى المعماري مرة أخرى، وأشار إشارة تدل على أنه ليس لديه ما يقوله. واختلط الشك في احتمال ارتكاب المعماري خطأً في حساباته مع فكرة أنه ربما خانهم، وهي فكرة عجَّل في ظهورها، من دون سبب حقيقي، مجرد اسم الرجل نفسه. في الحقيقة، لقد سبق أن اعتُقِل ثلاث مرات بسبب اسمه، لكن يبدو أنه أُسقِطَت عنه كل التهم بالصورة غير الرسمية نفسها. إن فكرة إلصاق التهم المنسوبة إليه على نحو معقد ترسخت وبات يصعب إلغاؤها تماماً. فهو لم يُعلن عن براءته ثلاث مرات متتالية وحسب، بل ارتفع مقامه أكثر من ذي قبل إثر كل مرة يطلق فيها سراحه من السجن.

كان عدد من أعضاء مجلس الحرب يقفون وراء الباشا والمعماري. لم يقولوا شيئاً، بل اكتفوا بالنظر صوب الاتجاه نفسه الذي كان ينظر إليه زعيمهم.

جاء المهندس برفقة مساعده وهو يشتم ويلعن سراً. وعندما اقترب لاحظ الجميع أن خصلة شعره قد احترقت حرقاً خفيفاً، فيما لاحت بقعة تميل إلى السواد بين حاجبي مساعده.

قال طُرسُن باشا من دون أن يلتفت إلى الرجل:

- أين الثغرات التي ننتظرها طوال النهار أيها المهندس؟

قال ساروجا مؤشراً بيده صوب أسوار القلعة:

- إنها هناك!

عضَّ ضابط الميرة على شفتيه وهو واقف وراء القائد برفقة أُمراء الألوِيَة.

- إنني لا أراها.

مسح ساروجا حاجبيه.

قال بنبرة لاذعة:

– لقد أطلقت النيران بحسب الأوامر، وقد ضربت مدافعي الأهداف المرسومة لها، ولم نغمض أعيننا طوال أربعة أيام وأربع ليالٍ. لا أدري ماذا تتوقع مني أكثر من هذا يا سيدي.

نظر الباشا نظرة متأنية للحظة إلى وجهي السبَّاك ومساعده المرهقين، ولاحظ الشعر المحترق على جبين ساروجا.

قال بلهجة مجاملة:

– إنني أتوقع ثغرات.

أجاب وهو يشير إلى المعماري:

– أنت تتوقع أنها تأتي مني أنا وحدي يا حضرة الباشا، لكن اسأله هو أيضاً عنها.

كان جاور يبدو غير مبالٍ تماماً، كأن ما من شيء من هذا يعنيه أبداً.

قعقع بصوته من دون تردد:

– يجب إطلاق النار على السور، والباب الشمالي...

قال الباشا:

– كفى. عليكم أن تحلوا المشكلة في ما بينكم. أريد فتح ثغرات في الأسوار.

تقدم ضابط الميرة خطوة إلى الأمام وقال بلهجة معسولة وهو يلاحظ بطرف عينيه اهتزاز الخارطة الطفيف بين أصابع القائد العام:

– مولاي الباشا. لا تنسَ أن مدفعيتنا أحدثت اليوم اختراقات هائلة؛ في قلوب أولئك المتمردين البائسين.

تنهد الباشا تنهيدة عميقة. ربما للمرة المئة طافت عيناه المتعبتان في أرجاء السهل مترامي الأطراف حيث جنوده الذين لا عدَّ لهم ولا

حصر يتخذون مواقعهم استعداداً للهجوم. كان المبعوثون يندفعون على صهوات جيادهم في جميع أرجاء المعسكر، وكان الجمع الغفير هنا وهناك يفسح المجال أمام كرات من حبال غليظة، وسلالم، وأعتال حديدية، وحواجز دفاعية تسمى سواتر، وأجزاء من أسيجة من القصب، وآلات حربية لدك الأسوار. نقل قره مقبل وهو على صهوة جواده رسالة إلى الباشا، وانطلق مجدداً بسرعة كبيرة. أما ساروجا ومساعده فقد تناقشا مع المعماري لبضع دقائق، ثم انصرفا بدورهما.

سأل الباشا من دون أن يلتفت:

- لماذا لا يمكننا سماع صوت المدفع الثاني بعد الآن؟

هزّ الجميع أكتافهم، فيما انطلق أحد حجّابه صوب سرية المدفعية، وكان على استعداد لأداء المهمة.

علت سحب الغبار فوق الأسوار، ولم يعد في الإمكان رؤية أي بشر من وراء الاستحكامات. وبحسب أحد الأطباء المتخصصين بالاضطرابات العصبية، فإن مثل هذا القصف، الذي يصيب الذهن بالخدر، ينبغي له أن يترك المدافعين يعانون ما يشبه الإصابة الدماغية. مع كل انفجار مدفعي تمنى الباشا أن يشاهد راية الاستسلام البيضاء وهي ترتفع من خلال سحابة الغبار. لكنّ الأمل كان ضعيفاً، ومع هذا فقد تشبث به.

عاد الحاجب الذي كان قد انطلق للحصول على أنباء سعيدة من سرية المدفعية.

قال من دون أن يترجل عن صهوة جواده:

- لقد أخطأ المدفع الثاني هدفه ثلاث مرات متتالية، ويحاول جنود المدفعية معرفة السبب.

قال المفتي وهو يقترب من كتف الباشا:

- لا بد من أن المدفع أصابه مسٌّ من الشيطان.

كان ذلك يعني، بحسب التقاليد العسكرية القديمة، أن المدفع لا بد من ضربه بهراوة، لكنّ الباشا لم يوافق على ذلك، ومع هذا، لم يحل ذلك دون إصدار الأمر بتطبيق العقاب الضروري.

انطلق الحاجب مرة أخرى ليبلغ الأمر.

لم يبقَ سوى وقت قصير على ساعة الصفر لاقتحام القلعة. أما الباشا، فقد ذهب إلى خيمته لينال قسطاً من الراحة من دون أن ينبس بكلمة.

انتهز ضابط الميرة الفرصة ليترك أمراء الألوِيَة ويتوجه إلى المدفعية. بعد بضع خطوات صادف جلبي واقفاً في موضعه الاعتيادي قرب خيمة الباشا مؤملاً أن يلتقط بعض التفاصيل لكتابه.

قال:

- لنذهب يا مولى ولنرَ ماذا يجري.

شعر موثِّق الحملة بسعادة غامرة إذ تلكأ عنهم. كان ضابط الميرة قلقاً بشأن صديقه ساروجا وكان واثقاً من أن المهندس سيتمرد ضد أوامر الباشا وأنه يجب أن يذهب إليه لتهدئته قبل فوات الأوان.

قال ضابط الميرة:

- اليوم هو يوم إجازتي، وكنت قد خططت لمشاهدة القتال. أعتقد أنك خططت أيضاً لهذا، فهو يومك المشهود في كل الأحوال، وهو ما يمكن أن تسميه عن وجه حق المناسبة التاريخية.

لم يعرف موثِّق الحملة ماذا يقول، لهذا احتفظ بابتسامة على وجهه لأطول مدة ممكنة. كان يدرك أنه إذا ما أبقى شفتيه في وضع ثابت، فإن ملامحه تكفهر. لكنه لم يستطع فعل أي شيء إزاء ذلك.

عندما وصلا المنطقة المسيَّجة الصغيرة التي يحرسها الخفائر، وجدا أن ضرب المدفع قد بدأ. كان شخصان أسودان عاريا الصدرين، قويان قوة هرقل يضربان ماسورة المدفع التي لا يزال الدخان ينبعث منها.

وكان مساعد ساروجا تحت عربة المدفع وسط المساند والدعامات يطرق بمطرقة، محاولاً فك جزء متحرك بدا أنه قد انحشر. أما السبَّاك نفسه فقد وقف على بعد بضع أقدام يستنزل اللعنات.

صاح بأعلى صوته وهو يشير إلى المدفع:

- هل يمكنك مشاهدة ما الذي يفعلونه؟ ثم أضاف مخاطباً جلبي: ذلك يصيبني بالجنون. ولا تنسَ أن تدوّن في كتابك هذا الغباء الذي يصعب وصفه.

قال ضابط الميرة:

- اهدأ، فهذه الأشياء تحدث.

بدأ ساروجا يضحك ضحكاً هستيرياً، ثم زمجر واضعاً يده على جبينه:

- يوماً ما سيدفعني هؤلاء الجهلة للجنون.

ثم بدأ يغمغم مع نفسه:

- أي ورطة هذه التي ورطتُ نفسي بها يا أُمي؟ ويلٌ لي. ما الذي سأفعله بهذه المجاري المتشعبة؟

نظر ضابط الميرة إلى المهندس باهتمام ودِّي ووضع يده على كتفه.

قال مرة أخرى:

- اهدأ!

ثم أضاف:

- لنغادر هذا المكان. لقد أصبح خطراً.

ابتعدا خطوات قليلة عن المدفعية. وعندما نظر موثِّق الحملة من فوق السور الذي يحمي المنطقة المحظورة، لاحظ جنديين شابين من وحدات المتطوعين مستلقيين على العشب. كانا ينظران نظرة جامدة إلى

المدفع، وفيما هما يتحدثان، رسما إشارات على الأرض بحجارة حادة. كان أحدهما أحمر الشعر.

قال ساروجا وهو يشاهد اهتمام ضابط الميرة أيضاً بأمرهما:

- إنهما صبيان غريبان يأتيان كل يوم تقريباً ويجلسان على الجانب الآخر من السور ويحدقان إلى المدفع. ربما يحلمان بصنع مدفع يوماً ما.

سأل ضابط الميرة:

- متى احترق شعرك؟

ردَّ المهندس وهو يرفع يده على نحو آلي إلى جبينه المحترق:

- عندما أطلقنا النار أول مرة، إذ لم أتمكن من التنحِّي عن الطريق في الوقت المناسب.

- كن حذراً!

في تلك اللحظة أطلق أكبر المدافع قذيفة فاهتزت الأرض تحت أقدامهم، ووضع ضابط الميرة وموثِّق الحملة أيديهما على آذانهما فيما أومضت عينا ساروجا ببريق الفخر والكبرياء.

قال:

- إنه يجعل الأرض والسماء ترتجفان.

قال ضابط الميرة ببطء:

- نعم. لقد أنجزتَ عملاً جباراً يا ساروجا، وسيُخلَّد اسمك.

سأل المهندس بنبرة تنم عن سخرية:

- أسيكون خيراً أم شراً؟

ابتسم ضابط الميرة.

- وهل هذا مهم؟ حتى العدم في هذا العالم، إما يكون خيراً وإما يكون شراً للناس.

جاء مساعد ساروجا ومسؤول تركيب المدفع نحوهم، وقال الأخير

وهو لا يزال على بعد مسافة منهم:

- لقد أُصلِحَ المدفع.

فأمر ساروجا:

- إذاً، أطلق القذيفة.

استدار المساعد على عقبيه وانصرف ببطء وهو يسير على ساقيه الطويلتين الضامرتين.

قال ساروجا فيما بدا منهك القوى:

- إنه ذكي ذكاءً نادراً، كما أنه أفضل مني في بعض الأمور، ويوماً ما سيصبح مخترعاً عظيماً. أنا متأكد من ذلك.

قال ضابط الميرة:

- أنت تتمتع بروح كريمة يا ساروجا. كما أنك لا تحمل غِلَّ الغيرة. على كل حال، إن الأسلحة التي تبدو اليوم وكأنها تشطر السماء إلى شطرين هي نتاج عملك.

دوَّى المدفع، فسدُّوا آذانهم، فيما تابع السبَّاك خط سير قذيفة المدفع وشاهدها تصطدم بجدار القلعة، إلى الشمال من البوابة الرئيسة حيث أسفرت عن تطاير الحجارة والغبار في أعالي الجو.

سأل السبَّاك جلبي:

- كيف ستصف هذه الضَجَّة برأيك؟

- حسناً، هذا ما كنت أفكّر فيه الآن. إنني أود أن أصف الضجَّة بأكبر قدر من الدقة، لكن الكلمات تعجز عن وصف مثل هذا الضجيج الرهيب.

ابتسم السبَّاك وقال:

- نعم، إنها تعجز، إذ ليست للمدفعية علاقة وثيقة بالشعر.

تناهى فجأة إلى الأسماع صوت الطبل العظيم. لقد آن أوان اقتحام القلعة.

قال ضابط الميرة:

- سنتركك الآن. لا بد من أن لديك مشاغل كثيرة لتنجزها.

قال السبَّاك موضحاً:

- العمل الخطير حقاً يبدأ الآن. وعلينا أن نعتمد منذ الآن فصاعداً على نيران مدافع الهاون، لأن قذائفها ستنطلق من فوق الاستحكامات، وإذا لم تصل إلى تلك المسافة، فستسقط على رجالنا.

- وداعاً يا ساروجا!

- وداعاً!

ساروا بخطىً وئيدة.

قال ضابط الميرة لجلبي:

- هيَّا. لنراقب الهجوم من خيمة القيادة.

- لا أجرؤ على الذهاب إلى هناك.

- ابقَ معي، ولن يعترض أحد.

استمر الطبل العظيم هادراً. وفيما توقفت المدفعية عن القصف، بدا صوت الطبل الوحيد مهيباً وطاغياً. وانتقل إلى مسافة أبعد وكأنه يرمي إلى احتواء كل جندي من جنود الجيش برمته. شاهدا جواد الباشا الأبيض على مقربة من الفسطاط والتابعين من الجنود على امتداده يحملون أسلحتهم. أما أعضاء مجلس الحرب الذين لا ينتظر منهم الاشتراك في الهجوم فوقفوا صفاً واحداً وراء الجواد، وكان من بينهم علي بيه وكورديسجي. وإلى مسافة أبعد قليلاً، وقف عدد كبير من صغار الضباط ومبعوث على صهوات الجياد ينتظرون الأوامر. كان الباشا يمعن النظر في أعلى حاجز الاستحكامات، لكنه لم يشاهد أحداً. التفت ونظر إلى الشمس التي بدأت تنحرف قليلاً عن ذروتها.

جاء صوت متزلف من الخلف:

- مولاي الباشا، حان الوقت الآن.

رفع طُرسُن باشا يده اليمنى، فظهر المفتي من بين المجموعة وتقدم إلى الأمام. كان يحمل في يده قرآناً مزداناً بالذهب، وقال: بسم الله، ثم فتحه ومال برأسه فوقه، وظل ساكتاً للحظة ثم نظر إلى الأعلى وكانت عيناه تومضان بالفرحة.

– الحمد لله. لقد خرجت لي هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

قال قائد الجيش بصوت جامد:

– بلِّغ الخبر السعيد.

فانطلق المبعوث في كل الاتجاهات.

توقف قرع الطبل العظيم، وساد الصمت وكأن العالم برمته استسلم لنوم عميق.

رفع الباشا يده مرة أخرى، فلمعت قطعة الياقوت الكبيرة في خاتم أصبعه تحت ضوء الشمس. هناك من يهمس بشيء ما وراء ظهره، كما تناهى إلى الأسماع حفيف راية حريرية وهي تُطوى. وعلى حين غرَّة، امتلأ الجو بضجيج مئات الطبول من مختلف الأنواع وهي تقرع، وبموسيقى الغَرب ودوي الأبواق تصحبها صرخات التشجيع والأوامر. بدأ الجنود اللانظاميون بالتحرك، ملوحين برماحهم وبيارقهم مع الريح، وسار وراءهم النَّبَّالة الذين كان واجبهم ينحصر في مضايقة المدافعين من فوق الأسوار في أثناء الهجوم. ثم انطلق صف طويل لا نهاية له من المشاة حاملين الفؤوس والدروع وهي تلمع تحت نور الشمس. كما انتشرت الحبال والسلالم والدروع والسواتر والمذاري والأوتاد وآلات من كل نوع ذات أسماء مأخوذة عن ماعز وعقارب، فيما خلا بعضها الآخر من أي اسم، مثل طوف فوق محيط هائج من الجنود.

أما فرق الخيَّالة، فكانت بطيئة في انطلاقها، واتخذت لها مواقع أخلاها المشاة في أثناء انتظارهم الهجوم، فيما تألقت أشعة الشمس على

جعب السهام التي يحملونها على ظهورهم، وانتشرت فرق الانكشارية المهيبة على مسافة أبعد ولم تكن قد بدأت التحرك بعد. أما المتطوعون فقد اقتربوا من الخندق الممتد أمام البوابة الرئيسة. ظل الباشا يمعن النظر في الاستحكامات التي خلت من أي إشارة تدل على وجود حياة، وكان لا يزال يأمل في عدم ظهور المدافعين من وراء الفتحات، لكنه كان يدرك أنَّ فكرته فكرة مجنونة. اقترب المتطوعون الآن حتى وصلوا إلى الخندق المائي المحيط بالقلعة، وسرعان ما امتلأ بأول الرجال المندفعين فوقه الذين غاصوا فيه وكأن دوامة قد ابتلعتهم. بدا المشهد عن مسافة بعيدة كأنه رؤية كابوسية. على حين غرّة، تخيَّل الباشا أنهم يتحركون ببطء شديد، ببطء أشد مما ينبغي بحسب رأيه، وأن الصمت خيَّم على الجميع. لا بد من أنهم يتسلقون الآن الضفة الأخرى، لكنهم كانوا يتقدمون بسرعة السلحفاة، فلم يستطع مشاهدتهم وهم يرتقون الجانب الآخر. لكن ها هو أول رجل، وثاني رجل وظن الباشا أنه سمع صوتاً يشبه حفيف الأوراق مع النسيم من مسافة بعيدة. كان الصوت صادراً من رماة السهام الذين أطلقوا أول دفعة مسددة إلى الاستحكامات، إذ شاهدوا المدافعين قبل أن يشاهدهم بنفسه. أغمض عينيه، وأبقاهما مغمضتين دقيقة واحدة. كان الطنين يملأ رأسه وشعر بالدوران. وعندما فتح عينيه شاهد المتطوعين الذين عبروا الخندق المائي إلى الجهة الأخرى يركضون صوب السور. في تلك اللحظة، أطلقت مدافع الهاون قذائفها دفعة واحدة فسقطت من مكان على الجانب الآخر من السور، وارتفعت صيحات الهجوم من ألف حنجرة واندفع نهر المشاة العظيم إلى الأمام. بدا الخندق للحظة وقد توارى عن الأنظار تحت طوفان الجنود.

ثم خرج الرجال من الخندق رافعين دروعهم وتسابقوا نحو السور. أسرع الكثيرون منهم صوب البوابة الرئيسة فيما ذهب آخرون نحو الثغرات التي فُتحت إلى الجهة الشمالية منها. هنا دمدمت مدافع

الهاون مرة أخرى. وامتزجت أصوات الطبول، كبيرة وصغيرة، مع الأبواق لتحدث ضجيجاً يصمّ الآذان. كانت تسهل مشاهدة السلالم قرب الخندق وقد ارتفعت في الهواء إلى أكتاف المهاجمين.

أُسنِدَ السلم الأول على السور، وكان سلماً قصيراً. ثم جيء بسلم عملاق ارتفع ببطء وتوقف هنيهة وسط الجو وكأنه سُرَّ بهذا الحشد ثم استقر أخيراً على السور. بذل المشاة جهودهم كي يستقر السلم في الموضع الصحيح، لكنهم لم يسيطروا على توازنه فمال إلى الجانب، ببطء أولاً، ثم سقط فوق الجنود المحتشدين أسفل السور. ثُبِّتت سلالم أخرى على جوانب مختلف الثغرات، وارتفع السلم العملاق من جديد وكأنه ذقن طويل ودقيق لوحش أُسطوري واستقر على السور مرة أخرى. أفرغ المئات من رماة الأسهم جعبهم من السهام على النقطة التي استندت إليها أعلى درجات السلم، وبدأ المشاة يتسلّقون، بعضهم هووا، لكن معظمهم واصلوا الصعود. كان سلم طويل آخر قد أُسند على مسافة تبعد عشرين خطوة، وأصبح أيضاً من الممكن مشاهدة سلمين آخرين يحملهما آخرون. وهنا وصلت أول مجموعة من المهاجمين قمة السور الخارجي للقلعة. انطلقت آلاف السهام فوق رؤوسهم لحمايتهم من المحاصرين. وأمسك الرجل الأول بحافة الاستحكامات ورمى نفسه فوقها ولكنه بقي ساكناً، متشبثاً بصخرة الاستحكامات نحو صدره، كأنه استسلم للنوم فجأة.

تمتم ضابط الميرة وهو يراقب جسد الرجل يهبط إلى الأسفل مجدداً:

- لقد قطعوا يديه!

أما الرجل الثاني، فقد انحنى مرتين لكنه لم يتمكن حتى من مدِّ ذراعه. فتسلق الجندي الذي كان وراءه فوق جثته بمهارة القط، وقفز فوق المتراس نحو الجانب الآخر.

أخيراً، تمكن جندي تركي من وضع قدم داخل القلعة. أغمض طُرسُن باشا عينيه، وتوسل بصوت صامت: لا تتراجع أيها الجندي!

لما فتح عينيه شاهد جنديين آخرين فوق الاستحكامات، لكن أحدهما تراجع فيما أُلقي الثاني من فوق فطرح جندياً ثالثاً عن السلم في أثناء سقوطه. توقف رماة السهام عن الرمي الآن خشية أن يصيبوا رجالهم. وهنا استغل عشرات المدافعين الموقف، وعادوا للظهور من جديد، ظن طُرسُن باشا أنَّ رماحهم أطول من الرماح الاعتيادية، ولو كان في موقفٍ آخر لسأل عن هذا السلاح الجديد وعن مكان صنعه، غير أن فضوله تبخر على الفور.

صاح:

- أرسلوا الخيالة إلى الداخل بسرعة.

راقب الجواد الذي يحمل على صهوته المبعوث الذي أسرع لإبلاغ الأمر.

وصلته صيحات فرح الخيالة موجات متعاقبة من مكان قريب من البرج الأيمن. في البدء، فكّر في أنَّ بإمكانه أن يتبين صوت تاهانكا يعلو فوق أصوات الآخرين، لكنه سرعان ما أدرك أن ذلك لم يكن سوى طنين في أذنيه.

هناك الآن عشرات السلالم أُسندت إلى السور، تحمل مجموعات قليلة أو كثيرة من الرجال، وكان بعضها لا يزال يحمل جثث القتلى بأوضاع غريبة.

قال ضابط الميرة لموثّق الحملة:

- انظر إلى هذه الجثث المعلقة. لقد أنجز النجار عمله على وجه السرعة، وترك العديد من المسامير بارزة.

أصغى جلبي مندهشاً.

اشتد اندفاع المهاجمين إلى الأمام من حول البرج الأيمن، وبدا

أن رمز الخفاش على قمة خوذهم يساعدهم على التسلق. وهوى أحد السلالم، وكان يحتشد بالجنود، إلى الوراء وسقط في الفراغ، لكن سرعان ما نُصب سلم آخر بدلاً منه في المكان نفسه.

أضاف ضابط الميرة:

- يقول الذين سمعوا صراخ تاهانكا في المعركة إنه لا يوجد ما هو أشد منه إثارة للرعب.

صاح واحدٌ من بين حاشية الباشا الصامتة:

- آه! يا للشياطين!

في تلك اللحظة أُضيئت عدة مشاعل فوق الاستحكامات، وانطلقت كأنها نجوم مذنبة، ثم سقط الواحد منها تلو الآخر على المهاجمين.

صاح أحدهم:

- شياطين القنابل النارية.

هنا فكّر جلبي في أن هذه العبارة ستزين كتابه. وكررها في نفسه: شياطين القنابل النارية. ينبغي له ألاّ ينساها.

اهتز الحشد الكائن عند أسفل السور كأنه بحر متلاطم في كل مرة كانت تطلق فيها تلك المشاعل من وراء الاستحكامات.

أوضح ضابط الميرة لموثِّق الحملة:

- إنها كرات محشوة بالخرق، ومشبعة بمزيج الكبريت والشمع والزيت والصّمغ. وهي تُحدِث حروقاً لا تشفى نهائياً.

عرف موثِّق الحملة ذلك، تماماً مثلما عرف الكثير من الأشياء التي تظاهر أنه لا يعرفها كي لا يحرم صديقه المحترم من متعة شرحها له.

كرر بعبوس شديد:

- لن، لن تشفى.

جذب ضابط الميرة كمَّه الواسع إلى الأعلى ليظهر مرفقه الأيسر

العاري، فلم يتمكن جلبي من إخفاء تكشيرته إلاَّ بجهد.

بدت بعض السلالم الآن مهجورة، فيما واصل المهاجمون الاندفاع إلى أعلى سلالم أخرى غيرها وهم يحملون دروعهم فوق رؤوسهم لحماية أنفسهم. أما في الأسفل، فقد هرع الرجال بحثاً عن ملاذ تحت السواتر ينتظرون دورهم للتوجه نحو السور. حصلت بعض القتالات أعلى الاستحكامات، واحترق اثنان من السلالم في عدة مواضع، فيما انشطر سلم آخر إلى شطرين من وسط. لكن عدد السلالم كان يزداد كل دقيقة.

تقدم مبعوث على صهوة جواده، وصاح عن بعد:

- لقد قُتل بُرجُبا.

لم يتفوه أحد ببنت شفة.

استمرت القذائف المدفعية التي تطلقها مدافع الهاون في الصفير فوق رؤوس المدافعين وكانت لا تزال تسقط داخل القلعة، لكن اللحظة الحاسمة لم تكن ببعيدة عندما تبدأ بالسقوط على السور نفسه.

قال ضابط الميرة:

- إذا أفلح ساروجا في تسديد ضربة مباشرة إلى الاستحكامات، فهو عبقري. لكنه حذر، وهو محق في هذا. فإذا ما سقطت على بعد خطوات من الهدف، فسيتحول رجالنا إلى عجينة.

ثم أصابت قذيفة الاستحكامات إصابة مباشرة، وقُضي قضاءً تاماً على مجموعة المدافعين الذين كانوا يُعِدّون العدة لصدّ موجة جديدة من المهاجمين، وتساقطت أطراف ممزقة إلى الأسفل مع أجزاء من البناء.

صاح أحدهم من وراء الباشا:

- أحسنت!

ظلت الاستحكامات المدمرة تدميراً كلياً تقريباً في المنطقة التي ضربتها القذيفة شاغرة للحظة أو لحظتين. فاندفع جنود المشاة إلى الثغرة، وسيطروا بسرعة على ممر الاستحكامات، وقام أحدهم برفع

راية، فصدحت الحناجر بهتاف من كل جانب. رفرفت الراية للحظة، لكن شيئاً ما حدث إثر ذلك. فقد ظهرت رماح سوداء طويلة من جميع جوانب الرجال أعقبه قتال ثم اختفت الراية وكأن ريحاً عاتية طوّحت بها.

في غضون ذلك اندفع عدد من المهاجمين من الجانب الشمالي للبوابة الرئيسة باتجاه الثغرة الكبيرة، وتسلق بعضهم سلالم عريضة بينما حرَّك آخرون السواتر صوب الأماكن التي كان القار المنصهر وكرات النار تضرب الأرض، واشتعلت النيران في عدد من المشاة، فكانوا يهربون، وأطرافهم متأرجحة، ويبدون مثل مشاعل عملاقة. دحرج البعض أنفسهم على الأرض لإخماد النيران التي كانت تلتهمهم، فيما تقافز آخرون هنا وهناك كالمجانين وسط الحشود التي تفرقت مذعورة لإفساح المجال أمامهم، ثم زحفوا على الأرض، ونهضوا، ليسقطوا مرة أخرى، وينأوا أخيراً حتى يلفظوا أنفاسهم الأخيرة. كان الدخان لا يزال منبعثاً من القتلى وكأن أرواحهم لا تجد ترك أجسادهم أمراً هَيِّناً.

ظلّ جلبي يفكّر لبرهة من الزمن في كيفية إيجاد صورة تترجم ترجمة ملائمة مشهد هؤلاء الرجال المحترقين. فكّر في أن يقارنهم بعثٍّ يطوف حول مشعل، لكن كلمة عث قلما تبدو دقيقة للإيحاء بحماسة هؤلاء المقاتلين وبطولتهم. على كل حال، لم يخطر بباله أي شيء آخر.

فجأة اهتزت الأرض، وقطع هدير مدوٍّ سلسلة أفكاره. التفت الباشا وحاشيته صوب مصدر الصوت. لا بد من أنَّ شيئاً ما قد حدث بالقرب من المدفعية، إذ ارتفع عمود هائل من دخان أسود صوب السماء في تلك البقعة، واندفع أحد الضباط وهو يخبّ على صهوة جواده.

بدأ كل الواقفين وراء الباشا يطرحون الأسئلة بأصوات مكتومة. بعد لحظات قليلة، رجع الضابط، وقال:

- لقد انفجر مدفع هاون، ولقي الكثيرون مصرعهم وجرح آخرون.

سأل الباشا:

- والسبَّاك؟

- لم يصب.

استدار الباشا نحو القلعة ولم يتجرأ أحد على قول كلمة أُخرى.

أصدر أمره بتحرك قوات جديدة للهجوم بينما هو يراقب الأفواج الفارسية والقوقازية مندفعة باتجاه الأسوار لإغاثة المشاة والخيالة (أما بخصوص المتطوعين، فلم يكونوا طوال الوقت اسماً على مسمى). فكّر القائد العام في نفسه أن الوقت لا يزال مبكراً جداً على إرسال الوحدات المختارة من حملة السيوف التي كان يزج بها في المعركة بعد قوات الانكشارية.

اتسع الهجوم الآن ليمتد على طول السور المحيط بالقلعة. مئات السلالم، كبيرة وصغيرة، وصلت إلى أعلى الاستحكامات أو إلى جوانب الثغرات التي فتحت في البناء. وامتصت نسبة من طوفان الجنود الذين يدورون كالدوامة في الأسفل ليرتقوا بعد ذلك إلى أعلى السور. ما إن اقترب أولئك الرجال الذين تعلوهم الحروق والدماء من الاستحكامات حتى بدأوا يتوغلون في الثغرات طارحين جانباً دروعهم كي يمتشقوا السيوف ويرفعوا الفؤوس. كانت هذه الدروع التي تقطر قاراً وشمعاً منصهراً، تسقط على رؤوس الجنود المتسلقين وراءهم، فكانوا يصرخون وهم يحاولون تفادي الإصابات بالأجسام الساقطة.

قال ضابط الميرة وهو غارق في الأفكار:

- لم يتوقفوا عن التسلق.

كانت نبرته كأنها تقول: «إنهم يتسلقون، لكن ما الفائدة؟».

استطرد بصوت خافت:

- يبدو لي أننا نخوض معركة خاسرة.

كرر موثِّق الحملة في نفسه:

- معركة خاسرة؟

كانت الكلمات رهيبة حتى إنها تكاد تلتصق بالبلعوم.

ضغط الخيَّالة بعناد وهم يرتقون السطح شديد الانحدار. سقط كثيرون عن السلالم، إلاَّ أن ذلك لم يمنع الآخرين من مواصلة الهجوم. كانت عمائمهم الحمراء تبدو وكأنها ملطخة بالدماء منذ أمد بعيد.

كانت الاندفاعة الأقوى لا تزال قائمة عند البوابة الرئيسة، وقد تجمع المهاجمون حولها، وفي وسط هذا الحشد الرهيب ارتفع على نحو غير مفهوم ما يشبه الكوخ الخشبي. كان المشاة قد رموا جلود ماعز مبللة فوقه كي لا تلتهمه النيران، فيما اندفع الرجال تحته مستعملين مدكَّة حديدية هائلة في محاولة لفتح ثغرة في البوابة فيما حاول المهندسون العسكريون تحطيم المفصلات بقضبان معدنية هائلة.

عاد مبعوث آخر متشح بالسواد والغبار من ميدان المعركة، وهتف:

- لقد مات البِك بيه بوزكورتوغلو.

لم يتفوه أحد بأي كلمة، لكن وجوه الجميع تجمدت عند سماع كلمة مات التي لفظها المبعوث بدلاً من كلمة قُتِل. يبدو أنه كان من قبائل القلمون، وصادفته بعض المشكلات في أثناء تعلمه اللغة التركية على نحو صحيح.

صاح طُرسُن باشا عندما رأى المبعوث يوشك أن يستدير بجواره ويمضي:

- انتظر! كرر ما قلته مجدداً.

صاح المبعوث بأعلى صوته:

- لقد مات البِك بيه بوزكورتوغلو.

ثم أضاف بعد توقف قصير:

- مات إثر نوبة...

غمغم ضابط الميرة:

- قلبية! طيَّب الله ثراه.

أصبحت مدافع الهاون الثلاثة الباقية تطلق القذائف من دون توقف، وكانـت القذائـف لا تـزال تسـقط داخـل القلعـة، إلاَّ أنَّ صـراخ الجرحى والمحترقين كان عالياً ويمكن سماعه من منصة المراقبة. بدأت الشمس تغرب، ولم يعد الباشا قادراً على تحويل أنظاره عن كتلة جيشه العظيمة التـي فقـدت ملامحهـا والتـي تتلوى وتهتز حول القلعة كأنها وحش حي من ذوي الدم الحار نزف دمه. كانت رائحة الأجساد المحترقة رهيبة.

وصل خيَّال نحوهم، فعرف الباشا راكب الجواد عن بعد مئة خطوة، كان قره مقبل، ممسـكاً باللجام بيد واحدة، فيما أمسـك بيده الثانية فكه المخضب بالدماء.

صاح من دون أن يترجل عن صهوة جواده:

- لقد أبيدت قوات المشاة. أين الانكشارية؟

كان صوته خشناً، وغليظاً.

نظـر طُرسُـن باشـا إليـه نظـرة حـادة، وأشـار بذراعـه صـوب الاستحكامات، وقال:

- مكانك هناك يا قره مقبل.

كان قـره مقبـل يوشـك أن يـرد، لكنـه جذب لجـام جواده، ووضع إحـدى يديـه علـى فكـه، وجعـل جـواده يدور ويـدور في نوبة غضب ثم انطلق ووراءه حاجبه، باتجاه المكان الذي أتى منه.

لوح الباشا بيده، فجاءه أحد المساعدين.

قال من دون أن يحرك رأسه:

- أرسل الانكشارية.

بعد لحظات قليلة، بدأت وحدات النخبة بالتحرك حركة بطيئة **في**

البداية، ثم ازدادت سرعتها، باتجاه السور العظيم. كانت صيحاتهم تتردد في الأرجاء. وعندما اقتربوا من الخندق، بدأوا يركضون وقد شرعوا رماحهم وكل أسلحتهم.

بلغ صخب الدفوف والطبول الذروة، وعبرت وحدات الانكشارية الآن الخندق الذي كاد يختنق بجثث المشاة والمتطوعين. اندفع نصفهم كجبل من فولاذ ينشطر إلى شطرين صوب الجدار ذي الفتحات التي تطلق من فوقها النار، فيما رمى النصف الآخر بنفسه على البوابة الرئيسة. كانت صيحاتهم باسم الله والباشا تطغى لحظات على الضجيج. لم يتوقفوا عند أسفل السور بل اندفعوا وسط كتلة المشاة يواجهون بشجاعة السهام والصمغ المنصهر المنهمر شرراً على خوذهم وأكتافهم، ووثبوا فوق السلالم التي اسودّت بسبب الدخان وتلطخت بالقار وكسرت بعض درجاتها. كان كل الذين يراقبون عن بعد، متشوقين لرؤية ما سيحدث عندما تصل قوات الانكشارية إلى الاستحكامات. لكن مدافعين جدداً ظهروا للعيان على حين غرّة في فتحات إطلاق السهام عندما قفزت طلائع الانكشارية فوق القمة كأنهم قطط وحشية. وجاء من ورائهم صف طويل لا نهاية له من رفاقهم. اشتعلت النيران ببعض السلالم، فأسرع المهاجمون يرتقون السلالم للوصول إلى القمة قبل أن تهوي محترقة.

اندفع المشاة لإبدال السلالم المشتعلة، ووثبت مجاميع أخرى من الانكشارية بأقصى سرعة فوق السلالم الجديدة، فيما انهمك جنود آخرون بسحب الأجساد المحترقة من فوق سطح الملجأ الشبيه بالكوخ الخشبي الذي نصب أمام البوابة الرئيسية. وبالرغم من أنه كان محمياً بجلود حيوانات مبللة بالماء، فقد اشتعلت النيران في عدة مواضع منه، لكن المشاة تمكنوا من إخمادها في كل مرة. من وسط هذه الأرجاء انطلقت صرخة: «البوابة! البوابة!»، كانت البوابة الرئيسية الكئيبة والمفزعة، والملطخة بآثار قطرات القار كأنها قطرات دموع سوداء، لا

تزال متماسكة، عصية على مارد بدا أنَّ ما من قوة في العالم قادرة على مقاومته. كانت الضربات المتلاحقة على المفصلات تحدث ضجيجاً يصم الآذان. كانت ضربة المدكة المدوية ترافقها في كل مرة صيحة هيلا هوب! وكان الهتاف المتواصل يعني أن البوابة الرئيسة توشك أن تستسلم، بل إن الصف الأول من الانكشارية لم ينتظر البوابة حتى تتحطم وتنهار بل اندفع خلال الصدع الأول فيها. ولحق بهم آخرون وهم يندفعون اندفاعاً لا سبيل إلى مقاومته. كان الانقضاض سريعاً وقوياً إذ إن اللوح الهائل لباب البوابة الرئيسة دُفع جانباً خلال لحظات كأنه قطعة من الخردة.

بدأ كل أفراد حاشية الباشا يبتهلون سراً. ولم يكونوا ممنوعين من إظهار حماستهم على نحو علني أوضح، لكن بدا ظهر زعيمهم الجامد وكأنه يمنعهم من رفع أصواتهم، لكن المعماري الواقف بينهم أطلق صيحة يائسة:

- لا تذهبوا إلى ذلك الباب. إنه فخ خطير. لا تذهبوا إلى الباب، أسرعوا وعودوا أدراجكم!

هنا صاح أحدهم:

- ما الذي يقوله الطائر العجوز الآن؟

غير أنَّ الباشا أدرك مغزى كلام جاور، فقد كان يعلم أن البوابة الرئيسة تؤدي إلى فناء داخلي ضيق، رباعي مختلف الأضلاع، وفي نهاية الفناء باب آخر أصغر حجماً، لكن يفترض به أن يكون قوياً كالبوابة الخارجية. كان يعلم أيضاً أن رجاله سيشعرون أنهم سقطوا في الفخ مثل جرذان في برميل. وتوقع أن يتم ذبحهم، لكنه بالرغم من ذلك شاهد موجة الانكشارية التي لا تتوقف وهي تندفع إلى الأمام، وعزز الأمل في أن يتمكن رجاله من تحقيق معجزة. أما وحدات الانكشارية فقد واصلت هجومها بالمئات صوب الفناء، ولم يكن أحد يستطيع مشاهدة ما يجري في الداخل. ولا يمكن إلاَّ سماع أصداء مكتومة لصرخات من داخل

القلعة، كانت غريبة، سببها بلا أدنى ريب الأسوار المحيطة بالفناء.

جاء مبعوث آخر يمتطي صهوة جواد وسط سحابة غبار، وقال:

- قُتل هاتا.

كما هو شأن المبعوث السابق، استدار بسرعة وتوارى عن الأنظار في الاتجاه الذي جاء منه.

أدرك طُرسُن باشا أنَّ اللحظة الحاسمة تقع عليه، وعليه الآن أن يعزز من زخم الهجوم على امتداد السور الرئيس كي يأتي أكبر عدد من المدافعين إلى قمة القلعة. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لإغاثة وحدات الانكشارية التي وقعت في مصيدة الجرذان في الفناء الداخلي.

فكّر في أنَّ الوقت قد حان الآن، وكاد أن يصرح بذلك علناً. فكل معركة تصل إلى مثل هذه اللحظة ويبقى حظ القائد في إدراك لحظة الوصول إلى تلك النقطة وسط سريان الزمان الفوضوي. كرر في نفسه: الوقت ليس مبكراً أو متأخراً أكثر مما ينبغي. وشعر في أعماق نفسه بمزيج من الوضوح والخواء جعلاه يتسمّر في مكانه.

أصدر عدة أوامر، واحداً تلو الآخر. فرمى الجنود التتار الماهرون بأنفسهم في وطيس المعركة وجاء في أعقابهم المغول والقلموقيون، وهم رجال زاد من حماستهم مشهد البناء إذ إنَّ فكرتهم عن الحرب العالمية كانت تنطوي على المواجهة بين الخيام والأسوار لا أكثر.

بدا للحظة أنَّ القوات الجديدة التي وهبت نفسها للمعركة توشك أن تبتلعها المعركة نفسها مثلما يبتلع البحر نهراً من الأنهار، لكن أصبح من الممكن بعد لحظات مشاهدة بيارقهم وهي ترفرف فوق السلالم.

حملة السيوف! شعر وكأنه يبقيهم محصورين بين أسنانه. وهو كذلك. كل ما كان عليه فعله هو فتح فكيه لإطلاق غضبهم المدمر. كان يعتقد أن الحرب غالباً ما تبدو أشبه بمبنى من عدة طوابق، يحتوي على إطار وسطح وتاج فوقه. كما هي الحال في كل الأمور، فإن المطلب

الأساسي يتمثل بالالتزام بالأمر الصحيح: الجمع بين السرعة والتقدم.

صاح:

- حملة السيوف!

ثم أضاف:

- ليقع المكتوب!

لم يعد لديه الشيء الكثير بعد حملة السيوف لإكمال المبنى. فبيته يوشك أن يكمل.

انطلق حملة السيوف تثقلهم الإضافات الثقيلة التي تتطلبها رتبهم العسكرية فوق الرايات، صوب البرجين، يميناً وشمالاً.

نظر الباشا صوب الشمس الغاربة. كان الوقت متأخراً بما يكفي للنظر إلى الشمس نظرة مباشرة. كان يعلم أن العديد من الرجال الذين أصيبوا بجروح بالغة سيحملون صورتها الشاحبة إلى العالم الآخر.

ظهرت فوق الاستحكامات صفائح معدنية مخططة بخطوط صفراء كما النمور. وفكّر طُرسُن باشا: هجمة واحدة أخرى. آه أيها القدر! ساعدهم في هجمة واحدة أخرى لا أكثر.

كل ما تبقى للزّج به في المعركة زمرة من الرجال يمثلون مجاميع استشهادية تمثل أمله الأخير: تاج السطح، المجد الذي يتوج المعركة.

تردد. ثم ماذا؟ هكذا تساءل. ثم أغمض عينيه وابتهل بصمت: ليحفظهم الله. وأصدر أمره بصوت مكتوم تقريباً:

- الاستشهاديون! الفرقتان الأولى والثانية!

لم يستطع موثّق الحملة أن يصدق أذنيه. وسرت قشعريرة الإثارة في المجموعة الصغيرة المتحلقة حول الباشا. حملقوا بعيون مثل عيون بقّة، كأنهم يتفرسون في مخلوقات من خارج الكون، في الجنود الاستشهاديين الذين اندفعوا إلى الأمام تحت راياتهم الزرقاء. وكانت رِيَشهم وأغطية رؤوسهم بلون السماء.

شعر جلبي بغصة في حلقه. فقد كان الاستشهاديون يضعون علامات سماوية. أما طُرسُن باشا ففكّر في أن ضجيج المعركة قد خفَّ أواره كي يسمح لأَبواق الاستشهاديين أن تدوي. فراقبهم حتى ظهروا مع الكتلة البشرية التي لم يكن لديها شيء آخر تتوقعه. وتخيل بعضهم يمنحونهم طريقاً للمرور احتراماً فيما صرَّ آخرون أسنانهم وهم يفكّرون: ستفقدون سمعتكم عما قريب!

تحركت فرق الاستشهاديين إلى أسفل الاستحكامات، وبدأت الصعود. نطق الباشا بهذه الكلمات لمخلوق نصفه إنسان ونصفه الآخر طائر بات يمثل الألبانيين في ذاكرته عندما كان يشعر أنه مكتئب:

- والآن سترى من أي مادة يتكوّن الجندي العثماني!

كانت الشمس تغيب. بدا أن الهجوم، الذي ازداد عنفواناً، يحقق أهدافه. وأصبح في الإمكان مشاهدة أعدادٍ أكبر من المدافعين على قمة السور، مما سيسهل المهمة على قوات الانكشارية التي ظلت الآن في الباحة الداخلية. لم يكن لدى تافجا العجوز ما يشتكي منه، كما أنه لم يكن قادراً على توجيه اللوم إلى الباشا لأنه حافظ على أمراء جيشه.

لمحهم بطرف عينيه عندما وصلوا البرج الأيمن. وعنَّ على خاطره - وإن على نحو باهت وضعيف - أنه ربما قد زجَّ بهم في القتال في وقت مبكر جداً. ثم خفض ناظريه صوب البوابة الرئيسة، حيث كان المهاجمون يواصلون التدافع فيها. ومن فوق بحر الرجال شاهد مجموعة من السلالم والحبال والمدكّات. أما إلى الأسفل، فلا بد من أنهم سمعوا أن الاستشهاديين وصلوا قمة الاستحكامات، لقد أصبحت قلعة العدو برمتها الآن، من أساسها وحتى قمتها، في قبضة جيشه.

كان الباشا على أحرِّ من الجمر، كما تمنى، لأن يسمع في أي لحظة صرخة تعلن سقوط البوابة الثانية. لكن الضجيج الصادر عن الغناء كان موحداً ورتيباً يشبه هزيم الرعد المتواصل.

كان يعلم أن كل دقيقة تمضي داخل الفناء تكلف جيشه مئات الرجال. كان في وسعه مشاهدتهم بخياله وهم يقفون فوق جثث رفاقهم، وكان في وسعه أيضاً أن يشاهد الحصى المستعمل في رصف الطريق وقد تخضب بالدماء والأشلاء. لكنه لم يتخلَّ عن الأمل في سماع صيحة النصر. لا بد من أن الحشد الهائل الذي اندفع داخل القلعة قد أحدث تأثيراً ما. نعم، لا بد من ذلك.

نظر مرة أخرى إلى الأسوار. كانت الشمس قد غابت الآن تماماً في جهة الغرب، وبدا الرجال المقاتلون فوق الاستحكامات مثل ظلّ.

حوَّل ناظريه عنهم وانتقل إلى البوابة الرئيسة.

لا بد من أن معظم الاستشهاديين قد انتقلوا الآن من عالم الدنيا. سأل من حنايا نفسه: هل أنت مسرور في داخلك لمقتلهم؟ لم يعد متأكداً إن كان قد زجَّ بهؤلاء الاستشهاديين في المعركة عن ضرورة أم أنه ضحى بهم بسبب غيرة الآخرين.

هبط الليل الآن تقريباً، وبدت البوابة المهشمة كأنها فوهة فرن.

همس ضابط الميرة في أذن موثِّق الحملة:

- لا بد من أن الجحيم بعينه هناك في الداخل.

كان جلبي متحجراً. وبين الفينة والفينة كانت الريح تحمل إليهم رائحة جسد محترق.

استرسل ضابط الميرة في حديثه:

- لن يتمكن رجالنا من أكل اللحم مجدداً لعدة أيام. هذه هي الحال في أعقاب كل مذبحة من هذا النوع.

صاح موثِّق الحملة وهو مندهش:

- يا الله!

لكنه دهش أيضاً من قدرة ضابط الميرة على الهوس باللوجستيات إلى الحد الذي يدفعه للتفكير في ما سيوفره من طعام في مثل هذه الأهوال.

عقد طُرسُن باشا ذراعيه ونظر إلى السهل، فشاهد مبعوثاً يغطي جزءٌ من الخوذة وجهه على نحو يناسب من يحمل أنباءً مزعجة، متجهاً إليه، ربما ليعلن نبأ وفاة تافجا. جاء من ورائه مبعوث آخر يحمل أنباء، ومن يدري أي أنباء. لكنه لم يكن بحاجة إلى رسائل تبلغه أن نار الهجوم وهنت ولا يمكن إيقادها من جديد. كان في وسعه أن يرى اللحظة الحزينة لكل المعارك وقد خيَّمت عليه، عندما أخذت السلالم المحترقة، التي أصبحت الآن تخلو من الرجال تماماً، تهوي وكأن سيقانها بُترت. لم يلقِ نظرة أخرى على بقية الاستحكامات. كان هناك ضجيج مكتوم لا يزال يتناهى إلى الأسماع من الفَنَاء وكأنه قِدرٌ عظيمة تغلي. لم تكن القلعة في رأي طُرسُن باشا ولا أسوارها وأبراجها وحسب، بل العالم كله مركزاً في فوهة البوابة المتقدة، حيث مصيره معلق بالعتبة التي يضيئها وميض تشوبه الدماء وظلال بشعة.

فكّر: يا الله! يا لها من كارثة! يا لها من مصيبة!

ظل على تلك الحال مدة طويلة.

عندما اعترف أخيراً بأنه ليس لديه أي سبب يجعله يأمل أكثر من هذا، أصدر الأمر بالانسحاب.

وبينما هو يمتطي صهوة جواده شعر أن توتره العصبي يدفع به إلى خَدر مميت. ومضى إلى خيمته من دون أن يكلم أحداً.

أعطت إشارة الانسحاب أبواقٌ تطلقُ أصواتاً طويلة مع توقف حاد وكأن الحناجر قد قُطعت.

غمغم أحد أمراء الأَلوِية بخشونة:

- قلعة مشؤومة!

* * *

كان هجومهم الأول على النحو الذي سأرويه. الله وحده هو الذي يعلم المصير المخبأ لنا في الآخرة.

بدأوا بقصفنا قصفاً مرعباً، ثم هاجموا الاستحكامات بموجات متلاصقة، تشبه المدّ في أثناء العاصفة، في أعقاب زلزال أرضي. بالرغم من أننا كنا نتوقع الهجوم منذ شهور، فقد ظن الكثيرون منا أننا لن نرى ضوء النهار أبداً عندما شاهدناهم يتقدمون نحونا مثل تيار من فولاذ مصهور، يصرخون ويلوحون بأسلحتهم وشاراتهم وآلات الموت التي هددونا بها منذ أمد بعيد.

المؤكد أنهم تصوروا أن هديرهم المدوي سيصيب الكثيرين منا بالجنون. في الحقيقة لقد صدمنا، بل أُصبنا بالصمم عندما خرجنا إلى أعلى السور وشاهدناهم وقد بدأوا يرتقون السلالم من الخارج. وكان أول من بارز سيف اليقطان العثماني هو غيون بارديسي الذي ذهبت روحه لملاقاة سيدتنا العذراء. ويقول الرجال الذين كانوا على مقربة من المبارزة إن قعقعة السيوف أحدثت ضجيجاً غريباً، كأجراس دار العبادة. ثم حلَّ الدمار. وظننا مرات ومرات أننا ضعنا وأننا سنَسقطُ معنا كل أبنائنا وبلادنا.

عندما صدحت أبواقهم بالانسحاب، جثمنا وشكرنا الله الذي أنقذنا. وإذ ذاك فقط أدركنا أن دار العبادة كانت قد دمرت جزئياً وأن رمزنا الديني قد هوى عن برجها كأنه ضحى بالإنابة عنا. وبالرغم من كل شيء وفي وسط الخراب، حيث كنا ملطخين بالدماء، وتغطينا الحروق، أنشدنا (تسبيحة الشكر) وصلينا من أجل خلاص الذين ماتوا.

هبط الليل الآن، وترى الذين هم أقرب للسماء من الأرض يعترفون ويتناولون العشاء الرباني. ولما لم تكن لدينا مساحة كافية لدفنهم، فإننا سنحرق جثامينهم غداً وسنحتفظ برمادهم في جرار بحسب موروث الأجداد.

أرسل الأمير جورج رسائل عن طريق إشارات تضاء فوق قمم الجبال، إلا أننا لا نستطيع رؤيتها إلا على نحو خافت وسط الضباب والسحاب. وبالرغم من كل شيء، فإننا نختلف في هذا المساء عما كنا عليه في الصباح، وأن أشياء كثيرة

تغيـرت فـي رأينا إلى الأبد. فقد واجهنا الفولاذ بالفولاذ والرعب بالرعب والموت بالموت. في أغلب الأحيان، انسابت أنهار من دمائهم على وجوهنا تماماً مثلما نزفنا دماءً على العدو. لقد وقعت أحداث كثيرة لا يمكن سردها أو التعبير عنها، وبخاصة تلـك التـي شارك فيها الاستشهاديون الذين قاتلـوا قتالاً أهوج، وهم يدركون أنه لا يمكنهـم أن يتقهقـروا أحياءً، قاتلوا قتالاً وحشياً كالذئاب، لكنهم سقطوا تحت سيوفنا في نهاية المطاف.

يلف معسكرهم الآن الصمت والظلام. كل ما يمكننا سماعه هو صرير عرباتهم التي تأتي إلى داخل فنائنا لأخذ قتلاهم وجرحاهم. كانت العربة الأولى تحمل راية بيضاء، لكننا ما كنا لنهاجمهم حتى لو كانت هذه العلامة غائبة: فمن مصلحتنا قيامهم بنقـل الجثـث خارجـاً كي لا تخنقنا رائحتهـا العفنة وكي لا تصيبنـا الغربان الدائرة بالجنون. ربما سنعمد يوم غد إلى تبادل جثث القتلى؛ قتلانا الذين سقطوا عند أقدام الاستحكامـات مقابـل أولئك الذين ماتوا على القمة. أما الغد، فيومٌ آخر. فالوقت لا يزال ليلاً الآن، ولا تكسر صمت الظلام سوى حشرجة رجال يحتضرون في كل مكان، وصوت السلالم المحترقة وهي تهوي على الأرض.

* * *

الفصل الخامس

عندما انصرف الباشـا، انفضَّت مجموعة أمراء الأَلْوِية الذين كانوا واقفين صفاً واحداً وراءه طوال مدة الهجوم. ووجد ضابط الميرة وجلبي أنهما بمفردهما. كان الظلام حالكاً، يصعب تبين ملامح القلعة، وحالما أطلقت الأبواق إشارة الانسحاب، وتوقف رمي القار أو الزيت المحترق من أعلى الاستحكامات، ابتلع الليل القلعة. خمد الصياح وضجيج القتال لتحل محلهما همهمة مكتومة تشبه غمغمة عمالقة. بدا وكأن وحشاً هائلاً بألف ساق وذراع يحك نفسه بالأرض من دون انقطاع.

أطلق ضابط الميرة تنهيدة عميقة:

- لنذهب يا مولى!

سـار موثِّـق الحملـة وراءه مـن دون أن يتفـوه بكلمـة واحـدة، وسـلك الاثنـان الطريـق الرئيـس المـار بوسـط المعسـكر فيمـا خبَّ حاجبـه وراءهمـا كظـل. كان المعسـكر مظلماً وهادئاً، ومعظم الخيام لا تزال فارغة.

تجولا لبرهة من الزمن من دون أن يكون في ذهنهما هدف محدد. سمع موثِّق الحملة بين فينة وأخرى أصواتاً تصدر الأوامر، وترسل الرجال إلى هنا وهناك. مرَّ بهم مبعوثان يمتطيان صهوتي جواديهما، فيما تحركت عربات عديدة على محاور عجلات تبعث صريراً. وتناهى إلى الأسماع عن مسافة أبعد صوت أحذية الجنود الثقيلة؛ مئات الأحذية.

قال جلبي في نفسـه: ما الذي يحدث؟ مَن الذي يصدر الأوامر؟ ألم ينتهِ كل شيء؟

مرَّ بهم مبعوث بسرعة الريح. ثم تناهى إلى المسامع صوت حوافر

الجياد، وأصوات قلقة تصدر الأوامر، وهدأ ذعر موثِّق الحملة إذ راوده شعور غريب وجديد هو شعور الإعجاب الذي يشوبه أسىً على قوة بلاده. لقد أوضحت الأوامر والحركات الملتزمة بالأوامر في تلك الليلة أن هناك، حتى في هذه الساعة المظلمة، رجالاً يسيطرون على الموقف، رجالاً في موقع السلطة.

اقترب صوت عجلات العربات، وكانت كلها تحمل مصابيح مثبتة على جهاتها الخلفية. مرَّت المئات منها، كل واحدة منها بضوء متذبذب يقطع نياط القلوب.

من خلف العربات برزت كتيبة من المشاة، فلاحظ جلبي مندهشاً أنهم لا يحملون رماحاً، كما ظن من قبل، بل كانوا يحملون معاول ومجارف.

قال ضابط الميرة:

- إنهم أفراد الهندسة العسكرية في طريقهم لحفر القبور ودفن الموتى.

- هل يتم دفنهم هذه الليلة؟

- يبدو أن الأوامر صدرت بهذا الخصوص. ففي مثل هذه الظروف يتم الدفن على الفور، حتى في الليل.

بعد قليل ظهرت كتيبة أخرى من أفراد الهندسة العسكرية، فسأل موثِّق الحملة مخلوع الفؤاد:

- كم هي خسائرنا في رأيك؟

كان ضابط الميرة مستغرقاً في التفكير ولم يرد رداً مباشراً. كان يفكّر في أن اليومين المقبلين، أو الأيام الثلاثة المقبلة ستكون، كما هو مألوف، أيام الغش والحساب المزور وغير ذلك من عمليات الاحتيال. ففي كل يوم سيغير موت الآلاف من الجرحى حجم الجيش الكلي. ففي حالة الفوضى والمحنة العامة لن يتذكر أحد التاريخ المحدد لموت كل

جندي، وبهذا، فإن القادة سيتواطأون في الأيام المقبلة مع ضباط الميرة في وحداتهم لتقديم سجل أسماء غير حقيقي مُعدٍّ بذكاء كبير. حتى إن علي بن سي لن يتمكن أبداً من الوصول إلى حقيقته.

- ماذا تقول؟

- كم هي خسائرنا في رأيك؟

فكّر ضابط الميرة ملياً وقال على نحو واقعي وكأنه يتحدث عن كمية من النقود:

- استناداً إلى قوة الهجوم ومدته، أعتقد أن العملية أدت إلى وفاة ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف رجل.

مرت وحدة أخرى من رجال الهندسة العسكرية.

أضاف ضابط الميرة:

- سنحصل على تقرير دقيق يوم غد.

ثم استطرد بعد هنيهة:

- الشيء الأكيد في هذه الليلة هو أننا هُزمنا هزيمة ساحقة.

كان الجيش قد عاد إلى المعسكر. ورويداً رويداً امتلأت الطرقات والخيام والفساطيط بأنفاس الجنود المتعبين الثقيلة، وبصوت موحش لآلاف الأقدام الماشية بتثاقل وببطء، وبالآهات التي لا عدَّ لها ولا حصر. وتوقف المراقبان على جانب الطريق الرئيس لمشاهدة حشد من الظلال تتحرك ببطء وسط الظلام. في تلك اللحظة لاح القمر في الأفق، وانتشر ضوؤه للمرة الأولى على أبراج القلعة الصغيرة، ثم امتد فوق أسوارها الشاهقة ليغمر بعد ذلك، كغمامة عظيمة، كل شيء: السهل والمعسكر وتيجان الخيام، وأخيراً ضابط الميرة وموثّق الحملة.

استمر الجنود في السير أمامهما سيراً ثقيلاً بطيئاً، وكان عدد كبير منهم قد طوّقوا رفاقهم الجرحى، فيما حمل غيرهم رجالاً على ظهورهم،

معظمهم تصدر عنهم آهات صغيرة وهم يسيرون ويطلقون بين الفينة والأخرى صرخة تقطع نياط القلوب. كان يصعب تحت ضوء القمر التمييز بين آثار الدماء والعلامات التي يتركها القار الحار، فقد اختلط كل شيء فوق الرؤوس والأكتاف التي تعلوها الكدمات، فتنبعث منها رائحة الزيت والجلد المحروق. سقط البعض على بطونهم من شدة الإعياء حالما وصلوا إلى خيامهم، فيما نُقل ذوو الإصابات البليغة إلى مستشفيات الميدان.

خفّف ضابط الميرة من سرعة مشيه، وخمَّن موثِّق الحملة أنه كان منشغل البال بشيء ما، إذ كان في وسعه رؤية وميض عينيه الشاحب والشرير الذي سبق له أن شاهده.

- لا بد من أن بعض الوحدات فقدت ثلث قواتها.

لم يصدر عن موثِّق الحملة تعليقاً. فاستطرد ضابط الميرة في كلامه محدقاً في موكب الرجال الراجعين الطويل:

- فيما يبدو أن وحدات أخرى فقدت نصف عددها.

فكّر جلبي في أنه شاهد حملة السيوف يمرون بهما، فهو لم يسبق له أن شاهد هؤلاء الجنود الأشداء بعد هزيمة. ورآهم في حالة يصعب فيها التعرف إليهم بعد مثل هذه المحنة القاسية.

قال ضابط الميرة متعجباً بصوت غريب:

- الاستشهاديون!

ارتعش موثِّق الحملة وكأنه سمع صوت أشباح. وفكّر في نفسه: كيف يمكن هذا!؟ لا يفترض بهم أن يرجعوا إلا منتصرين. من المؤكد أنهم سيُعدمون.

سأل وهو يوشك أن يغص بكلماته:

- أين؟

كان ضابط الميرة قد مدَّ ذراعه صوب عربة. فجحظت عينا موثِّق

الحملة. هناك العديد من الرايات الشاحبة بزرقة السماء، مكومة في الجزء الخلفي. ولم يكن هناك أحد يسير وراء العربة.

خمَّن مولى جلبي مغزى ذلك. لقد وفت عرائس الموت، وهو الاسم الذي يطلق عليها في المدونات القديمة، بوعدها. وفيما العربة تمر، شاهد مئات الرايات المحترقة الملطخة بالدماء. وشعر بغصة في حلقه فخنق عبراته.

كانا يراقبان الجنود وهم يمرون صامتين لمدة طويلة من الزمن عندما شاهدا الفلكي قادماً من بعيد وقد بان عليه القلق. شعر موثّق الحملة برغبة في تحيته، لكن عندما شاهد مسحة ازدراء في عيني ضابط الميرة، خفض بصره كي لا يُضطَر إلى الرد على أي تحية يحييه بها هذا. كان على علم بموقف ضابط الميرة العدائي من الفلكي، لهذا لم يرغب في أن يكون شاهداً على عدائهما.

تقدم جواد من خلفهما، وصاح شخص ما:

- غازي!

استدارا ليشاهدا واحداً من مبعوثي الباشا.

- ماذا هناك؟

- سيجتمع مجلس الحرب على الفور، وأنت مدعو لحضوره.

انحنى المبعوث انحناءة احترام وامتطى صهوة جواده.

- لا بد لي من أن أتركك يا مولى. ماذا ستفعل الآن؟

- سأتسكع قليلاً، ثم أخلد إلى سريري.

حالما انصرف ضابط الميرة، اندفع موثِّق الحملة وسط الجموع باحثاً عن الفلكي. كان مسروراً لأن لديه علاقات مع المراكز العليا، لكن ثمة أوقات، كما في هذه الليلة، يحتاج فيها إلى أصدقاء مقربين، أناس يستطيع الكلام معهم على نحو طبيعي من دون أن يُضطَر إلى اختيار كلماته، من دون أن يخشى وجوههم التي قد تتخذ فجأة أشكالاً

حادة مثل الكتابات القديمة. وفي نهاية المطاف، عثر مولى جلبي على الفلكي.

- كيف حالك إذاً؟ أين كنتَ ذاهباً؟

نظر الفلكي إليه نظرة ذهول، وقال:

- لقد شاهدتك راجعاً قبل برهة وجيزة، لكنك كنت برفقة ضابط الميرة. أظن أنه لا يحبني كثيراً.

هزَّ موثِّق الحملة كتفيه وكأنه يريد أن يقول: قد يكون ذلك صحيحاً، لكن ما حيلتي في الأمر؟

تَجوّلا في المكان لبرهة من الزمن.

قال الفلكي:

- كان مساء الأمس رائعاً. أما هذا المساء، فيدعو إلى الأسى.

- لم يكن النصر حليفنا.

- آه لو لم نعاقب بمثل هذه الهزيمة المنكرة.

- إنها قلعة مشؤومة!

راقبا صفاً لا نهاية له كما يبدو من الجنود الراجعين يمرون بتثاقل أمامهما. كان الرجال الذين مروا في تلك اللحظة أمامهما قد بان عليهم الإعياء الشديد. لا بد من أنهم هم الذين حملوا السلاح، وحطموا البوابة الرئيسة بالمدكات.

صاح الفلكي:

- انظر. ها هو طُز الانكشاري.

نظر الشاب إلى الأعلى، ولم يبدُ عليه أنه جُرح أو لُطِّخ بالقار، كل ما كان هناك هو ندبة على جبينه، وكان يمسك أحدُ الرفاق بذراعه.

هتف موثِّق الحملة بإعجاب:

- الحمد لله أنك حي!

ثـم اسـتطرد مومئـاً برأسـه إلـى الجريح الذي ضمـدت عيناه بقطعة من قماش عمامة:

- وكيف حال المسكين الذي معك؟

كان وجه الرجل مسوداً بفعل القار وقد احترق شعره.

سأل:

- تالله، أليس هذا سعد الدين؟

أومأ طُز أوكشتان برأسه.

- لقد فقد بصره بعد أن احترقت عيناه.

عضَّا على شفاههما، وتكلم الانكشاري وكأن سعد الدين لا يقوى على السماع:

- شاهدته مصادفة وسط الجموع التي اندفعت إلى الفناء الداخلي حال سقوط البوابة الرئيسة. كان من بين أول من توغل إلى الداخل.

لم يستطيعا الحيلولة دون النظر إلى عينيه المصابتين.

- ثم شاهدته بعد ذلك عندما حمي وطيس المعركة وقد وضع يده على جبينه. كان المكان أشبه بالجحيم في الداخل، وكان كل واحد يريد أن ينجوَ بنفسه. أما هذا المسكين، فكان يلف ويدور وسط الدخان...

كان صوت الانكشـاري خشـناً وينمّ عن تعب. لا بد من أنه كان يصيح كثيراً طوال مدة الهجوم.

- عندما رأيته مجدداً كان لا يزال واضعاً إحدى يديه على عينيه. أمـا يـده الأخـرى فكانـت علـى مـا يبدو تبحث عن شـيء مـا في الهواء. وتلقى دفعةً...

أطلق طُز أوكشتان حسرة عميقة وسأل بصوت كئيب:

- ماذا كنت أقول؟

- إن سعد الدين دُفع... وأنك شاهدته...

استطرد الانكشاري بإنشاده:

- آه، نعم. كان يُدفع هنا وهناك ويلوح لي بإحدى ذراعيه. لم أعرف سبب ذلك، لكنني تذكرت فجأة إحدى عماتي وكانت تقول عندما تريد أن تصب لعناتها على شخص ما: «أتمنى أن تبحث عن السور بيديك!»، بدلاً من أن تقول: «أتمنى أن تصاب بالعمى!» عندئذٍ خمَّنت ما حدث له. ولما اقتربت منه، شاهدت القار المنصهر يسيل على وجنتيه، فأمسكتُ بيده، وشققنا طريقنا بصعوبة حتى تمكنت أخيراً من إخراجه من حفرة الجحيم.

مكث سعد الدين واقفاً في مكانه كأنه تمثال، ولو لم يكن واقفاً على قدميه لساد الظن بأنه ميت.

قال الانكشاري:

- سأصطحبه إلى الأطباء. أعرف أن الأمل ضعيف في إنقاذ عينيه، لكن ربما يتمكنون من تخفيف آلامه.

- سنأتي معك.

كانت خيام المستشفى قد نُصبت قبل يوم واحد فقط، لكنها تحولت الآن إلى مجازر. فقد صُفَّ جنودٌ بأسمالٍ بالية واحداً إلى جانب الآخر فوق ألواحٍ مائلة كي تجف الدماء، والدماء المتخثرة بالارتشاح. وامتزجت آهات الاحتضار بالتوسل والاستعطاف: «خلِّصني يا أخي!»، «أغمد المبضع في كبدي!»؛ فتقاطعها عبارات التوبيخ الفظة: «اخرس أيها الشاب المخنث!»، وكان عجائز الرُّومَلِّي على مقربة منهم، يفرغن دلاءً من دوائهن الفعّال فوق الجروح. كما تناهت إلى الأسماع آهات وهتافات أعلى وأكثر حيرةً: «ماء! ماء يا أمي!»، «اقتلوني!»، «اخرس!»، «الجندي العثماني لا يتباكى!».

جعل هذا كله موثِّق الحملة يشعر بالغثيان، فاستدار كي لا يشاهد هذه الأجساد المدماة، غير أنَّ العقدة في معدته ازدادت إحكاماً.

اضطُر إلى أن ينتظر وقتاً طويلاً حتّى يبدي أحدهم اهتماماً بالشاعر. وعولج معالجة سريعة، لم يصرخ ولم يتأوه. وعندما وُضعت الضمادة على عينيه مرة أخرى، أمسك أصدقاؤه بذراعه وقادوه إلى خيمته، وهناك ساعدوه على أن يستلقي، وسرعان ما استسلم لنوم عميق.

خرجوا وتجولوا لبرهة من الزمن وسط أشكال لا تحصى ولا تُعدّ من دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة.

قال موثِّق الحملة مشيراً باتجاه القلعة الغارقة في الظلام:

- لقد كنت هناك. هيَّا أخبرنا.

رمقه الانكشاري بنظرة من عينين هائجتين ولم يُجب إلاَّ بعد انقضاء مدة طويلة، إذ تمتم وكأنما يكلم نفسه بعد أن ساروا صامتين على امتداد الطريق مسافة لا بأس بها:

- رهيب!

- ما الشيء الرهيب؟

ردَّ مشيراً إلى المكان نفسه الذي سبق لموثِّق الحملة أن أشار إليه قبل بضع دقائق:

- هناك!

قال الفلكي:

- كنت أفكّر في مساء يوم أمس الرائع.

تحركت ظلال الجنود من حولهم في كل اتجاه ولم يتكلم أحد. لم تكن هناك سوى غمغمات خفيضة وتملُّص.

فجأة هتف طُز أوكشتان:

- لا أستطيع أن أنسى نظراته إليَّ. عندما كان يتكلم ليلة أمس، فإن عينيه كانتا تومضان.

هتف مخططاً لنظم قصيدة عن الحملة.

فقال الفلكي:

- ربما يرجع سبب ذلك إلى أنه كان أول من تقدم كي يكون في الصف الأمامي عند انهيار الباب.

قال جلبي:

- ذلك يبعث على الحزن حقاً. لقد كان موهوباً وشجاعاً.

قال الانكشاري برقة مرة أخرى:

- يا الله! كانت عيناه تومضان ليلة أمس!

فقاطعه مولى جلبي بنبرة حزينة:

- نعم. لقد ومضتا وكأنهما توقعتا أنهما تنظران إلى العالم النظرة الأخيرة.

صحَّح الفلكي عبارته:

- العالم المخيب للآمال.

- لقد غطى القار ذلك الوميض بقناع أسود إلى الأبد.

من تكلم عن نقاب أسود في الليلة الماضية؟ كان موثِّق الحملة مرهقاً، مضطرب الذاكرة.

أما الفلكي، فنظر إلى السماء.

سأل الانكشاري:

- ما المصير الذي تتوقّعه النجوم؟

فقد الانكشاري حياءه منذ اشتراكه في الهجوم، وبدأ الآن يتكلم معهم وكأنهم أصدقاؤه القدامى.

أجاب الفلكي:

- توقعات حزينة. يبدو أنَّ ريحاً هوجاء كانت تدور بهم طوال الوقت.

في الحقيقة، كان الفلكي يعاني من صداع نصفي وارتفاع في درجة

الحرارة. ولهذا بدت النجوم له وكأنها توشك أن تهوي من السماء: «لا تهـوي يـا نجمتـي...». ألـم يقـرأ ذلـك من قبل في مـكان ما؟ لقد وضع آمـالاً كبيـرة علـى هـذه الحملـة. وإذا مـا ثبتت صحة توقعاته، فسـيتمكن مـن ملاحظـة مـا سـيحظى بـه مـن مركز أفضـل بكثير، مركـز بارز، لدى عودته إلى العاصمة. فلكي القصر. ولِمَ لا؟ لقد كانت أهم حملة على مدى سـنوات، إذ كانت أنظار السـلطنة موجهة كلها صوب هذه الجبال التـي يلفهـا الضبـاب. لقـد سـئم حياته في الأماكـن النائية الموحلة حيث أنفق السـنتين الماضيتين وهو ذاهب لرؤية زوجة الوالي البدينة كل يوم جمعة لتخبره عن موعد وصول الرسـالة القادمة من أكشـهر. لقد راقته حيوية العاصمة، وشوارعها المزدحمة، وأيامها المليئة بكل شيء يمكن القيام به، وبالأزياء، وبالنساء. ربما يحظى بشيء من هذا كله، وربما لا يحظى. «ابقي معي أيتها النجمة». عندما شاهد السلالم المحترقة وهي تهوي على الأرض عند أسـفل الاسـتحكامات، فإنه رأى أيضاً مسـتقبله هو الآخر. إنه سـيئ الطالع. ظلت تلك العبارة تضغط عليه طوال فترة ما بعد الظهيرة كأنها مسمار صدئ دُقَّ في روحه.

الأشـياء الوحيـدة التـي عنَّـت علـى خاطره الآن هي لعنات من كل نمط، وقد بدأت تثير هلعه.

– ماذا قلت قبل لحظة يا طُز أوكشتان؟ أتمنى أن تبحث عن السور بيديك؟

إن لعناتنا مختلفة. فعلى سبيل المثال، نحن نقول: مُت.

أجاب الانكشاري:

– ما شأن هذا بي أنا؟ ما هذه اللعنة؟ لماذا تريد أن تورطني بمثل هذا الشيء؟

بـدأ الانكشـاري بالبـكاء، فيمـا تشـبث موثِّق الحملة بـردن الفلكي وهمس في أذنه:

- توقف. ألا ترى أنه في محنة؟

- فـي الحقيقـة، إنـه بحاجـة إلـى من يهتم به، ربما أكثر من اهتمام سعد الدين...

كان مولى جلبي قد سمع في أثناء تجواله في المعسكر عن وحدة خاصـة فـي الجيـش تتألـف مـن رجـال ديـن يجمعون بين الـدور الديني والعلاجـي، وتتمثـل مهمتهـم بتهدئـة الجنـود المصابيـن بنوبـات عصبية بعـد المعركـة. وكانـوا فـي الأيام الخوالي يُقتلون شـأنهم شـأن أي رجل آخر لا يقوى على الصمود، لكن القوانين أصبحت أقل قسوة في السنة الماضية.

لاحظ مولى جلبي بتأمل:

- بالأمس كنا أربعة، واليوم نحن ثلاثة.

كان في الإمكان سـماع صوت صرير العربات على مسـافة ليسـت بعيدة. لكن الصوت لم يكن هو نفسه الذي تناهى إلى الأسماع قبل مدة عندما كانت العربات تشق طريقها صوب القلعة. لقد أوحى صوت محور العجلات الأكثر خفةً وخفوتاً بأن العربات باتت مملوءة الآن.

قال موثِّق الحملة:

- لنذهب لمشاهدة دفن موتانا.

ساروا مدة غير قصيرة صامتين قبل أن تصادفهم العربات.

كانت الجثث المكدسة ينيرها ضوء القمر الشاحب. انزلقت إحدى الجثث وسـقطت على الأرض، فتوقفت العربة التالية وجاء شـخص ما ليرفع الجثة ويضعها في الجزء الخلفي من العربة.

مرت عربات فارغة في الاتجاه المعاكس، وكانت في طريقها لتأتي بحمولة أخرى. كانت الألواح الخشبية السفلية ملطخة بالأحمر والأسود. رمق الثلاثة الأرض بنظرة، فشاهدوا أنها مشبعة بالدماء.

سأل الفلكي موثِّق الحملة:

- هل أنت على ما يرام؟ تبدو شاحباً شحوب الأشباح. هل ترغب في أن نعود أدراجنا؟

- لا، لا بد لي من مشاهدة دفن موتانا، إذ ينبغي لي وصفها في كتابي.

كان ذلك هو كل ما قاله أحدهما للآخر طوال المسير. سمعوا عن مسافة بعيدة ابتهالات الخوجات. وعندما اقتربوا منهم، أصبحت الأصوات أكثر وضوحاً، وطغت على أصوات المعاول والمجارف.

عندما وصلوا إلى المقبرة، كان أفراد الهندسة العسكرية قد حفروا ثلاث حفر مستطيلة طويلة، وبدأوا بحفر أربع حفر أخرى. توقفت العربات عند حافة إحدى الحفر، وفحص أحد الأطباء الجثث فحصاً عاجلاً، ثمّ أُلقيت في القبر. كانت الحفرة الأولى قد امتلأت، فشرع أفراد الهندسة العسكرية بطمرها، فيما انحنى الخوجات مرات ومرات وهم يضعون التراب على القبر الجماعي.

بدأت الجثث تتكدس الآن في القبر الثاني. وأمسك الدراويش عراة الصدور، الملطخة أذرعهم بالدماء بالجثث من أطرافها ورموا بها فوق الحافة بكل قوة ونشاط. هكذا فرغت العربات واحدة تلو الأخرى. أما الجياد، فقد أثارتها رائحة الدماء فيما استمر الخوجات في ابتهالاتهم. كان الطبيب يطلب إخراج جثة ما من بين الجثث المكدسة بعد أن يكتشف أن صاحبها حي، وأنه رُمي بين الأموات عن طريق الخطأ.

اختلس الفلكي وطُز أوكشتان النظر إلى رفيقهما للتأكد مما إذا كان ينبغي لهما البقاء مدة أطول. ولما أدرك جلبي أنه مركز الاهتمام، في هذه اللحظات على الأقل، فقد تلكأ.

أخيراً، استدار على عقبيه، فلحق به الآخران. عادوا أدراجهم، وساروا فوق الأرض المشبعة بالدماء حيث كانت العربات متوقفة تقريباً. كانت بعض العربات تحمل جثة أو جثتين، يفترض بها أن تكون جثث

ضبـاط. كان مصبـاح إحـدى هـذه العربـات قـد هـوى على الأرض على مقربة من رأس ضحية فتوهج الزيت المنسكب بالنيران بأشكال غريبة. كان من الممكن مشـاهدة الانعكاس المشـوَّه لوجه الرجل الميت فوق سطح الزيت الأملس. بدا الوجه تحت نور المصباح وكأنه يعاني معضلة قاسية؛ إذ ينبغي له الاستيقاظ أو النوم إلى ما لا نهاية.

تشبث الانكشاري بكمِّ جلبي، وهمس:

- ستحترق جثة ذلك الرجل. يا الله! أعتقد أنه قائدي سليمان!

كان الزيت المشـتعل قد وصل تقريباً إلى جثة الرجل، لكن موثِّق الحملـة ألـحَّ علـى أنـه حتـى إذا مـا أصابتها النيران، فلـن تكون المصيبة عظيمـة. وأضـاف أن القدامـى آمنـوا بـأن الواجـب يسـتدعي حرق جثث الموتى.

اسـتدار طُز أوكشـتان كي لا يُضطَر إلى مشـاهدة الحادث، إذ كان متأكداً من أن جثة الرجل قد بدأت تحترق.

سأل الفلكي:

- ما الذي يمكنني سماعه الآن؟ هل انتابتني الهلوسات؟

فأجاب الانكشاري:

- لا، لقد عُززت الحراسة.

عندما وصلوا إلى وسـط المعسـكر، بدت حالة الانزعاج المنتشـرة وقد ازدادت حدة. تحركت بعض الظلال على بعد مسـافة قصيرة، فيما مرَّ اثنان من الخيالة يحملان شارات وحدة المبعوثين على ثيابهما.

قال الانكشاري:

- لا بـد مـن أنهـم قلقـون مـن احتمـال شـن إسـكندر بِـك هجوماً مضاداً.

أجاب الفلكي:

- انظر! لقد تم تعزيز مركز حراسة آخر. يُعتقد أن إسكندر بِك يثير الرعب، لا سيما عندما يهاجم ليلاً.

فردَّ الانكشاري:

- كل شيء يزداد رهبة في الظلمة.

قطع موثِّق الحملة كلامهما بملاحظة مقحمة:

- إنَّ زعيمنا الباشا نِدٌّ له، ويقال في العاصمة إنه أذكى قائد حربي عندنا.

- الحمد لله!

أدركوا مندهشين أنهم يقفون بجانب خيمة القائد العام.

سأل الفلكي أحد أفراد الحاشية المارين بهم:

- ألا يزال مجلس الحرب في حال انعقاد؟

لم يجب في بادئ الأمر، لكن عندما كشف نور القمر عن ثياب الفلكي، قال بحدة:

- نعم.

قال الفلكي بصوت خافت:

- أتمنى أن تموت!

لكن لم يكن متأكداً إن كان بسبب الجندي الخفير، أو نفسه، أو مجلس الحرب برمته. كان قلقاً، ومهما فعل، فذلك لن يوقف عقله عن العودة إلى حاميه المفتي. فهل سيساعده المفتي أم سيخذله في اجتماع المجلس؟

في غضون ذلك، تواصل انعقاد الاجتماع الطارئ، وجلس القادة على جلود حيوانات فُرشت على الأرائك. كان معظمهم مصابين بجروح، ملفوفي السيقان أو الأذرع بضمادات. لقد لقي ثلاثة من أعضاء المجلس مصرعهم في المعركة وكان المعماري الجالس في

الطرف الآخر من الحجرة قبالة الباشا يخطُّ علامة سداسية توضع بحسب الأعراف فوق قبورهم، فقد كان يستمتع غالباً بالتخطيط والرسم في أثناء الاجتماعات.

تكلم ضابط الميرة، وطالبَ بتجريد الفلكي من رتبته والحكم عليه بالأشغال الشاقة. كان الجميع يعرفون أن هجومه كان ضد المفتي بالرغم من عباراته المحسوبة. أما ساروجا الذي كان يسمح لنفسه بالحضور بين وقت وآخر، فقد أصغى هذه المرة باهتمام بالغ، بل إنه قاطع في إحدى المرات ضابط الميرة وطالب بإعدام الفلكي. حاول بعض أمراء الألوِية الذين كانوا تحت نفوذ المفتي أن يجدوا عذراً لغلطة الفلكي، في حين وافق آخرون من بينهم على وجوب طرده لا أكثر. كان قره مقبل المطالب الوحيد، من بين قادة الفرق، برأس الفلكي. كان الجرح الفظيع على وجهه قد زاد من صعوبة كلامه، لكنه عوَّل كثيراً على الكلمات التي تفوه بها. أما المفتي نفسه وتافجا وكورديسجي فلم يُفصحوا عن أي رأي، فيما أيَّد علي بيه المطالبين بإعفاء الفلكي من منصبه، لكن لم يقترح أي عقوبة أخرى. أصغى الباشا إليهم جميعاً بلا مبالاة تامة. إذ بدت له معاقبة الفلكي أو عدم معاقبته قضية لا تزيد أهميتها عن اتخاذ قرار بقتل نملة أو إبقائها على قيد الحياة. كان يعرف أن تلك ليست هي القضية. فالشجار بقفاز مخملي بين فريقين متخاصمين داخل مجلسه والذي يمكن أن يقلقه في ظروف أخرى، بدا تافهاً. هناك شيء واحد يهمه: ما الذي ينبغي عمله؟

أنهى الجدال بقرار واضح منه: إعفاء الفلكي عن منصبه على الفور وتعيينه في حفر القبور. في حين كان المساعد يُدوِّن الأمر، نهض كورديسجي ليتكلم، وطلب الإذن، بحسب الأعراف، بشنّ حملة تأديبية لسلب القرى في التلال المجاورة ونهبها وبث الرعب فيها. وزعم أنَّ مثل هذا العمل ضروري على وجه الخصوص في الظروف الراهنة لتحطيم

الثقة التي قد تكون هزيمة الأتراك قد أثارتها بين المتمردين.

وهتف عالياً:

- سأنتقم اليوم للدماء التي سُفكت، وسأنشر الخراب. في عموم البلاد! وسأحيلها إلى جحيم حي.

رمق طُرسُن باشا رأس كورديسجي المتقد بشعره الأحمر وفكّر في نفسه أن هذا الرجل سينفذ حرفياً ما يقوله.

قال الباشا:

- الطلب مستجاب!

ثم أومأ إلى مساعده لتدوين القرار الذي اتخذه، خلافاً للعرف السائد، من دون أخذ رأي مستشاريه.

همس صوت لا يكاد يُسمع:

- مولاي الباشا.

طلب الإذن بالكلام شخص ذو شعر أحمر أجعد يبدو أنه يحضر اجتماع المجلس للمرة الأولى.

رد طُرسُن باشا:

- تابدوك بابا، رئيس الشرطة السرية.

كان يدرك أن معظم أعضاء مجلسه كانوا يسددون نظراتهم إلى القادم الجديد بدهشة.

استطرد الباشا:

- تكلم يا آغا.

تظاهر الرجل بأنه لم يلحظ الأنفة التي يمكن قراءتها في عيون بعض الحاضرين.

قال:

- قيل كلام كثير عن الفلكي، لكنّ هناك آخرين لا بد من أن

ينالوا العقاب أيضاً. لقد علمت أن محاولات بُذلت لسرقة سر السلاح الجديد. كما أنني أملك رسالة مجهولة تدين الفلكي.

سأل أصلان خان:

- أي رسالة مجهولة؟ لم أسمع بذلك من قبل.

أوضح تابدوك بابا:

- إنها رسالة خلت من أي توقيع. وقد تلقيت مثل هذه الرسالة التي تعبر عن شكوك عظيمة بشأن لعنة القلعة.

غمغم رجلان أو ثلاثة رجال:

- حسناً، حسناً.

أومأ طُرسُن باشا إيماءة صغيرة دلالة على الموافقة، فقد كان الآغا مثل البلسم لجروحه عندما يشعر بالاكتئاب. كما بعث الغبطة في نفوس أعضاء آخرين، فالهزيمة ليست غلطتهم.

قال أصلان خان:

- إن كان الأمر هكذا، إذاً، دعونا لا نضيع الوقت. لنقطع رأس الفلكي.

تدخل الباشا قائلاً:

- انتظر لحظة!

ثم التفت صوب رجل هزيل الجسم، متغضن الوجه، يحضر اجتماع المجلس للمرة الأولى أيضاً واستطرد:

- ينبغي لنا أن نكون متأكدين من ذنبه. أليس كذلك يا حضرة القاضي؟

قال القاضي مؤكداً:

- ليس من السهل معاقبة الفلكي، بل سأبالغ وأقول العكس.

أجاب رئيس الشرطة السرية:

- لست من مؤيدي هذا الرأي.

تركهما طُرسُن باشا يتجادلان بضع دقائق ثم تدخل:

- كفى! خذوا الفلكي وقيّدوه وتحروا عن القضية بمنتهى السرية والكتمان. لدينا وقت كافٍ للتفكير في المحاكمة، لكنني أقترح أن تعقد علانية.

قال ضابط الميرة مبتسماً ابتسامة ذات مغزىً دفين:

- إنَّ المحاكمة العلنية مفيدة دوماً في هذه الظروف.

تظاهر طُرسُن باشا بأنه لم يلحظ شيئاً، ثم قال مخاطباً رئيس الشرطة تابدوك بابا:

- أمنحك كل الصلاحيات للتجسس على العناصر المشبوهة.

ثم أضاف بعد توقف:

- التجسس على كل فرد.

هنا لاحظ النظرات الخاطفة في جميع أرجاء الحجرة بسبب الملاحظة التي أبداها، وفكّر في أن كل الحاضرين قد أدركوا مغزاها. استطرد:

- لندخل الآن في صلب الموضوع الرئيس، موضوع السبب الذي جعل السلطان يرسلنا كلنا إلى هنا، إلى نهاية العالم، كيف ستتقدم من أجل السيطرة على القلعة؟

رأى تافجا العجوز وتاهانكا والمفتي وعدد قليل آخر من الحاضرين أنه لا بد من شن هجوم جديد فوراً. فجيوش العثمانيين العظيمة التي اقتحمت العديد من القلاع التي يصعب اقتحامها على ما يفترض ينبغي ألاَّ يُسمح لها، على حدّ تعبيرهم، بمعاناة أي إذلال أو مهانة، حتى لو كان ذلك الموقع المتبقي أمام تلك الأسوار. إن العالم برمته يتوقع أن يسمع بسقوط القلعة، فلا بد لهم من شن الهجوم. على كل حال، كان معظم المستشارين يعارضون شن الهجوم وبخاصة في ظل الظروف

الراهنة. فلو صادفهم حظ عاثر ثانٍ يمكن أن تضعف قوتهم العددية، والأسوأ من هذا، فإن هزيمة أخرى ستحطم مؤكداً معنويات الجنود. لهذا السبب امتنعوا عن محاولة إيجاد وسائل أخرى من شأنها أن تؤدي إلى نتيجة لم يحصلوا عليها إثر هجوم مباشر. وفكّروا في أن أي نصر يعد في نظر الجيش جوهرة في تاج أمجاده، بصرف النظر عن الوسائل المستخدمة في تحقيقه.

استمر المجلس في مناقشاته حتى وقت متأخر من الليل. وتحدث كل واحد عن كل ما يعرفه بناءً على خبرته العسكرية الطويلة في ما يخص الوسائل المتاحة للاستيلاء على معقل، سواء أكان هذا الاستيلاء بالوسائل الأكثر شجاعة أو الأقل نبلاً، فضلاً على تلك الخسيسة. كان من بين تلك الوسائل استخدام الأبراج المتحركة والتلويث بالكوليرا، والتقهقر المضلل الذي يعقبه هجوم مباغت، وأخذ الرهائن، ورمي البراز فوق الاستحكامات، ومختلف الحيل ومن بينها إلباس قوة من المغاوير زياً ألبانياً وجعلهم يتظاهرون بالهجوم على المعسكر التركي.

حاول طُرسُن باشا أن يتخيل كورديسجي مرتدياً خوذة تشبه خوذة إسكندر بِك المصنوعة من رأس مَعزٍ، وفكّر في نفسه: لا!

قُدمت عشرات الاقتراحات ونوقش كل اقتراح مناقشة مستفيضة، مع الأخذ في الحسبان النقاط الإيجابية والنقاط السلبية في كل واحد منها. أغمي على أحد أعضاء المجلس وكان مصاباً بجروح. فاستُدعِي الطبيب الذي أمر بدوره بإرسال الرجل إلى خيمته. في النهاية تبين أن الأغلبية يفضلون حفر نفق تحت الأرض وهو اقتراح سبق أن اقترحه المعماري منذ البداية. أومأ الباشا برأسه إليه، فنهض جاور واقفاً على قدميه وأخرج مخططات من حقيبته وتقدم إلى وسط الخيمة.

وضع جاور مخططاته فوق السجادة، وبدأ يشرح تحت أنظار رئيس الشرطة السرية الغيورة الذي رمقه بنظرة تشبه نظرة وحش إلى فريسة في

متناوله. لم يحاول أحد متابعة ما كان يتفوه به لأنهم كانوا يعلمون أنهم حتى لو ركّزوا اهتمامهم بكل ما يستطيعون من قوة، فإنهم لن يتمكنوا من الاستيعاب. كان الشيء الوحيد الذي تبيَّنوه من كلام المعماري غير المفهوم هو كلمة عمود، وكان يقصد بها ممراً والتي كان جاور يستعمل بدلاً منها أحياناً كلمة حفرة أو تحت الأرض وفي أغلب الأحيان كلمة نفق وهي مأخوذة عن لغة قومه أنفسهم.

اكتفوا بمراقبة يد المعماري الشاحبة والناعمة وهي تتحرك على الأشكال الغريبة المرسومة على الورقة، ودُهشوا مرة أخرى من حيث إنَّ شيئاً حقيقياً، راسخاً وهائلاً كالقلعة يمكن أن يختزل إلى بضع خربشات لا تمثل إلاَّ الأجزاء المرئية منها وحسب، بل الأجزاء التي تتعذر رؤيتها من الخارج، كالسلالم في الأبراج الصغيرة والأسس. لقد كانوا مضطرين إلى الاعتماد على هذه الرسومات تماماً مثلما وثقوا بالمخططات المعقدة التي نجمت عنها ولادة مدفع ساروجا العملاق. كانت سبابة المعماري تسير في كل الاتجاهات فوق الخارطة، وهو يصف طبيعة الأرض من حول القلعة، وأوضح أن التربة المفككة سهلة الحفر وهذا عامل إيجابي، غير أنها معرضة للانهيار، في حين أنَّ الحفر في الصخر يسفر عن نتائج أقل خطورة بالرغم من صعوبته. ثم أوضح العمق الذي يتعين حفره في البداية والمسافة التي يتعين حفرها للوصول إلى أسفل أسس السور الخارجي وضرورة إيجاد مخرجين للهروب في حال تعرض أحدهما للانسداد. وأنهى كلامه بحساب المدة التي يستغرقها حفر مثل هذا النفق وعدد الجنود الذين يستطيعون المرور فيه خلال مدة زمنية محدّدة.

لم يفهموا الشيء الكثير مما قاله المعماري، بل لم يبذلوا جهداً كبيراً في محاولة الفهم لأن ما من أحد منهم يمكنه أن يقترح أي تعديل مناسب لخارطة الممر من تحت الأرض. كل ما فعلوه هو أنهم حملقوا في السهم الأحمر الذي بدأ من نقطة خارج القلعة، ثم استمر تحت

الأسس وكأنه رجل يحاول التخلص من تحت باب، لكنه انتهى إلى مكان آخر في الأقبية أو السجون. لكن يمكن قراءة سؤال واحد في عيونهم: هل في وسع هذا السهم الحاد أن يخترق بطن القلعة؟

أظهر المفتي في أثناء كلمة المعماري ازدراءه عندما لم يلتفت إلى الرسومات المفروشة على السجادة. أما تافجا العجوز فقد لاح عليه الذهول وهو يتفرس فيها معتقداً، وكله حزن، أن مثل هذه الأشكال والكتابات كانت تحل محل مهنة السلاح على وجه السرعة، مما سيجعلها تفقد، على الأرجح تماماً، خاصية الحماسة التي تحظى بها لتتحول إلى سلسلة كئيبة من الحيل البارعة التي تصنعها نفوس غامضة ذكية كالمعماري الملعون بما يملكه من كلام أحمق يتعذر فهمه. توقع على نحو مبهم أن السلطنة، في حال وضعت ثقتها أكثر مما ينبغي في مثل هذه الأعمال الورقية، فستتلاشى رويداً رويداً، وإذا ما أوقفت حيوية أمثال هؤلاء الرجال المحاربين تغذية جذورها، وحصلت عوضاً عن ذلك على مركب جاف كالغبار، فستموت عطشاً. أبقى تافجا العجوز عينيه نصف مغمضتين، كانت جروح وجهه تؤلمه وكان بحاجة ماسة إلى النوم. فيما رئيس وحدات الانكشارية منشغل البال بمثل هذه الأفكار في ذهنه المنهك، فكّر ضابط الميرة، وهو يراقب من زاوية عينه على التوالي كلاً من المفتي وتافجا وكورديسجي، أن السلطنة في حال أرادت الاستمرار في البقاء، فالأفضل لها أن تساير الزمان ونقل أمثال هؤلاء الرجال تدريجياً من دورهم في صناعة القرار. لكن ربما هم الذين أداموا زخم الحرب وروحها. ربما هو وأمثاله، وبكل ما يملكون من علم، لن يحققوا شيئاً من دون مشاهدة جهل الآخرين. ربما الرجل المتعلم والرجل غير المتعلم ينتجان، في حال خدمة القضية نفسها، مزيجاً أقوى بكثير من رجلين متعلمين أو رجلين جاهلين، تماماً مثلما أن البرونز أشد صلابة من النحاس ومن القصدير الذي يصنع منهما.

تجاوز الوقت منتصف الليل عندما اختُتِمت المناقشات. وقبل انتهاء الاجتماع حثَّ الباشا الجميع على الالتزام بالسرية التامة، ثم نهض وقال بهدوء:

- إذا لم يحالفنا الحظ في الاستيلاء على القلعة بالوثوب عليها كالعقبان، فإننا سنستولي عليها من تحت الأرض، كالثعبان تماماً، وسنلدغها في أثناء نومها.

شعر ضابط الميرة أن قشعريرة سرت في جميع أنحاء جسده.

* * *

غيَّـر معسكرهـم الهائل من مظهـره في الأيام القليلة الماضيــة، إذ بدا وكأنه أرضــ معرضــ أكثر مما هو معسكر جيش. أما نحــن الذين شاهدناه للمرة الأولى يغطــي الأرضــ مثل نهر جليدي، ثم حال بيننا وبيــن النوم في أثناء تلك الليلة التي عبــث فيهــا وعربد، وكانت ليلة متألقة، وازداد فيهــا غضباً ونشر الرعب والموت في يوم الهجوم، فإننا لا نجد أنه من السهل علينا أن نألف هذه الحالة الجديدة. كان في وسعنا أن نصدق أن الجيش ليس هو ذلك الجيش نفسه أبداً، بل هو قوة أخرى مــن زمــن آخر، وأن قوة جديدة ظهرت فجأة إلــى الوجود عند أقدامنا. الله وحده هو الذي يعلم كيف حدث ذلك.

فــي البــدء راقبنا باهتمــام الكتائب وهي تتقــدم لأداء التمارين، ثم تعود مرة أخــرى لــدى سماعها جوقة الأوامر والموسيقــى وسط مجموعة زاهية من الرايات الملونــة، والمنائــر الخشبيــة التــي أقيمت بعجالــة، فيما عُزفت النايــات، وقُرعت الطبول، وضُربت الصُنوج، وكانت أصواتها تقطع نياط القلوب. أما الخيّالة فكانوا يتسابقون أو يتنافسون في ألعاب الفروسية.

فــي الحقيقــة، إن عدداً قليــلاً منا احتار بشأنها، بل إن عدداً آخر فكر إن كان الأتراك قد تخلوا عن فكرة شن الحرب علينا. لعلهم تلقوا أمراً – أو كما يسمونه هم الفرمان – من سلطانهم الذي يعيش في الجزء الآخر من الكرة الأرضية. بدأ الناس يبتهلون. لعلهم سيتوارون عن أنظارنا بأسرع ما يستطيعون!

باختصــار، وبعــد أن شهدنــا الكثير ممــا يصعب تصديقــه، لاحظنا عشرات الجنود يتجولون بأردية مزركشة بالورود ومزينة بزينة نساء اشتروها من أكشاك أقيمت في المعسكر. فكّرنا في أننا إما ينتابنا حلم مزعج أو أن الأتراك قد جنَّ جنونهم تمامــاً. فجمعنــا رجالنا وأخبرناهم أن الأفضل لهم ألاَّ ينظروا إلى الأسفل صوب ما يجــري فــي السهل. كما أوضحنــا أيضاً أن الجيش الذي يستطيــع أن يظهر بمظهر مجاميع من المرتزقة، ثم بمظهر الوحش الحديدي، ثم بمظهر المرأة الفاجرة، لا

بد من أن يكون عندئذٍ قوة شيطانية على نحو لا تشهده الأرض إلا نادراً. الله وحده يعلم الشكل الذي سيتخذه يوم غد. إن بمظهر النمر الهائج أو الثعلبة الميتة.

تذكر الكثيرون منّاً حكايات أجدادنا عن الغيلان، والتنانين ذات الرؤوس المتعددة، والساحرات ذوات الوجوه المتغيرة، والرجل الشرير، وذي القرن الرهيب. كانت لهذه المخلوقات الخيالية أوجه شبه بهذا الجيش السحري الذي يضحك تارة ويبكي تارة أخرى، وينفث الدخان تارة أو تنتابه حالة مزاجية سوداوية تارة أخرى فيلوذ بالصمت. إن الأصوات التي يصدرها لا يمكن الوثوق بها. بل إن ما لا يمكن الوثوق به على نحو أشد هو صحته.

* * *

الفصل السادس

بدأت قوات المغاوير بالرحيل. كانت طلائعهم قد بدأت بالتحرك تواً، وخرج الآلاف من الرجال من خيامهم ليشهدوا الرحيل. لقد خرج الكثيرون ليودعوا أصدقاءهم.

كما شأن كل المغاوير، فقد امتطى موثِّق الحملة جواداً قصير القوائم والتف ببطانية صوفية ورمق كل ما كان يشاهده بنظرة حزن.

كانت وجنتاه شاحبتين، إذ لم ينم ليلة أمس إلاَّ قليلاً بعد أن أمره علي بيه أن يرافق الحملة. في البدء لم يصدق أذنيه. في مثل سنِّه! يلتحق بقوات المغاوير! ما الذنب الذي ارتكبه ليرمل إلى تلك المناطق المهجورة؟

كما أوضح علي بيه فإن إرساله في تلك الحملة إلى التلال لم يكن عقاباً، بل على العكس، إنّه امتياز منح له كي يتعرف على نحو أكبر إلى الحرب فيصفها وصفاً أكثر أمانة... ولما خشي موثِّق الحملة أن يُظن أنه جبان، فقد اعترض قائلاً إن صحته لا تسمح له بذلك، وأن عموده الفقري لا يتحمل الرحلة، مؤكداً، علاوة على ذلك، إن طحاله كان يحول بينه وبين النوم. غير أنَّ علي بيه تظاهر بأنه لا يسمعه واستطرد في كلامه مؤكداً أن التاريخ من الآن فصاعداً سيُكتب كتابة مغايرة، وعلى أرض المعركة نفسها وليس وسط الأرائك الوثيرة في العاصمة. هكذا تخلى مولى جلبي عن نيته الأولى بالشكوى من خصومه الغيورين الذين تمنوا له المرض، فشكر في نهاية المطاف علي بيه وزملاءه على الشرف الذي أُغدق عليه بمنحه هذه الفرصة المدهشة لمشاهدة المغاوير بأم عينيه وهم يخوضون المعركة.

بعد أن أصبح على صهوة جواد ينتظر وحدته كي تتراصف، شرع يلتقط مقتطفات مما يدور من أحاديث من حوله:

- من يدري كم عدد الأسرى الذين سيأتون بهم؟
- لا تنسَ ما أوصيتك به.
- سيرجعون محملين بفتيات رائعات.
- انتظر وسترى.
- لماذا تقول هذا الكلام؟ ليحل الطاعون على لسانك!
- وعلى لسانك أيضاً! أتمنى أن تلعق الأرض به!
- أنتما الاثنان هناك! هلاَّ سكتُّما؟ اليوم يوم إجازة! ألا تسمعان قرع الطبول؟ هيَّا أيها الفتيَانِ. شاركا!
- سأشتري واحدة بأي ثمن طالما أنها شقراء، وجميلة القوام.
- حتى لو كلَّفت ستمئة جديد؟!
- نعم، سأشتريها بمثل هذا المبلغ.
- أنت مغفل، تجعل المشاة يضحكون منك.
- أغلق فمك أيها الثعبان السام! ألا ترى جمال العالم في هذا اليوم؟
- ومن أين ستعثر على مثل هذا المبلغ من المال؟
- لا تقلق. سأتدبر أمره.
- لكنك لا تحصل في وحدتك إلاّ على جديدين ونصف الجديد في اليوم. فكيف ستدبره؟
- سأجد طريقة.
- ستثير دهشتي.

شعر جلبي برغبة شديدة في الالتفات وإلقاء نظرة. كان الحديث صادراً من واحد من المغاوير من ذوي الشوارب الكثيفة الممتطين

صهوات جيادهم فيما وقف حاجبه على مقربة منه مائلاً إلى الجواد بيده.

قال الجندي المغوار يتبصّر محدقاً بريبة إلى الحاجب ذي العينين السوداوين:

- إن ستمئة جديد فوق طاقتك، لكن أخبرني لعلك...

وهنا احمر الحاجب من رقبته فصاعداً.

أما الجندي المغوار فقد أظهر نفوره بهزة من كتفيه.

- هكذا هو الأمر إذاً! لم أكن أتصور أنك ستكون وضيعاً بهذا الشكل.

لم يتفوه الحاجب بأي كلمة.

- هل سمعت؟ لقد زُجَّ الفلكي في السجن هذا الصباح. يبدو أنه لم يتقن لعنته إتقاناً صحيحاً. فعندما مد ذراعيه إلى الأعلى وفتح راحتي يديه تلقى التعليمات على نحو غير صحيح ولم يغطِّ سوى نصف القلعة!

- ماذا تقول؟

- عندما قُيِّد بالسلاسل هتف: على رسلكم، يداي! إنهما أداتا عملي! كأن المرء يقلق بشأن شعره بعد أن حكم عليه بقطع رأسه! ثمة إشاعة تتناقلها الألسن مفادها أن كل المشتبه فيهم سيعتقلون!

- لن يصيبهم إلاّ ما يستحقونه.

- الأفضل أن تسرق وأن تنهب بدلاً من...

- يتعين عليك أن تفهمني: إنني أتحرق إلى امرأة.

- إنَّ أسلوبك هذا سيجعلك تفقد شهيتك للجنس الآخر.

سأل الحاجب الجندي بنبرة قلقة:

- لماذا؟ لماذا؟

في هذه الأثناء بدأ طبل وحدتهما العسكرية يقرع، وتراصف الرجال

في صف طويل، فمرَّ أمامهم كورديسجي مهاباً على صهوة جواده. وكان يرافقه عدد من الجنود إضافة إلى المفتي. لما مروا جميعهم، تنبه جلبي بغتة وهو يرى طُز أوكشتان، الذي كان يكلم أحد المغاوير والذي كان بدوره يعده بشيء ما. نظر موثِّق الحملة إلى الأعلى صوب القلعة نظرة آلية وشاهد الاستحكامات وقد علتها أسدال جنائزية من القار المتجمد.

دوَّى صوت الانكشاري وهو يشاهد موثِّق الحملة:

- رحلة سعيدة يا مولى!

لوَّح جلبي يده شاكراً إياه، وقلبه يكاد يذوب من شدة الفرح، وتهيأ له أن أمنية حارة من هذا النمط هي ما كان يحتاج إليه حقاً. وغمغم في نفسه: «أرجو أن يحالفك الحظ أيضاً».

وقف طُز أوكشتان لبرهة من الزمن يراقب سحابة الغبار التي أثارتها الجياد، وعندما انطلقت آخر وحدة، سار عائداً إلى المعسكر. في طريقه تناهى إلى سمعه صوت مجموعة من الجنود يتحدثون عن المغاوير الذين انطلقوا قبل قليل يراجعون الغنائم التي طلبوها منهم. كان طُز أوكشتان يدرك جيداً أن كثيرين منهم عقدوا صفقات مع الجنود المغاوير بما فيها شراء الأسيرات، وسمع من محاربي الجيش المخضرمين أن المعسكر يتحول على عادته عند رجوع مثل تلك الحملات إلى سوق عظيمة لبيع الرقيق وبخاصة النساء لبضعة أيام. كان للجنود أذواق فجة إذ تراهم يسرعون لشراء الثياب المزركشة بالورود ليلقوا بها على سجيناتهم. وعندما تخف شهوتهم يبيعون أسيراتهم بأفضل ثمن يستطيعون الحصول عليه ويعمدون إلى شراء أسيرات أخريات بتلك النقود. ولا تنسَ الدوائر التي أعدَّت خطط الحملة العسكرية إعداداً جيداً مسبقاً إدراج لائحة من التجهيزات جنباً إلى جنب مع الطعام والمدافع والبطانيات والإبل وبضع مئات من الثياب المزركشة للأسيرات.

كما قيل للانكشارية أيضاً إن تجارة الرقيق الأبيض عمل ينطوي على الغبطة والمغامرة بالنسبة إلى الجنود المبتدئين. هذا ولا يوجد ثمن محدد، فقيمة الفتاة تتغير بين ساعة وأخرى، معتمدة عادةً على عدد النساء اللواتي أُسرن. كما لا يوجد معيار دقيق لتحديد القيمة النسبية للعبيد أيضاً لأن أذواق الرجال في النساء تختلف باختلاف جذور الجنود القادمين من أنحاء مختلفة من السلطنة. فقد كان بعض الجنود يهوون الفتيات من ذوات الأجساد الممتلئة، والأوساط المكتنزة، فيما كان البعض الآخر منهم يفضلونهنّ رشيقات مثل المِدقّات. وهناك قسم تأخذه النشوة العارمة لمرأى ذوات الصدور المكتنزة، لكن بعضهم الآخر لا يطيقون رؤية مثل تلك الصدور. كما لا يوجد اتفاق أيضاً بشأن طول القامة ولون العينين والسن والرقبة والذراعين.

لكن الجميع كانوا يفضلون شيئاً واحداً تقريباً وهو أن تكون الفتيات شقراوات، وهنَّ اللواتي كانت أسعارهن ترتفع ارتفاعاً عالياً لا يستطيع دفعه إلاَّ الضباط من أصحاب الرتب أو، في الأغلب، الاستشهاديون الذين يحصلون على أعلى المرتبات وسط بقية الجنود، ويمكنهم بذلك الحصول على واحدة منهن.

تكون الأسعار عالية لدى عودة الحملة مباشرة، لكنها تنخفض في بعض الأحيان في اليوم التالي. ويحاول الجنود الذين يمضون ليلتهم مع الأسيرات الجديدات بيعهن أمام خيامهم نادمين لأنهم دفعوا فيهن مبلغاً كبيراً جداً. وبسبب الإرهاق والسأم، تراهم على استعداد لبيعهن بنصف الثمن. عندئذٍ يشتريهن التجار المحترفون، الذين أتقنوا اللعبة، بأعداد غفيرة، مدركين أن الليالي الحالكة والموحشة آتية عما قريب وسترتفع أسعارهن مرة أخرى.

لكن الأسعار تتذبذب تذبذباً كبيراً حتى بعد إشباع الحاجات الأولية. ففي بعض الأحيان ترتفع ارتفاعاً كبيراً، وهو ما حدث عندما

كانت الفتيات يمتن بسبب الإرهاق الواحدة فوق الأخرى حتى قبل أن يخرجن من خيام الجنود، أو عندما يفقدن عقولهن.

شعر طُز أوكشتان لدى دخوله المعسكر مجدداً بوخزة ندم في قلبه وهو يتذكر أنه لن يتمكن من المشاركة في تجارة الفتيات الأسيرات مشاركة مثيرة. كان أفراد فيلق الانكشارية لا يُسمَح لهم بامتلاك الفتيات. فحاول أن يعزي نفسه بفكرة مفادها أنه نظراً إلى تواضع مرتبه بوصفه جديداً، فإنه لن يتمكن من شراء أي فتاة. وفكّر في نفسه أنه يستطيع، بالرغم من ذلك، أن يدبر أمره إذا ما أراد أن يشارك رفيقاً أو رفيقين، إذ قيل له إن تلك من الممارسات الشائعة.

سار على رسله وسط الخيام، فيما مرَّ أمامه غيره من الانكشارية وقد لاحت على وجوههم أمارات السرور، لأن ذلك اليوم هو يوم توزيع المرتبات. وفيما هو يدخل خيمة ضابط الميرة في وحدته، أجرى في ذهنه عملية حسابية ليحسب بها عدد الأشهر التي يحتاج إليها لتوفير مئتي جديد، علماً أن مرتبه الشهري هو خمسة وأربعون جديداً، وهو نصف ثمن أي فتاة ذات ملامح اعتيادية، وثلث ثمن أي فتاة شقراء.

كما تذبذبت قيمة الفتاة تذبذباً كبيراً في ذهن طُز أوكشتان. ففي النهار، وعندما يذرع المكان بخطوات واسعة، كما هي حاله في هذا النهار، فكّر أنه من الجنون تماماً هدر مدخرات سنة كاملة على امرأة مستعملة لم تعد محافظة على نقائها الأصلي. لكنّ ثمة لياليَ خانقة، حارة يرى فيها أنه ليس على استعداد لصرف مرتب سنة كاملة، بل صرف مرتب حياته كلها لقاء ذلك. وتذكر أغنية تفتقر إلى الاحتشام سبق أن سمع أحد الانكشارية يغنيها.

في بعض الأحيان، تغلب عليه الذعر لمجرد التفكير أنه قد لا يحظى بفرصة مستقبلاً للاستمتاع بأي امرأة، وفي مثل هذه اللحظات

كان على استعداد لأن يهب لا مدخرات حياته كلها، بل سنوات عديدة من حياته للهروب من مثل هذا المصير.

أطلق تنهيدة عميقة، وحاول أن يشغل نفسه بفكرة أخرى.

لاحظ للمرة الثانية خلال أسبوع تنوراً جديداً للخبز أُقيم على دكَّة لا تبعد كثيراً عن الاستحكامات. ودفعه الفضول لرؤية عددٍ مضاعفٍ من الجنود الخفائر الذين يقومون على حراسته. في منطقتين أو ثلاث مناطق، ثمة علامات تمنع الوصول إليه. وقد سرت قبل أيام شائعة في أنحاء المعسكر مفادها أنَّ أحد عملاء العدو حاول تسميم العجين وهذا على ما يبدو هو السبب في إجراءات الحراسة المشددة. بالإضافة إلى ذلك، فلا بد من أنَّ ذلك التنور هو الذي يخبز فيه الخبز المخصص للضباط من ذوي الرتب الرفيعة، لهذا فمن الطبيعي جداً السهر على مراقبته بعناية خاصة.

سار بعيداً عنه عندما سمع صوت حوافر الجياد وراءه، فاستدار، ودهش عندما شاهد ضابطاً رفيعاً يرافقه ثلاثة ضباط آخرين وهم يخبّون صوب التنور، فتوقف لمراقبتهم، وفعل فعله عدد آخر من الجنود، وسرعان ما انضم آخرون إليهم.

همس أحدهم:

- إنه الباشا!

فتح طُز أوكشتان عينيه، فقد سمع الشيء الكثير عن القائد العام، إلاّ أنه لم يره من قبل. فوقف على أطراف أصابعه فيما ترددت الهمسات من كل جانب.

- إنه يبدو كئيباً!

- نعم، إنه كذلك.

- من الآخر الذي إلى يمينه؟

- لا أدري. أما الآخر الذي إلى شماله فهو علي بيه.

قال شخص ما:

- إنه المعماري.

- يا لرأسه غريب الشكل! وجهه يشبه البيضة.

- يبدو أنَّ نوبة من الصرع تنتابه بين الفينة والفينة.

- لكن ليس هناك من يدانيه في مجال عمله في جميع أرجاء السلطنة.

- لا أشك في ذلك، فالمصابون بالصرع إمَّا أغبياء أو عباقرة.

- لماذا يذهبون إلى التنور؟

- من أين لي أن أعرف السبب؟ هذا شأن الحكومة.

- يقول الناس إنَّ السم دُسَّ في العجين ويعتقد أن التحقيق قد بدأ.

- السم؟

- نعم. ألم تسمع بذلك؟ لا بد أنك في كوكب آخر. أصغِ إليَّ: السم مُؤذٍ بما فيه الكفاية، لكن هناك ما هو أسوأ منه على ما يبدو. فالفلكي لا يعمل بمشيئته.

- حسناً، حسناً. لقد تعقدت المؤامرة...

- هذا صحيح يا صديقي، ومَن يملك إيضاحها؟

قَدِمَ أحد الخفائر صوب مجموعة رفاق القيل والقال.

قال لهم بنبرة آمرة:

- تحركوا من هنا. التجمعات العامة محظورة في مثل هذه الأماكن.

فتفرق الجنود إلى مختلف الأماكن.

في هذه الأثناء اتجه الباشا وعلي بيه والمعماري إلى المخبز معاً،

وكان وراءهم مساعد المعسكر وأحد الحراس، فيما وقف حارسان آخران خارجاً للحراسة.

نـزل الباشـا إلـى القبـو وراء أحـد جنود الهندسـة العسـكرية، وكان هذا يحمل مشعلاً لينير الطريق. وسار وراءهما فريق البحث، ولكن لم يكـن هنـاك أي دقيـق أو عجيـن، إذ كان هـذا هو المدخل السـري للممر التحت أرضي. أما المخبز فقد شُيّد فوقه بهدف التمويه. كانت المدخنة تبعث الدخان ليلاً ونهاراً، لكن لم يكن هناك أي خبز يخبز، كما دخلت العربات ذات الحمولات المغطاة بالجنفاص وخرجت من الباب الرئيس مـن دون أي عوائـق. كان الجميـع يعتقـدون أنهـا محملة بأكياس الدقيق، واللبيب وحده هو الذي يمكنه أن يدرك أنها فارغة عند دخولها ومعبأة لدى عودتها. ما كانت تحمله أثقل من الخبز بكثير: أكياس لا تعد ولا تحصـى مـن التـراب مـن الحفـر تحـت الأرض وكانت تنقـل إلى منطقة أنقاض وراء غابة بعيدة.

دخلـت مجموعـة إلـى النفـق، وكانـت قد وضعت ممـرات للتهوِئة في مناطق خفية على سـطح التربة داخل خيام قيد الحراسـة على مدار السـاعة، لكنها كانت قليلة ومتباعدة، لهذا كان الهواء داخل النفق ثقيلاً وكريهاً. وفيما هم يتقدمون، وجد الباشا صعوبة شديدة في التنفس، لكنه اسـتمر في سـيره وهو يفتش المكان بالرغم من ذلك. كانت هناك دلاء فيها رماد مشـبع بالزيت منتشـرة في أماكن متفرقة ومتباعدة توفر إضاءة ضعيفة. بين الفينة والفينة، كانوا يجتازون الممر الذي يسير فيه الرجال وهم يدفعون أمامهم عربات مملوءة بالتراب.

بدا الباشا مثل شبح تحت الضوء الباهت.

تلفظ المعماري بنبرة رتيبة:

- إلى هنا دعامات. ومن هنا بلا دعامات.

ترجم مساعد آمر المعسكر ما قاله:

- يقول إننا يجب ألاّ نمضي أبعد من هذا المكان لأن الحفر ينتهي هنا.

توقفوا.

نظر الباشا إلى الأعلى صوب الأوتاد العريضة الرطبة. كان في وسعه هو والآخرون سماع أصوات مكتومة لمعاول ومجارف على مسافة تبعد بضع عشرات من الخطوات إلى الأمام في الظلام. وهنا أخرج المعماري خارطة من حقيبته، وقرَّب الحارس مشعلاً منه فبدأ جاور يشرح فيما بدأ مساعد آمر المعسكر بالترجمة الفورية.

- يقول إن النقطة التي نقف عندها الآن تبعد خمساً وعشرين خطوة عن السور الخارجي، والرجال الذين يحفرون الآن يبعدون بما لا يزيد عن سبع خطوات عن السور، وسيصلون هذه الليلة إلى الأسس.

وضع المعماري علامة على خارطته بالقرب من الخط الذي يمثل السور.

لاحظ الباشا أن النفق ينحدر من هذه النقطة انحداراً شديداً إلى الأسفل. وكان الانحدار من الشدة بحيث يتطلب من الرجال الصاعدين إلى الأعلى والهابطين إلى الأسفل التعلق بحبال مثبتة بالجدران الجانبية. وكان في الإمكان رؤية ضوء المشاعل في الأسفل وكأنها في قعر بئر، لكن الغبار كان يغلفها، فيجعل الرجال يبدون مثل أشباح تنتجها في بعض الأحيان عواصف مصحوبة بريح شديدة.

استطرد المعماري جاور في كلامه الرتيب.

وواصل المساعد الترجمة:

- ما يقوله هو إن المنحدر اضطراري للسماح للنفق بالمرور من تحت أسس القلعة مع ترك فسحة توازي على الأقل نصف ارتفاعها. وبتلك الطريقة سنضطر إلى هدم قنطرة واحدة من الجزء المدفون من

السور.

كان الباشا لا يزال يرمق الظلال البشرية، وكان الغبار كثيفاً بشكل تجعلك الحفرة تفكّر في أنها بوابة من بوابات الجحيم.

سأل الباشا:

- منذ متى وهم يشتغلون من دون استراحة يقضونها في الهواء الطلق؟

لم يُجب علي بيه إجابة مباشرة:

- باستثناء جنود الهندسة العسكرية، فإن بقية الرجال جميعهم محكوم عليهم، وهكذا...

فقاطعه الباشا:

- فهمتُ.

انبعثت رائحة لاذعة بنفحات من نهاية النفق.

سأل الباشا مكشراً:

- ما هذه الرائحة؟

أوضح المعماري:

- إنها رائحة المحلول الملحي المشبع الذي نسكبه على الأسس لتفتيت الملاط.

ثم أشار المعماري إلى نقطة أخرى على الخارطة لم يستطع الباشا رؤيتها بوضوح وسط الدخان الذي كان يُغشي بصره. لوّح بيده، فما كان من حامل المشعل إلاَّ أن نحَّى مشعله جانباً.

شرح مساعد آمر المعسكر:

- عندما نصل إلى منطقة الأسس، فإن الممر المنحدر سيستعيد مستواه الطبيعي فيصل إلى السطح عند النقطة التي حددناها للظهور إلى العراء.

سأل علي بيه:

- كيف ستتمكن من إخفاء ضجيج المعاول؟

ردَّ المعماري ردّاً مباشراً:

- سيتم الحفر في الجانب الآخر من الأسس عن طريق جرف التربة.

لاحظ الباشا:

- سيكون ذلك عملاً يستغرق وقتاً طويلاً.

- إنه يقول: هذه هي الطريقة الوحيدة للمضي قُدُماً من دون الكشف عن أنفسنا.

سأل الباشا باقتضاب:

- كم يوماً؟

أجاب المعماري:

- اثنا عشر يوماً.

كي تكتمل الصورة، أشار إلى أحد سجون القلعة حيث سيكون فيه مخرج النفق، أوضح كيفية خروج الجنود منه في وقت قصير، ويتعين عليهم أن يكونوا قادرين على الدفاع عن مدخل النفق إلى أن تكون مئات من الجنود الآخرين قد اندفعوا وراءهم حتى لو اكتشف المحاصرون أمر النفق وهم على عتبة الموت وأطلقوا إشارة الإنذار.

عاد الباشا صوب المدخل وخلفه حاشيته. كان الغسق قد أرخى سدوله عندما خرجوا، وكانت تلوح في عيني الباشا نظرة حالمة عندما قطع المعسكر ليعود إلى فسطاطه. عند مروره، وقف الضباط والجنود ساكنين، عيونهم ثابتة. لم يكن الباشا ليخرج من فسطاطه أو يتجول في أرجاء المعسكر إلاَّ في حالات نادرة. ولم يكن لدى معظم الرجال، بمن فيهم بعض الضباط، أي فرصة لمشاهدته من قبل.

كانت صورة النفق المملوء بالغبار لا تزال عالقة في ذهنه لـمَّا رجع إلى خيمته. لقد كان العالم حقاً أشبه بمبنى من ثلاثة طوابق، يعيش الرجال على الأرض في الطابق الأوسط يظنون مخطئين أن لديهم معلومات عن أشياء أو حتى سلطة ما عليها. الحق أنَّ كل شيء كان يُقرر في الطابق العلوي في حين تكمن الأسرار في حالة مزرية تحت الأرض. الأمر سيَّان. لا يزال يفكر تفكيراً واهياً في أن الموتى سيساعدونهم على حفر نفقهم حتى يصلوا باطن القلعة.

بعد أن أصبح الباشا داخل خيمته فوق الأريكة، وشرع يتصفح تقارير اليوم تصفحاً سريعاً، وكانت تقارير عديدة، ومختلفة. جاء تقرير مدير الشرطة السرية اليومي مع بيان من إحدى الدوريات عن مشاجرة تافهة بين اثنين من أمراء الأَلوِية جرت قبل يوم. هناك تقارير أخرى تعالج قضايا أقل أهمية: طلب من القاضي للحكم بالإعدام على اثنين من مسؤولي الميرة صادرا مرتبات الجنود الموتى (ولم يكلف نفسه عناء قراءة كل التقرير، إلاَّ أنه اكتفى بإبداء ملاحظة تفيد أن التقرير موقّع في أسفله من قبل ضابط الميرة العام). هناك أربعة أحكام بسبب عدم طاعة الرؤساء، وأحكام أخرى أقل قسوة على جنود وضباط في مختلف الفيالق طالب بإنزالها آمر المعسكر تحت ذرائع مختلفة، معظمها يتعلّق بالاشتباك بالأيدي والتصرف غير اللائق. بسرعة وقّع بالحروف الأولى من اسمه ثم أضاف في الحاشية يرسلون إلى النفق. انتابه شعور عام بنشوة الأقوياء على الأرض الذين يستطيعون إرسال رجل آخر إلى الهاوية. لم يوقفه الشعور بأن مصيره مرهون بأيدي الآخرين، بل على العكس من ذلك، منح رأيه زخماً جديداً. لقد عرف منذ زمن طويل أن العالم ليس سوى سلطة هرمية، وأن الخاسر سيكون دوماً هو ذلك الرجل الذي يتخلى عن ممارسة سلطته قبل غيره.

نحَّى جانباً التقريرين الطويلين كي يقرأهما قراءة متأنية. كان التقرير

الأول من ضابط الميرة بخصوص حالة الاحتياطيات من الغذاء والماء. أما التقرير الثاني فكان عن عمل علي بيه، ويعطي صورة عن معنويات الجنود، وكان تقريراً مفصلاً، يرتكز على معلومات مختلفة متنوعة قدمها مرؤوسو تابدوك بابا. كان التقرير يحوي إضافة إلى ملاحظات علي بيه واستنتاجاته عشرات التفاصيل عن الأحداث اليومية ومقاطع من محادثات تم الحصول عليها من الجنود تؤكد آراء علي بيه. كانت تضم أيضاً ملحقاً مع كلمات أغانٍ تناهت إلى الأسماع مؤخراً في المعسكر. فيما هو ينظر نظرة خاطفة إلى التقرير، رأى أن هذا التكرار الذي لا نهاية له للنشاطات اليومية العادية والأحاديث التي تعبر عن موقف امتعاض وهمّة باردة لا يتناسب تماماً والخطوط والقوانين والرتب والبيارق والأبواق وكل ما أسس هيبة الحرب. كان ذلك أشبه برطوبة بارزة، تنتشر في جيشه العظيم وتفسده. بالرغم من أنَّ علي بيه كتبه كتابة غير مباشرة، وفيه الشيء الكثير من اللف والدوران، فإن الحالة واضحة. فقد علمته تجربته في القيادة أن مثل هذه العقلية تبرز في أثناء أي حصار في نهاية المطاف إذا ما تُرك الرجال بلا عمل يؤدونه. كانت القلعة المحاصرة تشمخ فوق معسكره الضخم كل يوم، رجاله يشاهدونها عند إطلاق بوق الاستيقاظ صباح كل يوم، تماماً مثلما يشاهدون الغسق كل مساء. كان يعرف أنها شديدة الوطأة على أنفسهم، وكان يعرف أيضاً أن القلوب الضعيفة يمكن في مثل هذه الظروف أن تسترد قوتها بابتكار أخطار متخيلة، بإجراء تحقيقات سرية مزعومة (كالتحقيق الذي يستهدف الفلكي الذي جعل كل فرد يحاول أن يخمن مصير الرجل)، وذلك بعقد محاكمات، وتنفيذ أحكام إعدام مثيرة، أو بالتعجيل بإثارة الخلافات وسط القادة، وهو أمر عهده من قبل معظم الجنود والضباط. المؤكد أن في وسعه إجراء كل هذه الأمور، وهو كان قادراً على إجرائها لو لم يكن هناك في أعماق الأرض أساس كل آماله؛ النفق الممتد إلى الأمام كل يوم. إنَّ نصراً خاطفاً في ليلة هادئة،

من دون سفك الكثير من الدماء أو الجهد، سيكون ذا قيمة مضاعفة في ظل حالة الإشفاق السائدة الآن، بعد أن أصبح الجزء الأكبر من جيشه معرضاً لتغلغل مرض خبيث ألا وهو الإعياء من الحرب.

تصفّح تقرير علي بيه تصفحاً سريعاً مرة أخرى، وتوقف لقراءة فقرات تستشهد بمحادثات الجنود استشهاداً حرفياً. سمع هديراً بعيداً يرتفع وكأنه موجة بحرية من وسط آلاف الخيام يتردد في أذنه. كان عهده ألاَّ يتحدث إلى رجاله. وقد راقب في أثناء سيرهم المنهك الكتائب الواحدة تلو الأخرى وهي تمر أمامه يحمل كل فرد منها أعباءً ثقيلة على ظهره، يغطيه تراب قارتين، لكنه لم يكلّف نفسه عناء طرح سؤال على نفسه عما يكمن داخل هذه الجماجم الحليقة المتماثلة التي يصعب تمييز إحداها عن الأخرى. كان ميالاً إلى التفكير في أنّه لا يوجد أي شيء هناك سوى حفنة من رماد، وربما بضعة أسماء، لأم، لأب، لأسرة، باستثناء الانكشارية الذين لم يكن مسموحاً لهم بمثل هذه الأشياء... على كل حال، في اليوم الأول من الهجوم، وعندما كان يراقب الرجال وهم يتسلقون الاستحكامات، ويتقاطر من ظهورهم القار والرماد، شعر للمرة الأولى في حياته بحب الفضول لمعرفة ما يدور في عقولهم. كان تابدوك بابا قد قال له عندما استدعاه ليوكل إليه هذه المهمة: «إنك قائد عظيم». لم يسبق لأي باشا أن كلَّف نفسه عناء معرفة ما يدور في ذهن رجاله. لعل ذلك هو السبب الرئيس الذي جعلهم كلهم يلقون حتفهم في نهاية المطاف.

الآن في وسعه أن يسمع تذمرهم. وتذكر ذلك الصيف الطويل الذي مضى عندما شاهد البحر للمرة الأولى في حياته. إنَّ هذه ضوضاء البحر باستثناء أنَّ الموج يصدر صوتاً مخيفاً لكنه كان جميلاً. لو أن هذا الصوت استمر وقتاً طويلاً، فإن جيشاً لا تشوبه شائبة سيفقد إرادته ويتمزق إرباً إرباً.

كان لا يزال مستغرقاً في التفكير، لا يدري هل يفعل شيئاً الآن أم ينتظر اكتمال النفق، عندما جاءه حاجب ليخبره أن الطبيب سيري سالم يرغب في مقابلته لأمر عاجل.

رأى الباشا أن هذه الزيارة غريبة في هذا الوقت المتأخر من الليل. فوضع التقرير جانباً، وانتظر دخول الطبيب.

دخل الطبيب العالم بالأوبئة وانحنى مرتين لا لأنه فارع الطول ولا يمكنه دخول الخيمة معتدل القامة وحسب، بل لأن تلك عادة متأصلة من عادات المداهنة والتزلف.

قال الطبيب بنبرة متوسطة تتناقض تناقضاً غريباً مع ذلك الجسم الفارع الرشيق الذي لم يتمكن من جعله يعتدل تحت الخيمة:

- معذرة أيها الباشا لإزعاجك في مثل هذه الساعة.

أجاب الباشا:

- في الحقيقة، إنّ الوقت متأخر تماماً. ما خطبك؟

أجاب الطبيب:

- هناك أمر عاجل لا بدّ لي من إطلاعك عليه.

التقت عيناه بعيني الباشا المتسائلتين، ورفع يده، وأشار بسبابته صوب باب الخيمة، وبعد هنيهة سأل:

- أيمكنك سماعه؟

هتف الباشا وهو يمط شفتيه:

- ماذا؟

- النباح.

أومأ الباشا برأسه.

- هذا ما جئت من أجله.

تجهم وجه الباشا وكأنه فكّر في أنَّ ما قاله الطبيب نكتة سخيفة

دفعته إلى الحضور في هذا الوقت المتأخر من الليل. فكّر في نفسه أن هذا الرجل طويل القامة أكثر مما ينبغي ولا أستطيع إبعاده إلى الأسفل نحو النفق، فقد سبق أن قال له علي بيه إن جنود الهندسة العسكرية ليسوا وحدهم الذين تسللوا إلى أسفل القلعة بل ومعهم الانكشارية أيضاً وذلك بسبب قصر قاماتهم.

لما رأى الطبيب أن صبر الباشا قصير، كما هو شأن كل قائد عظيم، بادر موضحاً:

- في ليلة أول أمس حفر الكلاب، التي يمكنك سماع صوت نباحها وعوائها حتى من هذا المكان، في أحد القبور الجماعية التي دُفن فيها موتانا.

كشَّر الباشا، لكن الطبيب استطرد:

- لقد مزَّقت الجثث، وقطَّعت أوصالها وربما سينتشر وباءٌ جراء ذلك.

علت سحنة الباشا أمارات هلع لدى سماعه كلمة وباء.

- إنَّ رجال الهندسة العسكرية لم يؤدوا واجبهم وفقاً لما يمليه عليهم الضمير يا مولاي. فقد حفروا القبور بسرعة، وعندما ذهبت لتفتيشها قبل قليل لاحظت أن التراب يغطي الجثث في بعض المناطق بما هو أقل من قدم واحدة.

صبَّ الباشا لعناته بصوت خفيض، ثم صفّق يديه.

فظهر أمام باب الخيمة حاجب.

- اطلب لي أُولوغ بيه! أريده هنا حالاً!

اختفى الحاجب، فيما أمسك الباشا عن الكلام لبرهة وجيزة، وبقي الطبيب واقفاً وكأنه مُسمَّرٌ بالأرض، فيما تناهت إلى الأسماع من مسافة بعيدة إلى جهة الشمال أصوات ضجيج زادت حدتها مع نباح الكلاب.

لاحظ طُرسُن باشا:

- كانت الكلاب تنبح طوال ليلة أمس أيضاً.

- نعم يا حضرة الباشا، لقد كانت تنبح، لكن ما من أحد يعرف السبب، لقد أخبرني أحد رجالي هذا المساء بالخبر وكان قد أخبره به أحد سائقي العربات وقت العصر.

ران الصمت في الخيمة مجدداً، وبدا صوت النباح لكليهما وقد أخذ يدنو منهما. ثم سمعا صوت وقع قدمي رجل يعدو، واندفع داخل الخيمة قائد الهندسة العسكرية أُولوغ بيه متقطع الأنفاس. وقبل أن يُنهي انحناءته إلى الأسفل، حسب مقتضيات الأوامر، هتف الباشا:

- هل تسمعها؟ هل تسمع أيها الرجل التعس؟

لم يستطع أُولوغ بيه أن يقول شيئاً.

استطرد الباشا بنبرة تقشعرّ لها الأبدان:

- الكلاب تنبش موتانا!

شحب وجه أُولوغ، وأدرك كل شيء.

- إنَّ أبطالنا يُضحُّون بحياتهم في سبيل أمجاد العثمانيين في حين أنك لا تهتم حتى بوضع مجرفة تراب فوق جثثهم!

كان لصوت القائد العام الذي تجشأ قليلاً وقعٌ لا يرحم على أُولوغ بيه. واستطرد الباشا وهو يصفه بالكلب ويشير على نحو خفي أن رجال الهندسة العسكرية تعمدوا ترك القبور على تلك الحال المثيرة للأسى ليوفروا الطعام لأشباههم من الكلاب. لكن أُولوغ لم يشعر بالإهانة، وفكّر في نفسه: إنني أستحق ما وقع لي. أو: ليحفظني الله. كان يود أن يهينه الباشا إهانة أشد وأقسى، أن يصفه بأنه ابن آوى أو ضبع، أو حتى يجلده؛ أي شيء يوقف نباح الكلاب الرهيب.

عندما تضاءل القَدح، وأصبح في الإمكان سماع العواء على نحو أعلى وأوضح، وكأنه صادر من وراء الخيمة تماماً، فكّر أُولوغ بيه في

أن نهايته باتت وشيكة. وشعر بدافع قوي يدفعه إلى أن يستلقي أمام الباشا أو أي شخص آخر كي يوضح بأنه لمَّا كان محصوراً ليلاً ونهاراً في النفق مع رجال الهندسة العسكرية، فقد اضطُر إلى أن يبدي اهتماماً أقل بمسؤولياته الأُخرى. لكن بما أن الندم شلَّه، فإنه لم يفعل أياً من هذين الأمرين، بل اكتفى بخفض عينيه والانتظار. لعل خلاصه يكمن في ذلك الوضع الذي اتخذه.

- إذا لم تتم تغطية القبور بأربع أذرع من التراب بحلول صباح يوم غدٍ، فسأدفنك حياً. انصرف!

انحنى أُولوغ بيه وانصرف، وكان يمكن سماع صوت وقع قدميه حتى وإن كنت في داخل الخيمة، إذ كانت خطوات سريعة بادئ الأمر، ثم تحولت إلى عدو.

عندما تلاشى صوت وقع قدمي أُولوغ بيه بعد مسافة بعيدة، سأل الباشا:

- هل هناك خطر حقاً من الوباء يا سيد سالم؟

ردَّ الطبيب بنبرة مدروسة:

- لا، ليس الآن أيها الباشا.

هنا، شاهد ومضة ازدراء في عيني الباشا، وخشي من احتمال الشكوك من حوله لإثارته ذعراً لا أساس له، لهذا أسرع قائلاً:

- لا. لا يزال أمامنا وقت هذا المساء، ولو انتظرنا حتى الغد، فربما يفوت الأوان.

خفض الباشا ناظريه، فيما استأذن سالم، وانحنى وانصرف.

بقي الباشا واقفاً معقود الذراعين. النباح والعواء لا يزالان يُسمعان على نحو متقطع من الاتجاه نفسه. أصغى بكل جوارحه، وحدَّق إلى نقطة معينة على السجادة. عندما توقف فجأة نباح الكلاب أدرك أنَّ أُولوغ بيه ورجاله وصلوا القبور، فتنهد تنهيدة تنم عن الارتياح. اضطجع واتكأ

علـى الأريكـة مغمـض العينيـن تقريباً، وجال ذهنه المنهك في المعسـكر الهائـل. لـم يتسـكع أمـام الخيـام المختلفـة، بل اقتفى أثـر المغاوير وهم يسـيرون وسـط هـذه التـلال القريبـة، ثـم عاد إلى جنـود الخفائر، وألقى نظـرة سـريعة علـى امتـداد الاسـتحكامات ليعود بعدهـا إلى الخيمة ذات اللون الأرجواني، ثم حطَّ مرة أخرى عند الكلاب والقبور، تردد لحظة أمـام المدخـل الظليـل المـؤدي إلى الفتاة الشـقراء، لكنه غضَّ النظر عن كل شـيء فجـأة، وذهـب تحـت الأرض، وبـدأ يزحـف مـن دون أن يراه أحد على امتداد النفق المظلم الرطب قيد الإنشاء. واستسلم للنوم. سار حاجـب علـى رؤوس أصابعـه نحـوه وغطاه بعباءة ناعمة وهو ينظر نظرة طويلة تنم عن احترام مهيب إلى وجه سيده المنهك المتغضن.

* * *

بدأنا ندرك مغزى الثياب المزركشة بالورود التي كان الجنود يتباهون بها، ونفهم ما الذي تخفيه مناورة الصمت التي التزمها الأتراك. فالملابس ولعب الأطفال وغيرها ليست سوى علامة على غارة وشيكة يشنها المغاوير. من الطبيعي أن يكون الجنود على أهبة الاستعداد لشراء الفتيات الأسيرات. أما بخصوص الهدوء، فهو مقدمة للموت.

كانت شكوكنا الأولى قد أثارها بناء ما يفترض أن يكون تنوراً لإعداد الخبز على مقربة شديدة من استحكاماتنا. فراقبناه مراقبة مستمرة. وكنا نشاهد العربات تدخل من دون انقطاع، وكان الدخان يتصاعد من المدخنة. كان في وسع العيون المدربة أن تلاحظ أن العربات كانت تدخل فارغة بالرغم من سرعتها البطيئة، أما العربات التي كانت تخرج فهي مملوءة. وكانت ملاحظة خبازينا لكتل الدخان، وبخاصة في الفترة الزمنية بين ازدياد الدخان المرافق لإشعال التنور وقلته مرة أخرى عندما تبدأ عملية الخبز، قد جعلتهم يعتقدون أن ما من تنور في العالم يعمل بهذه الطريقة. لهذا يبدو واضحاً أن العربات لا تأتي بأي دقيق وأن التنور لا يخبز أي خبز. لكن عندما تغادر العربات التنور تكون محملة. محملة بماذا؟ لا يمكن أن تكون محملة إلا بالتراب.

لا بد من أن الأتراك يحفرون ممراً تحت الأرض. هذا أكيد. إنها استراتيجية غالباً ما يلجأون إليها في حالات الحصار. لهذا لم نُضيِّع الوقت، وهبطنا إلى الأسفل للتحقق من سجوننا وأقبيتنا، ووضعنا مراقبين في كل زاوية، واستلقوا على الأرض، يتنصتون على امتداد الليالي من دون توقف. وأهلك المرض الكثيرين، ثم تذكرنا أن الأوعية المصنوعة من البرونز تضخِّم الصوت الصادر من تحت الأرض، وبهذا يستطيع رجالنا أن يبقوا آذانهم صاغية لليالٍ طويلة أخرى. في بعض الأحيان، كان الإرهاق من شدة التركيز يجعلهم يسمعون صوت طرق. لكننا عرفنا أخيراً من تحت سور القلعة. وهم يحفرون، أو يقضمون التربة قضماً رقيقاً

وبشيء من الصعوبة. كانوا أشبه بحيوان يحك نفسه باستمرار تحت الأرض.

كان حراسنا الذين استلقوا على البلاط البارد، وآذانهم على الأرض، يتابعون تقدم العدو خطوة بخطوة. إن الأتراك يحفرون بحذر شديد حتى وكأن في وسعهم أن يتبخروا. لكنهم لا يزالون هناك. لقد شطروا النفق شطرين كأنه أفعى برأسين، وهم ينزلقون إلى الأمام من تحت أقدامنا. إننا نصغي بكل قوة حتى بات الطنين مستمراً في آذاننا.



الفصل الأوسط

رجع المغاوير إذ كان في وسعنا سماع قرع طبولهم، واستفاق المعسكر من حالة النعاس، ودبَّت فيه الحياة من جديد، واندفع الجنود من خيامهم ينادون رفاقهم الذين كانوا لا يزالون مضطجعين. كان الذين اندفعوا أسرع من غيرهم هم الذين كانوا قد عقدوا الصفقات مع المغاوير للحصول على امرأة أو غنيمة أخرى. أمسك البعض بثياب مزركشة اشتروها من سوق المعسكر آملين تزيين أسيراتهم بها. فيما كان طُز أوكشتان يسير وسط هذه الحشود، شعر بالندم لأنه لم يعقد صفقة، إذ ظَنَّ آنذاك أن الصفقة سابقةٌ لأوانها وأنها قد تجلب سوء الطالع، لكنه الآن يشعر بالتوتر إذ قد لا تبقى أسيرة ليشتريها. عندما كان قد شاهد الطابور العائد من بعيد فكّر مرتين أو ثلاث مرات بالاندفاع صوب أكشاك السوق، لكنه امتنع خشية أن يتأخر ويضيع منه المغوار الذي وعده أن يبيعه امرأة من العبيد.

هاج الحشد وماج، وضحك الجنود ومرحوا وسبُّوا وشتموا ورووا النكات البذيئة. مرَّ المخصيُّ الأسود حسنٌ حاملاً دورقاً فارغاً بكل يد. ولكز الجنود بعضهم بعضاً، وغمزوا، وهم يشيرون إلى الدورقين.

- سيملأ الدورقين بالماء لهنَّ.

- لهنَّ؟

- نعم، هذا مؤكد. ألا ترون الدورقين؟

- الفتيات شهوانيات! وهن بحاجة إلى أن يكبحن شهوتهن.

- إذاً، الفتيات المسكينات شهوانيات. أليس كذلك؟ وماذا عنَّا نحن؟ ألسنا نغلي أيضاً؟

- يمكننا أن نصهر الفولاذ بأسرع مما يصهره ساروجا!

- صه! وإلاَّ سمعك أحدهم!

سار المخصيُّ بخطوات واسعة وسط الجنود، مزدرياً ومترفعاً، ولبرهة وجيزة من الزمان لاحقت أعينهم المتقدة رجلاً ذكَّرهم على نحو غريب بأسرار المساء. غالباً ما كانت أعين الرجال تومض وركبهم تَهِن لدى رؤيتهم إياه، لكن رغبتهم هذا الصباح في رؤية المغاوير وهم راجعون كانت عظيمة جداً حتى إنهم لم يُعيروا المخصيَّ أي اهتمام.

دخلت الطوابير الأولى الآن إلى المعسكر. وكان رأس كورديسجي الكبير المحمر كالشعلة يهتز من غلبة النعاس، على إيقاع خطو الجواد. بينما هو يجتاز الحشد وإلى جانبه حاشيته، هتف الرجال هتافات الاستحسان والإعجاب، لكن عينيه ظلتا نصف مغمضتين وقاد جواده، من دون أن يتوقف أو يعبِّر عن شكره للتحيات، صوب خيمة القائد العام مباشرة وترجَّل ودخل.

فيما امتزجت الطوابير الطويلة من المغاوير الذين علاهم الغبار الأبيض امتزاجاً بطيئاً كنهر مرهق بكتلة المشاة والانكشارية وغيرهم من الجنود، طقطق طُرسُن باشا براجمه في خيمته وهو يصغي إلى تقرير كورديسجي الموجز إصغاءً متشامخاً.

عندما فرغ الجندي من الكلام سأله:

- أهذا كل شيء؟

- نعم، هذا كل شيء.

تنهد الباشا تنهيدة عميقة وهو يسعى جاهداً ألاَّ ينظر إلى الجرح الذي لم يتماثل إلى الشفاء تماثلاً تاماً عند زاوية فم كورديسجي. وبصق على الأرض. أما كورديسجي نفسه فرفع يده ليمسح ذلك الجزء من فمه وكأنه أدرك ما يدور في ذهن قائده.

- خائن! كلب! وغد! غبي!

أمسك كورديسجي عن الكلام وراوده شك عميق في أن قائده سيعدمه إن كان يملك حقوقاً عليه. لكن بالرغم من عدم وجود ما هو مدوَّن بهذا الخصوص، فقد كان يدرك أن الباشا ليس لديه أي حق في وضع أصبعه عليه تماماً مثلما لم يتمكن من تأديب تافجا العجوز أو المفتي أو علي بيه.

على كل حال، كان مدركاً بالدرجة نفسها أنه إذا ما رَدَّ، فإن الباشا ستثور ثائرته، وسيطلب رأس كورديسجي من موقع عالٍ، مما يؤدي إلى النتيجة نفسها.

في غضون ذلك، كان المغاوير المنهكون بعمائمهم الممزقة والوسخة (إذ لجأ العديد من الجنود إلى قطع أجزاء منها لتضميد جروحهم) قد بدأوا يترجلون عن صهوات جيادهم في شارع المعسكر الرئيس ويتجهون سيراً على أقدامهم نحو رفاقهم أو نحو خيامهم من دون أن ينبسوا بكلمة. ذُهل طُز أوكشتان وهو يراقب الوحدات تصل واحدة إثر الأخرى. كان يحاول العثور على الشعر الأسود الأشعث لذلك الرجل الذي عقد صفقة معه. ورأى أن عدداً كبيراً من الناس كانوا قد فقدوا صبرهم مثله تماماً.

سأل أحدهم من الخلف:

- إذاً، أين الأسيرات؟

- من المؤكد أنهن في طريقهن إلينا.

فجأة شاهد جلبي، فصاح من فرط سعادته:

- يا مولى! يا مولى!

ارتسمت على وجه موثِّق الحملة الكئيب ابتسامة، فمدَّ الانكشاري يده لمساعدته كي يترجَّل عن صهوة جواده.

سأل:

- أأنت مريض؟

- لا، بل منهك.

- يمكنني ملاحظة ذلك.

تناهى إلى الأسماع من ورائهما صوت يسأل بقلق عن أخبار تخص شخصاً يدعى أُولون. عرف مولى الشاب الوسيم الذي كان يرتدي بزَّة جنود الهندسة العسكرية. فهمس أحد المغاوير بعينين تائهتين أخباراً مزعجة في أذنه، فوضع الجندي رأسه بين يديه.

سأل الانكشاري:

- هل هناك عدد كبير من القتلى؟

رمقه جلبي بنظرة غاضبة وأَجاب بوهن:

- لا تسأل!

يبدو واضحاً أنَّ عدداً كبيراً من المنتظرين كانوا قد طرحوا السؤال نفسه لأن همهمة الفرح وسط الجموع انقلبت رويداً رويداً إلى جلبة صاخبة.

وسأل الانكشاري:

- هل اشتبكتم مع إسكندر بِك؟

- ربما.

- ماذا تعني بكلمة ربما؟

- حدثت مناوشات، وبخاصة في أثناء الليل.

كان جلبي يحدق في صديقه وكأنه يراه للمرة الأولى. أما الانكشاري، فساوره الظن للحظة أن موثِّق الحملة فقد عقله.

- ربما يا طُز أوكشتان، كما أشرتُ، فهذا ما يحدث ليلاً. ثم أنّى لك أن تعرف هوية من يهاجمك في الظلمة؟

- غريب. هل أحضرتهم أي أسيرات؟

ابتسم موثِّق الحملة ابتسامة لاذعة.

- زهاء دزينتين.

- قليل جداً!

- بل كثير جداً كما أظن.

فكّر طُز أوكشتان في أنه أحسن صنعاً إذ لم يشترِ ثوباً في عجالة من أمره. وقف عدد من الرجال في الجوار منكسري الخاطر، مطرقين أسفاً وهم يعبثون بزينة لا يدرون بعد الآن ما يفعلون بها.

صاح أحدهم:

- الأسيرات! ها هن قادمات!

تدافع الناس للمشاهدة، وصاحت أصوات:

- ها هنَّ!

كُنَّ مقيدات، كل مجموعة من أربع أو خمس أسيرات، ثيابهن ملطخة بالطين، وكذلك شعرهنّ.

علت ضجَّة من جميع الأرجاء: أقسم إنهنَّ انتهكن! لقد اغتصبت الفتيات المسكينات! لماذا؟ هل كنت تظن أنهنَّ سينتظرن قدومك كي تخدمهن؟ انظروا! ها هي شقراء! ثم انظروا إلى هذه الأخرى. يا لها من فاتنة! ذات شعر أحمر كالفتيات اللواتي يهواهن السلطان. لكن وا أسفاه! لقد اغتصبت. ثم ماذا؟ لا يزال عش السنونو موجوداً. انظروا أنا على استعداد لدفع ثلاثمئة جديد ثمناً لها. انظروا إلى تلك الواقفة هناك! إنها تضحك، لا بد من أنها جُنّت. يا للمسكينة. على كل حال، لقد قمتم بعمل رائع أيها المغاوير! يمكنك معرفة الصياد من صيده.

انضم رجال كثيرون إلى الجموع، بعضهم يلوحون بمَحافظ منتفخة تحت أنوف الفتيات، وبعضهم الآخر تلفظوا بألفاظ نابية، وصاحت أصوات: أفسحوا الطريق! لكن الجنود لم يتنحّوا جانباً، وبدا أكثرهم ثملين. فهذه هي المرة الأولى التي يشاهد كثيرون منهم فيها نساءً بلا نقاب على وجوههن، واستغربوا لأن الفتيات كنَّ مقيدات بسلاسل فيما

كانـت أعينهـن معروضـة مجانـاً للناظرين. ولو سـمح لهـؤلاء الجنود أن يلتقطوا عن الأرض حفنة من الزمرد لما كانت دهشـتهم أكبر من النظر إلـى هـؤلاء الفتيـات. ونـدَّت عن بعـض الفتيات صرخات صغيرة، وظنَّ الرجال أنهنَّ يضحكن، إلاَّ أنهنَّ كنَّ يجهشن بالبكاء، إلا إذا كان الأمر غير ذلك.

قال أحدهم وهو واقف وراء موثِّق الحملة إنَّ لتلك العيون سحرها المبين.

قال آخر:

- ارجعـوا إلـى الخلـف! أفسـحوا المجـال أيهـا الجنـود! سـتباع الأسـيرات فـي السـوق بحسـب الأعـراف. هـل هنَّ قليـلات؟ ألا توجد غيرهن؟

قـال جلبـي وهـو يشـعر أنـه أكثـر حُبـوراً لأنـه لا يـزال علـى قيـد الحياة:

- ليست هذه سوى قطرة ماء في صحراء رغبتنا غير المحتشمة.

قال أحدهم من مكان قريب:

- بعد ساعات قليلة سينتهي كل شيء ولن تبقى واحدة منهنّ بعد منتصف الليل.

استدار طُز أوكشتان، وسأل من دون تفكير:

- لماذا؟

أجاب أحد المشاة، وكان في خريف العمر:

- ماذا تعني بكلمة «لماذا؟»، هذا ما يحدث عادة عندما لا يكون هنـاك إلاَّ عـدد قليـل مـن الفتيـات. سيسـتمر العرض حتى المسـاء. وفي أفضل الأحوال، حتى منتصف الليل.

سأل طُز:

- أتظن أن كل واحد سيحصل على نصيبه؟

- هذا مؤكد. كما كان مألوفاً من قبل.

لاحظ طُز أوكشتان أن المخصيَّ يقف على مقربة منهم، وكان قد عاد من النهر، لكنه توقف لإلقاء نظرة على المغاوير، أو هكذا بدا على كل حال. كان قد وضع دورقيه المملوءين على الأرض، وشرع ينظر بعينين خائفتين إلى النساء الأسيرات وهنَّ في طريقهن إلى السوق. ودهش الانكشاري للرائحة العَطِرة المنبعثة من جسد المخصيِّ. أما موثِّق الحملة فقد التفت بدوره ليجيل الطرف عن مصدر هذه الرائحة الزكية حتى شعر بيد فوق كتفه.

قال شخص ما بلطف:

- أيها الأفندي!

استدار، فرأى أحد حجَّاب ضابط الميرة، وهمس في أذن جلبي بعض الكلمات مما دفع موثِّق الحملة لأن يلتفت إلى طُز أوكشتان. قال:

- أرجو المعذرة. هناك صديق ذو مكانة مرموقة يريد مني أن أذهب إلى خيمته، وسأرجع.

شعر جلبي بطاقة جديدة في خطوه وهو يسير صوب الخيمة حيث سيجلس بعد دقائق قليلة، غير مصدّقٍ، على أريكة ناعمة إلى جانب صديقه المهم ليحتسي شراب الرمان ويناقش بنشاط موضوعات سارة بعيداً عن خوف ليالي الجبال وثلوجها. في الحقيقة، إنه لم يكلِّم أحداً لبضعة أيام. كان لسانه ناشفاً، لكنّ الله سيعوضه عن كل تلك المعاناة. فعلى حين غرّة، بدا العالم المحيط به رائعاً أكثر من ذي قبل بدءاً بالأعشاب النامية تحت قدميه على هذا الجانب من الطريق وحتى دمدمة عربة وهي تطوي الطريق في مكان ما وراءه.

هتف ضابط الميرة وهو يرى جلبي يدخل خيمته:

- يا الله! لقد فقدت من وزنك!

لاحظ موثِّق الحملة المودَّة في عيني صديقه وشعر بالارتياح.

- اجلس. تبدو متوتّر الأعصاب. ربما ترغب في حمام؟

شعر جلبي أن وجهه تخضب بالدماء. لا بد من أن رائحة العرق تنبعث منه، ولا بد من أن الدفء المتدفق بفعل كلمات محدثه الرقيقة قد جعل الرائحة أشد.

فغمغم:

- ماذا أقول...؟ معذرة... لحضوري إلى هنا على هذه الصورة...

غير أن مُضيفه قاطعه:

- لا. بل اعذرني أنت لأنني أتيتُ بك إلى هنا قبل أن تأخذ قسطاً من الراحة. لقد أردت رؤيتك بأسرع ما أستطيع لأعرف كيف سارت الحملة. كما أنني قلقت عليك أيضاً.

اغتبط موثِّق الحملة:

- إن الصداقة التي تمنحني إياها أشبه بجوهرة في حياتي.

فابتسم ضابط الميرة واحدة من تلك الابتسامات الخاصة التي تجعل وجهه يشرق كلما أتى أحدٌ على ذكر المال أو الأحجار الكريمة.

قال لجلبي:

- اذهب واستحم! فالاستحمام سيطهر روحك أكثر مما يطهر بدنك.

نهض موثِّق الحملة واقفاً على قدميه، وأحنى رأسه وهو يتجه صوب عريف يحمل بُرنس حمام له. كان الحمَّام قد شيِّد على بقعة صغيرة، لكنه كان مزوداً بجميع اللوازم. شعر موثِّق الحملة أنه أصبح فوق القمر.

بعد أن استحم قَدَّمَ له العريف عصير الرمان وطبقاً كبيراً مسطحاً

من الحلوى، وشعر وكأن حلماً قد تحقق!

أخيراً، سأله ضابط الميرة:

- إذاً، كيف سارت الأمور هناك في الجبال؟

رفع موثِّق الحملة عينيه الكليلتين ونظر نظرة مباشـرة إلى صديقه قبل أن يجيب. لكن ضابط الميرة طمأنه قائلاً:

- يمكنك أن تذكر لي الحقيقة كلها. فالكتب هي للأجيال القادمة أو لسيدات أدرِنَة الطيبات.

ســاد صمت قصير، ثم وجه سـؤاله إلى جلبي مرة أخرى من دون أن يرفع بصره عنه:

- كيف سارت الأمور؟

ردَّ موثِّق الحملة وهو يهز رأسه هزَّة حزينة:

- على نحو فظيع.

هنا بدأ ضابط الميرة يطرح أسئلة عن الجبال، لكنّ جلبي ردَّ بتكرار الفقرات التي دونها لكتابه تكراراً حرفياً.

بدا الضابط الأقدم ذاهلاً، لكنه استأنف تحقيقه مرة أخرى.

- هل شاهدت أي ألباني؟

- شاهدت، هذا مؤكد.

- أخبرني عنهم.

أغمض جلبي عينيه نصف إغماضة قبل أن يجيب:

- مـن الناحيـة البدنيـة، هـم أطـول قامة وأكثر رشـاقة منَّا. شـعرهم يميل إلى الاصفرار وكأن ضوء الشمس أثَّر فيه. أما أولادهم فهم كلهم تقريباً من ذوي البشرة الشقراء خلافاً لأولادنا.

- وبعد؟ أنا أعرف مظهرهم.

تمتم موثِّق الحملة:

- كيف أُعبِّر؟ إنهم متوترون، عنيفون، حتى إنك لن تصدق أن مثل هذا الشعر الأشقر يعلو مثل هذه الرؤوس الصلبة.

- هل هم شجعان؟

- إنني أخطط لأن أكتب في كتابي أنَّ مقاومتهم لأي نمط من أنماط الهيمنة تجعلهم يثورون كالنمور، وعندما تمرّ السحب فوق رؤوسهم يثبون محاولين التشبث بها.

- أصغِ إليَّ يا مولى جلبي. إذا كنت قد طلبت منك الحقيقة لا العبارات المنمقة، فذلك له سبب معين...

ابتلع موثِّق الحملة ريقه.

ثم قال بنبرة احتجاج:

- ينبغي ألاَّ تكون ضدي. فأنا موثِّق متواضع الشأن، وليست لدي... ولا أعرف... باختصار، هناك أشياء كثيرة لا أفهمها فهماً صحيحاً.

قال ضابط الميرة مشيراً إلى الحلوى:

- هيَّا، تفضل.

بدأ جلبي يسرد شرحاً مفصلاً للغارة. ووصف على وجه الخصوص برودة الجبال والنهب والمذبحة من كلا الجانبين، والمخاطرة. ولـمّا وصل موثِّق الحملة إلى نهاية روايته، عرض عليه ضابط الميرة أن يأكل مقداراً آخر من الحلوى. كان جلبي يتضوَّر جوعاً، لكن ما من شأنه أن يسمح لنفسه بأن يأكل أي شيء من دون أن يدعوه مُضيفه دعوة صريحة للأكل وبخاصة أن ضابط الميرة لم يأكل شيئاً تقريباً بل اكتفى بالنظر طويلاً بعينيه الباردتين إلى البريق الأحمر لعصير الرمان.

أدرك جلبي أنه ربما استطرد أكثر مما ينبغي في سرد الجانب العنيف والمرير من الرواية، وظن أن صديقه ربما سيفضل الاستماع إلى تأملات تنطوي على فلسفة أكبر، لهذا أشار إلى لغة الألبانيين التي طالما سمعها تتردد على الألسنة في أثناء الغارة.

أوضح قائلاً:

- لهجتهم غريبة. كأنه يشوبها اللبس والإبهام فيصعب فصل الكلمة عن الأخرى، فيما تنطوي لغتنا على فواصل محددة.

أمسك عن الحديث عن أصوات الألبانيين عندما تنبَّه إلى صديقه وقد توقف عن الإصغاء.

اختتم ضابط الميرة قائلاً:

- لن يكون وقتنا سهلاً مع أمثال أولئك الناس، معهم أو مع أي قبائل بلقانية أخرى.

ردَّ موثِّق الحملة:

- سنضربهم ضربة ماحقة، وسندمرهم من دون تأخير حتى نزيلهم عن وجه الأرض.

أجاب ضابط الميرة إجابة سريعة:

- نعم، نعم، أعرف ذلك. لكن السؤال يظل معلقاً: كيف نضربهم؟ وأين نضربهم؟ وقبل كل شيء، ما الهدف؟ لقد تحدثت عن إبادتهم. لكن دعني أوجه ثلاثة أسئلة، أولاً: هل من الممكن القضاء على شعب بأكمله قضاءً تاماً؟ ثانياً: إذا كان الجواب عن السؤال الأول بالإيجاب فالسؤال هو: بأي وسيلة؟ ثالثاً، وتذكر هذا يا جلبي، فإن السؤال الثالث هو الأصعب عادةً. إنني أسألك: هل هذا العمل مرغوب به؟ وبدقة أكبر: أما زلنا بحاجة إلى هذا العمل؟

شعر جلبي الآن بألم حاد في الجزء الخلفي من عنقه بسبب التركيز تركيزاً شديداً على ما قاله ضابط الميرة. ففي كل أساليب الكلام الراهنة، وفي كل المدونات القديمة، كان القضاء على العدو يعدُّ تتويجاً للنصر. أما الآن، فإن ما يسمعه هو العكس. ولو لم يكن ضابط الميرة شخصاً بالغ الأهمية لاضطر جلبي إلى الخروج من دون أن ينظر إلى الوراء. بدأ الآن يشعر بآلام في جميع مفاصله وشعر أن ذراعيه كأنما ضُربتا بالهراوات.

قال ضابط الميرة من دون أن يخفي رضاه:

- أرى أنني أفزعتك. لكن، لننظر نظرة صحيحة إلى النقاط التي طرحتُها. النقطة الأولى هي الخاصة بالإبادة التي يبدو أنك من مؤيديها.

فكّر جلبي في نفسه: يا الله! لقد أثرتُ وكراً للزنابير! كأن كل الدروب والجبال التي مزقته إرباً إرباً لم تكن كافية ليواجه الآن حديثاً يعج بالعقبات.

اعترض على نحو خجول:

- أنا لم أقل إنني من مؤيدي... لكنني...

قاطعه ضابط الميرة:

- دعني أنهي ما أريد قوله. لنفكّر في الاقتراح القاضي بإبادة شعب بأكمله. هل هو ممكن؟

هزَّ رأسه يمنة ويسرة، واستطرد:

- ذلك صعب يا صديقي الطيب. صعب جداً أن تحقق ذلك... كما أنك لا تستطيع تحقيقه بالحرب. وهو أمر يدعو إلى السخرية إن ظننت أنَّ في وسعك أن تنجز ذلك. لا تُظهر حيرتك يا جلبي، وسأشرح لك كل شيء. هيا، تفضل وخذ قطعة أخرى من الحلوى.

اكتفى ضابط الميرة برشف بضع رشفات من عصير الرمان. أما موثِّق الحملة، ففقد شهيته.

- أصغِ إليَّ الآن! إنَّ كل شعب من شعوب العالم يزداد عدداً بنسبة أكبر أو أصغر. وتبلغ الزيادة السنوية بحدود عشرين أو ثلاثين شخصاً لكل ألف نسمة.

للمرة الأولى يسمع جلبي مثل تلك الأرقام، فالكتب التي قرأها لم تحوِ مثل هذه المعلومات.

- إنَّ عملية حسابية بسيطة تعني على هذا الأساس أنَّ عدد الألبانيين

سيبلغ زهاء عشرة ملايين نسمة بعد خمسمئة سنة.

قطّب موثّق الحملة حاجبيه كأن سنه تؤلمه.

فاستطرد ضابط الميرة:

- إن مثل هذا الرقم كفيل أن يطرد النوم من عيوننا يا صديقي العزيز. هل تفهم الآن معنى إيقاف الزيادة الطبيعية للسكان في بلد ما؟ إنَّ المغفلين من أمثال تافجا العجوز أو كورديسجي أو حتى المفتي الذي يتظاهر بأنه متعلِّم، يعتقدون أن حرباً أو مذبحة تكفي لإبادة أمة. لكن هذا غير ممكن! لنفترض أننا نخوض معركة كبرى وتركنا عشرين ألف قتيل في الميدان. سيعدُّ لك نصراً مؤزراً لجيشنا. أليس كذلك؟ حسناً، إنه لأمر يبعث على الاكتئاب إذ نضطر إلى القول إن معركة معدَّة إعداداً جيداً وتُجهد جهداً بليغاً قد تقضي على نمو السكان لسنة واحدة، لا أكثر!

شعر جلبي برغبة في وضع يده على رأسه!

- بمعنى، إنَّ نساءهم قادرات على إنجاب رجال بأعداد أكبر مما يستطيع جيشنا أن يقضي عليها، حتى لو كان لدينا مدفع المهندس ساروجا ذائع الصيت!

...

- لهذا ينبغي لنا ألاّ نَنجَرَّ إلى مثل هذه الأحلام غير الواقعية وأن نكتفي بتحديد النمو السكاني. امَّا عبر الغارات التأديبية، والمذابح، وإشاعة الدمار في مدن بكاملها، وطرد السكان أو ترحيلهم، وخطف أولادهم وجعلهم انكشارية، فإننا بذلك سنقلل من رغبة السكان في التكاثر إلى حدٍّ ما. لكن هذا لا يكفي. فالشعوب كالعشب، تنمو في كل مكان. لهذا لا بد من ابتكار وسائل أخرى أكثر كتماناً. أنا لست مخولاً إلاَّ لمعالجة الحسابات، وهناك أشخاص آخرون متخصصون في مشاكل من هذا النوع، مثلما ساروجا متخصص في تدمير القلاع...

ضاعت من جلبي للحظة سلسلة الأفكار، وأدرك أنها لحظة مرهقة،

لأنه كان يخشى أن تلصق التهمة به إذا ما توقف الحديث، أو إذا ما عطس، أو انسكب كأس، أو ساد الصمت مدة أطول مما ينبغي.

- نعم. ماهرون في إفساد الأمم وتدميرها، إذا جاز التعبير. لكن يتعين عليك أن تعرف يا صديقي أن الشعوب لا تكبر وحسب، بل تصغر أيضاً. فهي عندما تتلقى ضربة مدمرة من الخارج، منَّا نحن، في مثل هذه اللحظة، فإنها لا تنهار بالضرورة، بل يمكنها أن تظهر من جديد بقوة مضاعفة. من جهة أخرى، فإن الضرر الذي يلحق بها من الداخل هو ضرر يفرز من بين صفوفها، فذلك هو الشر الذي يمكنه أن يجعلها تركع على ركبها... أتفهم ما أقول يا جلبي؟ في أثناء غارتك على الجبال، واتتك الفرصة لمشاهدة حفريات كبيرة محاطة بدرج وأعمدة حجرية. تلك مسارح ذاع صيتها منذ غابر العصور. لكن، أتدري ما السبب الذي دفع آلاف الناس للجلوس ساعات طويلة على الدرج الحجري؟ كي يسمعوا ويشاهدوا أربعة أو خمسة أفراد، يسمونهم ممثلين، وهم يتفوهون بالأسباب التي تجعل الناس يقتلون بعضهم بعضاً، وكيف يقتل أحدهم الآخر... وليروا أيضاً كيف يوضع التاج على رأس مثل هذا الرجل الذي أدى هذا الدور المقيت، ليكون رمزاً لاحترام الناس كلهم... تلك هي عادات يمكنها أن تعلمنا درساً مهماً. إنها توضح السبب الذي جعل أولئك الناس لا يزدادون عدداً أبداً، بل يحتفظون بشكل أو بآخر بعدد ثابت من السكان، تماماً مثل تلك الأنواع من الكلاب صغيرة الحجم دائماً - لدى هوانم غير المسلمين في أدرِنَة مثل هذه الكلاب الصغيرة. حسبك أن تأكل شيئاً.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يكلمه فيها ضابط الميرة كلاماً طويلاً في مثل هذا الموضوع الحساس. الحمد لله، إنه لم يطلب أي جواب. كما تولَّد لدى جلبي الانطباع بأن مُضيفه قد نسي أمره تماماً.

هدر صوته وكأنه يرد رداً سريعاً يدل على سرعة البديهة في حمى الجدال:

– لكن هذا لا يكفي أيضاً. فنحن هنا كالعبيد، ونشيع الموت والخراب، لكن المعركة الحقيقية مستعرة هناك.

ثم رفع يده واستطرد:

– فأنت لا يمكنك أن تصف بلداً بأنه فُتح إلاً إذا فُتحت سماؤه. قد يبدو ما أقوله لك أشبه بكلام مبهم لأحد الشعراء... لكنه ليس كذلك!

شعر جلبي بالدم يندفع إلى وجهه لأن تلك الفكرة راودته تماماً، لكن، لحسن الحظ عاد المسؤول رفيع المستوى إلى خطبته الرنانة من دون أن يُعر أي اهتمام لما قد يجول في خاطر ضيفه. وفكّر موثِّق الحملة في نفسه أنّ في الجهل فائدة.

استأنف ضابط الميرة حديثه:

– فالمعركة الشرسة تدور هناك. إذ كما يخبّئ الناس كنوزهم في أماكن يصعب الوصول إليها، فإن الشعوب والأمم تسلم أصولها الثمينة إلى السماء؛ ديانتها، وعبادتها وكل ما تعتقد أنه سامٍ وأن ما من شيء يتغير. إنني أعني بهذا الكلام الأشياء ذات النظام الأعلى، الأشياء التي تتجاوز حدود حياة الإنسان، أشياء طالما سميناها عموماً أرواحاً، باختصار، كل ما يتصل بالروح. عاجلاً أم آجلاً، سنستولي على قلاعهم. نحن واثقون من أننا ستتغلب عليهم في نهاية المطاف. لكن هذا لا يكفي. ففي النهاية، هم ليسوا سوى كومة من حجارة يمكن أن تؤخذ منا بالطريقة نفسها التي سنأخذها بأنفسنا. لكن النصر في الحرب أمر مختلف تماماً... أنا لست متأكداً من أنك مصغٍ إليَّ!

لم يتوقف جلبي عن متابعة الموضوع وحسب، بل لم يعد قادراً على استيعاب أي شيء من هذا الخليط المعقد من كلام ضابط الميرة.

لكنه أومأ برأسه مفكراً في خيمته، الخيمة التي طالما استنزل عليها لعناته، لكنها باتت الآن ركناً من أركان الروضة.

- هل فكّرت يوماً ما في شيء لم تولِه أي أهمية وإذا به يصبح شيئاً مثيراً للهلع؟ لنقل أغنية مثلاً؟ إن الحرب التي اندلعت قبل شهر، على سبيل المثال، غدت موضوعاً لأغنية. إن الناس في جميع أرجاء العالم يعرفون ذلك الفن الموغل في القدم عن استخلاص بضعة أشعار من ركام الأحداث والنزاعات بما فيها تلك التي تحدث في القصور الملكية، تماماً مثلما تستخلص الشراب الفرنسي من عنقود العنب. والكرمة بما عليها من عنب تموت في نهاية المطاف، لكن شراب العنب لا يفسد، بل الحقيقة هي بخلاف ذلك: فالشراب يصبح أفضل وأفضل بمرور الوقت. وينطبق الشيء نفسه على الحرب. فالحرب تضع أوزارها، لكن الأغنية التي تُغَنّى إكراماً لها تنتقل من جيل إلى جيل، وهي تمضي كالسحاب، كالطائر، كشبح، أيها تفضل، وهي بهذا تولد حرباً أخرى. كيف يمكننا قتل ذلك الطائر الأسود؟ أو في وسعنا أن نأخذ لغتهم. لا أعلم إن فكّرت يوماً ما في ذلك - لكن بوصفك رجل علم، لا بد من أنك فكّرت - إن اللغة، أي لغة، كنز رائع يستوي في روعته مع أسراره. حسناً، لقد فكّرت دوماً - وليغفر الله لي تفكيري - في أن أشياء كثيرة في هذا العالم من شأنها أن تكون أكثر هدوءاً لو أن اللغة غير موجودة.

إنّ جزءاً من السماء يرتبط باللغة، لأن اللغة هي اتصال بالسماء أكثر من أي ملكة أخرى. تفضل وخذ قطعة أخرى من الحلوى! عندما أخبرتني قبل مدة قصيرة عن عادة الكلام الملفوظ من الأنف، انتابتني الدهشة بسبب الصعوبة التي تكتنف تغيير مثل هذه العادة، عادة الكلام الملفوظ من الأنف. إنه شيء صعب جداً يا جلبي، أصعب بكثير من هدم بوابات أو تحطيم استحكامات. للقيام بذلك، فإنك لا تستطيع اللجوء إلى المدفع أو إلى خطط المعماري جاور الأرضية لمساعدتك

في تحقيق غايتك!

لدهشة موثِّق الحملة، بدأ المُضيف يأكل بشراهة، ويبدو أن وابل الشتائم الذي أنهكه هو الذي جعله جائعاً.

استرسل في الكلام بعد أن مسح فمه بمنديل:

- في الأماكن العالية، هناك موقفان لهذا النمط من الأشياء. لكن يبدو أن جانبنا هو الذي يفوز في المجادلة هذه اللحظة.

انتاب جلبي الآن ذهول أشد. ما الموقفان والجانبان؟ إضافة إلى ذلك، فإنه لا يعرف شيئاً عن وجود هذه «الأماكن العالية».

استطرد ضابط الميرة:

- لقد ناقشنا هذه القضية نقاشاً مستفيضاً. ما الذي سنتركه لشعوب البلقان وما الذي سنزيله: دينهم أو لغتهم؟ يرى البعض أنه يجب علينا أن نزيل الاثنين، لكن آخرين فكّروا في أنه يجب علينا أن نترك واحداً منهما. لقد طرحت كل أنواع الحجج إلى أن بدا معسكرنا وقد انعقد له الفوز في نهاية المطاف، بمعنى، إننا سنترك لهؤلاء الأقوام دينهم. أما لغتهم، فسنعمل على منع استعمالها في الكتابة في بادئ الأمر، إذ إن منع الكلام بها سابق لأوانه.

لا بد من أن جلبي قطّب حاجبيه لأن ضابط الميرة مال إليه، وقرَّب رأسه العابق بالعطر من أذنه:

- لا بد من أنني أرهقتك قليلاً، لكنني استرسلت في الكلام بحرية لأنك صديقي، كما أن زمناً طويلاً انقضى منذ أن واتتني الفرصة للبوح بمكنون صدري. أما الآن، فسأفشي لك بسر وأرجو أن تحتفظ به لنفسك.

شعر موثِّق الحملة أنه بدأ يرتعش نظراً إلى ما سمعه، وفكَّر في أنَّ عقله المحاصر قلما يتمكن من تحمل عبء إضافي.

- حسناً. والآن يا عزيزي مولى ينبغي لي أن أخبرك بأن وظيفتي

بصفتي ضابط الميرة ليست هي عندي سوى وظيفة ثانوية. أما الحقيقية...

تمتم موثِّق الحملة في نفسه: يا الله! لقد راوده مثل هذا الشك، لكنه طرده من أفكاره كي لا يغطس ويغرق. فقد سارت التوقعات في جميع أرجاء المعسكر عمَّن يكون قائد الجيش الفعلي. وقد راجت مختلف الأفكار الجنونية. فقال البعض إن قائد الجيش الحقيقي هو درويش رث الثياب، وقال آخرون إن الدور يؤديه تاهانكا الذي يتظاهر بأنه أصم، لكنه في الحقيقة يسمع كل شيء. وهناك فريق ثالث كان مقتنعاً بأن القائد الحقيقي لا هذا ولا ذاك، وإنما هو المخصيُّ الأسود الذي كان يسهر على راحة زوجات الباشا. لكن تبين أن الحقيقة شيء آخر.

- بكلمات أدق... إذا أردت التعبير عن ذلك على نحو مختلف...

بدأ موثِّق الحملة يُتأتئ، وهو ما لاحظه ضابط الميرة، فسأل بنبرة رقيقة:

- ما خطبك يا مولى جلبي؟ اشرب شيئاً من العصير.

- لا، شكراً، أنا على ما يرام... يا سيدي!

- ماذا؟ أتشعر بتحسن الآن؟ حسناً. كنت أوشك أن أُفشي إليك بسرٍّ عن وظيفتي الرئيسة. إن عملي لا يرتبط بالجيش، ولا بأي كيان مشابه، بل يرتبط بعمل أوسع بكثير. لقد شكل ملك الملوك ما يشبه المجلس الأعلى، إن جاز التعبير، وهو مجلس شبه رسمي وظيفته الإجابة عن سؤال صعب ومهم: ما الذي سنفعله بشعوب شبه جزيرة البلقان؟ هذا هو سبب وجودي هنا يا مولى جلبي.

شعر موثِّق الحملة أن ريقه نشف تماماً فتجرأ على مد يده، وأمسك بعصير الرمان من دون أن يُؤذن له. وغمغم:

- لقد تأثرت كثيراً للثقة التي تظهرها لي.

- والآن نأتي إلى السؤال الثالث وهو كما أخبرتك السؤال الأصعب: هل ينبغي لنا وهل يجب علينا إضعاف هذه الأمم؟ إنَّ إبادتها، وهو عمل أعتقد أنك مقتنع به الآن، ليس إلا عملاً مضللاً. إنَّ ما يتعين علينا عمله هو إضعافها، وجعلها بلا حيوية. لكن السؤال الذي يبرز الآن هو: هل هذا عمل حكيم؟

قال جلبي لنفسه:

- إنَّ هذا الرجل سيدفعني للجنون.

كانت نظرة ضابط الميرة القوية التي تكسوها غشاوة رقيقة مسددة إليه مثل عيني محقق.

قال:

- إنَّ جانبنا لديه رأي مغاير. فنحن نرى شعوب البلقان مثل نجمة جديدة وضعها القدر في طريق إمبراطوريتنا.

بدأ موثِّق الحملة يدرك الآن المنحى الافترائي الذي بدأ يتخذه الحديث. ففي معمعة الحملة، والمعركة حامية الوطيس في جميع الأنحاء، يجري الحديث عن تحالف مع شعوب البلقان...! وقبل أن تومض عيناه بمرأى حفرة عميقة تحت الأرض حيث يمضي الفلكي، كما زُعم، مدة محكوميته، وبمرأى من رجل سُلخ جلده، وقطعت أطرافه، ثم بالسؤال: إذاً، بماذا أجبت عندما أعلن أنه يجب علينا أن نحب أعداءنا؟ شعر أن كل رؤية أشبه بمسمار يُدقُّ في جمجمته.

استأنف ضابط الميرة كلامه:

- لدي سبب يدفعني للاعتقاد أن جانبنا هو الذي سينتصر. فالناس في هذا الوقت لا يزالون متحمسين حماسة شديدة، وهناك حجاب سميك من الموت يظلل الموضوع، لكن الصورة ستتضح على المدى البعيد.

فكّر جلبي في نفسه أن هذا الرجل فقد عقله حقاً، وأنه (أي جلبي) أكثر جنوناً منه لأنه يجلس في هذا المكان ويصغي إليه!

سأل المُضيف:

- أتشعر أنك لست على ما يرام؟ لقد ازرقَّت شفتاك. هل أستدعي لك طبيباً؟

- لا... لا. إنه الإرهاق يا صديقي العزيز.

- والآن، ماذا كنتُ أقول... آه، نعم، بخصوص دور القدر الذي وضع شعوب البلقان في طريقنا.

إنَّ الجندي الأناضولي هو الأفضل في العالم، لا يتزعزع كما الأرض نفسها، وهو مخلص ومطيع، لكنه بحاجة إلى قيادة، ولا ينشأ أفضل القادة فوق أرض مسالمة وديعة، بل فوق أراضٍ مجنونة كهذه الأرض. خذ قطعة أخرى من الحلوى!

حاول موثِّق الحملة الآن أن يصمَّ أذنيه. قال في نفسه: إنني متوعك يا صاحب السيادة. لهذا فاتني الكثير مما قيل، لا سيما كل ذلك الحقد المغلف تغليفاً ذكياً...

- لقد واجهنا شعوب البلقان قبل ستين سنة على سهول كوسوفو. كان أبي هناك، ولم يتوقف عن الحديث عن تلك المعركة. حدث ذلك عندما شاهدناهم وهم محتشدون معاً: الصرب والألبان والبوسنيون والكروات والرومانيون، كلهم توحدوا ضدنا. كما تعلم، لم تستغرق المعركة سوى عشر ساعات. في بادئ الأمر، شاهدنا جيشنا يرتكز إلى الأرض والطاعة تامة ضد عدو يدفعه الكبرياء والجرأة. أما جنودنا الذين لم يكن لديهم أي لقب حربي، بل إن بعضهم لا يملكون أسماء الشهرة لأُسرِهم، بل يملكون أسماءهم الأولى لا غير، فقد تغلبوا على أولئك الكونتات والبارونات المتباهين. والآن، فكِّر يا جلبي في المعجزة التي ستحصل إذا ما امتزجت أرض الأناضول النبيلة مع هذه الصخور التي تُحدث شرراً! أتفهم ما أقوله لك؟ إننا كلنا نحتاج إلى بعضنا بعضاً. هم بحاجة إلى كرمنا ونحن بحاجة إلى حدَّة طباعهم... أعتقد أنك قرأت

كتباً كثيرة عن تلك الحرب في كوسوفو؟

ردَّ جلبي:

- مؤكد، وبخاصة لأنَّ سلطاننا العظيم مراد الأول قُتل هناك بطلاً.

ذكر موت السلطان البطولي مؤملاً أن ينحوَ الحديث منحىً مغايراً، لكن عينيّ ضابط الميرة غشتهما غشاوة أكبر من ذي قبل.

مطَّ شدقه في الحديث:

- في ذلك السهل... في ذلك السهل حيث تكمن أكثر أسرار إمبراطوريتنا مأساوية...

لم يفهم موثِّق الحملة ما كان يتكلم عنه صديقه ذو المقام الرفيع. ولم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في أن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ! يبدو أن مقلتَي ضابط الميرة أصبحتا مكمدتين وكأنهما غاضبتان من الداخل.

- أنت موثِّق... وقد قرأت العديد من الكتب...

- نعم، هذا صحيح.

- حسناً، ما رأيك في الموضوع؟ أعني في الموت... في القتل!

كان جلبي يعرف تماماً كل شيء كُتب عن ذلك اليوم المصيري، وبخاصة بعد غروب الشمس عندما امتطى السلطان مراد المنتصر جواده وسار برفقة حاشيته وسط القتلى. وفجأة... على مقربة... هناك جندي بلقاني...

سرد القصة من جديد، غير أن عيني المسؤول لم تتحسن حالهما، بل ازدادتا عتمة.

- وبعد ذلك...؟ ماذا جرى؟

كان صوت ضابط الميرة بعيداً، مكتوماً، فأدرك موثِّق الحملة أنه

أمام تحقيق ثانٍ، وهو ما كان يخشاه قبل برهة وجيزة.

- لقد ظل موت السلطان سراً كي لا تنهار معنويات الجيش.

- وبعد ذلك؟

- ثم حدثت مقتلة أخرى، حيث لقي يعقوب، وهو أحد أبناء السلطان، مصرعه.

- من قتله؟

لم يكن موثِّق الحملة واثقاً من السبب، لكنه وجد نفسه يطيل النظر إلى يديه الخفيضتين. لقد سبق له أن سمع أن نزوات محددة تجعل بقع الدم تنتقل في بعض الأحيان إلى الأيدي البريئة.

- إن مجلس الوزراء هو الذي أقدم على ذلك يا سيدي، لدرء الخلافات بشأن العرش!

- إنك تخفي شيئاً ما أيها الموثِّق!

أحسّ جلبي أنَّ الخيمة تسقط على رأسه. فجال ببصره إلى يديه مرة أخرى، بل فعل ذلك على نحو جعل ضابط الميرة يشاهد ما يفعله بكل سهولة، وكأنه يريد منه أن يعرف أنه ليس، بأي حال من الأحوال، مسؤولاً عن تلك الكتب.

كرر ضابط الميرة بنبرة باردة جداً:

- إنك تخفي شيئاً ما! لقد ذكرت مقتل أحد الابنين من دون أن تتذكر بأن الذي قُتل هو الأخ الأكبر، وهو بخلاف ما يمكن توقعه في مثل هذه الظروف.

أجاب جلبي:

- أنت على حق يا سيدي. إنَّ الذي قُتل هو الابن الأكبر، الوريث الشرعي للعرش، وأعلن بعد ذلك عن تسمية الابن الأصغر بايزيد سلطاناً.

- بمعنى أن كل شيء كان مقلوباً. أليس كذلك؟ أو إذا ما توخينا

دقة أكبر...

قرَّب ضابط الميرة وجهه من وجه موثِّق الحملة واستطرد:

- إذا ما توخينا دقة أكبر، فإن الجريمة الأخرى... جريمة قتل السلطان نفسه... لم يخططها قاتل بلقاني قط... بل... آه! إنك ترتعش من قمة رأسك حتى أخمص قدميك أيها المسكين! لكن، أصغِ الآن إلى ما حدث حقاً...

لكن فات الأوان، إذ لم يكن لدى موثِّق الحملة متسع من الوقت لإبعاد كل شيء عنه، للالتفات إلى الجانب، ولسدِّ أُذنيه أو لثقب طبلتيهما. أما ضابط الميرة فقد كان ممسكاً به من رقبته، ويسكب في أذنيه سماً زعافاً يجعل كل مؤرخ من مؤرخي السلطنة يهذي كالمجنون. توسل في أعماقه: آه يا الله اجعلني أصمَّ كي لا أسمع هذه الأشياء البغيضة، لكن الحقائق هذه المرَّة دخلت أذنيه شاء أم أبى. كان في حالة ذهول شديد، حتى إنه لم يجد صعوبة في التظاهر بأنه مات. ولعل فضوله المعلوم وحده هو الذي حال بينه وبين فقدانه حواسه فقداناً حقيقياً.

في نهاية المطاف حدث شيء فوق رأسه. فقد سمحت غمغمة ضابط الميرة الكئيبة بكلمات أكثر عطفاً:

- يا صديقي المسكين يا مولى، ما الذي جرى؟ لا بد من أن ذلك سببه الإرهاق... نعم... الإرهاق. ربما.

شعر بمنشفة مبللة على جبهته، وعندما فتح عينيه شاهد العريف يمسح حاجبه. كان ضابط الميرة منحنياً فوقه، يبدو وقد عاد إلى وضعه الطبيعي، مشرقاً ومنشغل البال، ويقول له:

- لا تقلق. إنها مجرد نوبة سيئة. لقد أرسلتُ في طلب طبيب مجلس الحرب...

أفلتت من الطبيب عبارة من غير تبصر وهو يسرع بدخول الخيمة:

- أُفٍّ!... يا له من يوم حافل. ماذا حدث يا كورت؟

ذُهل موثِّق الحملة لنبرة الطبيب الخالية من التكلف، وذُهل أكثر بسبب الاسم الأول (كورت) الذي لم يسمع أحداً ينطق به من قبل.

قال ضابط الميرة:

- لم أشأ أن أزعجك أنا شخصياً في مثل هذا اليوم، لكن الأمر يخص صديقي... مولى جلبي، مؤرّخ الجيش الرسمي، الذي أظنك سمعت به...

أدرك موثِّق الحملة من خلال رد فعل الطبيب اللامبالي على هذه الكلمات لا سيما الطريقة التي جذب بها جفني جلبي كي يتمكن من فحص بؤبؤيه، أن المؤرخين ليسوا على رأس لائحة أولوياته. وفكّر في نفسه ضاغناً أن الأطباء لم يألفوا إلاَّ فحص الشخصيات المهمة. لكن الرائحة الزكية التي انبعثت من جسده عندما فتح رداءه لإجراء الفحص على صدره، ملأته بالإحساس بشيء من التباهي.

قال الطبيب الممارس وهو يلتفت ليواجه ضابط الميرة وكأن المريض تذكار لا أكثر:

- السبب يرجع إلى نوعين من الإرهاق.

ثم كرر كلمة نوعين وهو ينقر على جانب جبهته.

شعر جلبي كأنه ميت، وغمغم لنفسه: أتمنى لو رأيتك تصغي إلى كل هذه الأهوال!

قال الطبيب مخاطباً ضابط الميرة وهو يأخذ قارورة من حقيبته:

- يجب أن يشرب كمية قليلة من هذه المحتويات.

ثم بدأ الاثنان يتداولان همساً وكأن موثِّق الحملة غير حاضر في الخيمة. ثم قال الطبيب مجيباً عن سؤال طرحه المُضيف.

- حسناً. حسناً. استمر في استعمال البلسم الذي أعطيتك إياه. اتفقنا. وداعاً يا كورت.

فكّر مولى في نفسه يائساً: لا، لن أكون واحداً منهم. ثم كرر لنفسه: اتفقنا، وداعاً، كأنه يتعلم عبارة بلغة أجنبية. في الحقيقة، لقد لاحظ بين الفينة والفينة لكنة أجنبية خفيفة في مفردات ضابط الميرة، لكنه، شأنه شأن معظم الناس، طرح مثل هذه الهموم جانباً... أليس الاسم كورت شائعاً بين العثمانيين؟

لا يستطيع أن يتعلم حتى ولو بعد ألف سنة كيف يقول: اتفقنا، وداعاً يا كورت، بسهولة. إن ضابط الميرة لم يعقد معه صفقة إلا كي يتمكن من نفث السم في أذن شخص ما، حيث لا يستطيع الناس تحمل بقائه في داخلهم، تماماً مثلما كان ينفثه قبل مجيء الطبيب.

لو كانت الظروف مغايرة، لافتخر بأن يكون مُستودِعَ هذا السر العظيم. ولدى سماعه إياه، للمرة الأولى، طار عقله. وفكّر الآن في أنه كريه، لكن، مَن في وسعه أن يعرف كيف سينظر إليه في الأيام المقبلة؟

سأل ضابط الميرة:

- عمّ كنا نتحدث عندما حضرت إلى هنا؟

كان سؤاله بلا تكلف، لكن جلبي تمكن من أن يرى في عيني الرجل بريقاً يشبه بريق الرواسب الكلسية الهابطة في المغاور، وأجاب:

- لا أتذكَّر جيداً، أعتقد أنك كنت تتحدث عن شعوب البلقان، وعن إسكندر بِك.

قال مُضيفه وقد أشرق وجهه:

- آه، نعم. إسكندر بِك. إنك لم تسمع بقية القصة. إذاً، هذا أفضل!

هنا شعر جلبي بارتياح شديد. ولم يكن ندمه على ضياع السر الذي أسرَّه به كافياً لإقلاق راحة باله التي استعادها قبل قليل.

بدا ضابط الميرة مرتاحاً، رائق المزاج، وحثَّ موثِّق الحملة على

أن يأخذ قسطاً من الراحة، وبعد ذلك يرافقه حاجبه إلى خيمته. في غضون ذلك، يمكنهما استئناف حديثهما الذي انقطع. ماذا سيقولون بشأن... إسكندر بِك! قال ضابط الميرة إن أحد أصدقائه التقاه حقاً، في أثناء مفاوضات سلام عقدت في مكان سري. لقد رفض القائد الألباني التوجه إلى العاصمة التركية حتى ولو بدأ ملك الملوك مراد خان رسالة الدعوة بعبارة يا ولدي.

قال جلبي:

- يا له من رجل جاحد.

استأنف ضابط الميرة كلامه قائلاً إن إسكندر بِك كان في أثناء المفاوضات لا يتكلم اللاتينية كي يوضح انشقاقه التام عن السلطنة.

كرر موثِّق الحملة:

- رجل جاحد! مرتد!

قال ضابط الميرة مُصرّاً:

- بل أسوأ من مرتد! لقد حطم واحداً من أحلام إمبراطوريتنا. أتعلم ما هو؟ إنه أجمل الأحلام قاطبة: إعادة الألبانيين الكاثوليك إلى حضن الإسلام.

كان حديثهما أعجوبة من الأعاجيب.

- لم يكن هناك على وجه التأكيد العديد منهم، بل قلة قليلة، ولا تنسَ أنهم من قدماء النصارى، ممن اعتنقوا الديانة قبل ثلاثة عشر قرناً، ومنذ ذلك الزمان ارتبطوا بدار عبادة روما وتحت لوائها. لهذا، فإن قدرة الإسلام على فتح ثغرة في النصرانية وفي أقوى معاقلها يعد مؤشراً. لم تكن هناك أخبار أفضل لتصل قلب أوروبا. لكن الحلم سرعان ما حطمه ذلك الشيطان الذي يحمل اسماً مزدوجاً: جورج كاستريوني؛ إسكندر بِك...

وهنا تهدَّل فك موثِّق الحملة من شدة الدهشة.

- كل شيء فيه مزدوج: اسمه، وقرنا الكبش اللذان يضعهما على خوذته، والطير على رايته، ولكن هل تعلم ما الذي فعله إثر توطيده سلطته مباشرة على غيره من الأمراء المحليين؟ أمر الألبانيين الذين اعتنقوا الإسلام بالعودة إلى معتقدهم الأول، وإلا سيعُمل السيف في رقابهم، ووفى بكلمته. وأعاد بالقوة دمج المسلمين الجدد بالنصرانية وكانوا قد ارتدوا تواً رداء الإسلام. فماذا إذاً يا جلبي؟

قال موثِّق الحملة متعجباً:

- إنه شيطان بقرنين!

ثم سأل عن شكل الزعيم الألباني، فردَّ المسؤول رداً ينم عن سرعة خاطر:

- شكله؟ أتذكر أنني سألت صديقي السؤال نفسه في الوقت الذي روى فيه الحكاية، إذ إن إسكندر بِك يبدو رجلاً سَوِيّاً تماماً. في يوم المحادثات كان صوته غليظاً، ولا بد من أنَّ برداً أصابه، وظل طوال المباحثات يضع لفاعاً حول رقبته.

كرر موثِّق الحملة تكراراً آلياً كأنه يوشك أن يستسلم للنوم مجدداً:

- لفاعاً حول رقبته؟

قال ضابط الميرة:

- إنَّ أكثر ما أخشاه الرجال الذين يبدون أسوياء.

اكتسب صوته نبرة مغايرة، وكأن أبعاد الخيمة قد تغيرت فجأة.

ثم حدث أول توقف في الحديث منذ أن انصرف الطبيب.

انشغلت أصابع ضابط الميرة بعدِّ خرزات مسبحته عداً أسرع مما هو مألوف. بدت إحدى الخرزات وقد بهت لونها وفقدت بريقها.

- أشرت في التقرير الذي كتبته أنني أعتقد أن الألبانيين ينبغي وضعهم جنباً إلى جنب مع اليونانيين واليهود بصفتهم أول الشعوب التي

ينبغي لنا دمجها.

كان صوت ضابط الميرة وهو ينطق كلماته هادئاً، بطيئاً، على العكس من يديه، واستطرد:

- ولا توجد أي عقبة في هذا الطريق سوى هذا الرجل إسكندر بِك.

قال موثِّق الحملة:

- أفهم ذلك.

في إمكانه أن يتخيل سهل كوسوفو وقد امتلأ بجثث لا تعد ولا تحصى فيما مراد خان يمتطي صهوة جواده عند الغسق، يطوف بينها. كان عليه أن يمحو تلك الصورة من ذهنه، وأن يخرجها من ذاكرته نهائياً إن كان يريد تجنب سقوطه الشخصي.

استرسل ضابط الميرة:

- لا بد للألبانيين من أن يتخلصوا من إسكندر بِك. هذا هو الحل الوحيد. لكنه يبذل قصارى جهده للحيلولة دون وقوع ذلك. إنه يدرك إدراكاً عميقاً أنه سيخسر الحرب في نهاية المطاف. لكنه بالرغم من ذلك، يتشبث بالألبانيين.

فكّر موثِّق الحملة في نفسه: إن في وسع إسكندر بِك والألبانيين أن يذهبوا إلى الجحيم، لكنه لم يتجرأ على قول ذلك بصوت عالٍ.

واصل ضابط الميرة:

- إنه بصدد تحقيق مأثرة غير اعتيادية، مأثرة استثنائية... حسناً. إن هذا الرجل يسعى نحو العُلا. لا أدري إن كنت تفهم ما أقوله. إنه يريد أن يُنشئ ألبانيا ثانية، بعيدة عن متناول الجميع، ألبانيا لامادية، حتى إذا جاء اليوم وسقطت ألبانيا الدنيوية أمام السلطنة، فإن ألبانيا الثانية، الشبحية، ألبانيا الظل، تستمر في الطواف بين السحب. أتفهم ما أقوله لك؟ (في الحقيقة لقد ازداد موثِّق الحملة ذهولاً وتشوشاً) لقد وهب نفسه لمهمة

لم يفكّر فيها أحد من قبل تقريباً. كيف يمكن إعادة استخدام الهزيمة. أو، بكلمات أخرى، إعادة تصنيع الهزيمة في أرض المعركة...

كان جلبي في حالة ذهنية شديدة الارتباك دفعته للتساؤل إن كان محدثه لا يرمي إلى إذهاله كي ينسى جواد السلطان الأبيض على سهل كوسوفو. غير أنه وعد صامتاً بتأكده من أنه سيعمد إلى مسحه من ذاكرته حتى لو لم يطلب ضابط الميرة منه ذلك.

أوشك ضابط الميرة أن يقطع خيط مسبحته وهو يواصل حديثه:

- كما ترى يا مولى، إنه يحاول إرغامنا على محاربة ظله، على أن نقهر شبحاً، إن جاز التعبير، هو صورة هزيمته الشخصية. لكن كيف يمكنك أن تقهر الهزيمة، الاندحار؟ الأمر يشبه المحاولة في أن تجوِّف وادياً! إنه مجوَّف أصلاً! ولن يجديك عملك نفعاً، بل سيؤدي إلى سقوطك فيه. قبل برهة وجيزة - وأنا لا أعرف إن كنت قد سمعت - سرت شائعة غريبة وسط الضباط تفيد بأن إسكندر بِك لم يكن موجوداً، بل لا وجود له أصلاً. في البدء احتار الجميع بهذه الأنباء السارة، إلا أننا سرعان ما أدركنا أن الأمر معكوس. وأُلقي القبض على مروجي الشائعة وعوقبوا. لماذا؟ لأنه إن لم يكن هناك أي إسكندر، كما أخبرتك قبل قليل، فإننا نقاتل شبحاً. الأمر قتال مع أحد الموتى. ما في وسعك عمله إذا ما هاجمك الموتى؟ الموتى هم ما نخشاه على أنفسنا. لهذا، إن أردت ذبح شبح، فإن كل ما تفعله هو إعادته إلى الحياة. انتهت الرواية. لكن لا بد من أنني أرهقتك يا صديقي العزيز. ربما آن الأوان كي تعود إلى خيمتك، وسيرافقك حاجبي.

في الحقيقة، لقد شعر بالإنهاك. كان في رأسه مجموعة أفكار مشوشة. الوقت مساء، والحياة تسير على هواها في المعسكر الكبير مترامي الأطراف. الرجال في حركة دؤوبة، في هذا الطريق وفي ذاك، شأنهم شأن النمل. كان يسير على امتداد الطريق الرئيس عندما سمع

صـوت عربـات مـن ورائـه. اسـتدار، وظـن أنه شـاهد الفلكي في إحدى العربات. حثَّ خطاه كي لا تتجاوزه العربة، لكنه انعطف جانباً عندما شعر أن العربات اقتربت منه، وسار وسط خيام إحدى وحدات المتطوعين.

مـا إن وصـل خيمتـه حتـى تهالك بكامل ثيابه فوق فراشـه المكون من جلود الحيوانات. بينما النعاس يغالبه (في تلك اللحظة كان الفلكي يصب جام غضبه وهو في العربة على خيانة جلبي) داهمه شعور غريب بأن الحياة جميلة بالرغم من كل شـيء. وداهم الشـعور نفسـه، وإن كان ممتزجاً بالمرارة، الفلكي أيضاً وهو يترجل من العربة ويسـتعد للهبوط إلى جوف الأرض مع مفرزة من جنود الهندسـة العسـكرية توشـك أن تحـل محـل المفـرزة الحاليـة. وكان قبـل أي رحلة إلى داخل النفق يلقي نظرة حزينة حوله، مندهشاً لأنه لم يتنبه من قبل إلى جمال العالم. كان طـوال حياتـه ناقمـاً علـى وظيفتـه، ولـم يفكّر إلا في الحصول على ترقية بـأي وسـيلة كانـت. لكنـه لـم يـذق حقاً طعم تلـك القناعة التي تأتي من تحقق الحلم تحققاً تاماً. اليوم، ألقى به القدر في حفرة مظلمة رطبة في جـوف الأرض، وأدرك أنَّ الأيـام التـي أمضاهـا على سـطح الأرض كان من شـأنها أن تكون سـعيدة لو لم يفسـدها بجشـعه الذي لا سـبيل إلى إشباعه نحو مزيد من الهناء.

فـي كل مـرة كان يهبـط فيهـا تحـت الأرض كان الخـوف مـن عدم الخـروج مـرة أخـرى يصيبـه إصابـة خنجر. بالرغم مـن كل الاحتياطات التي كانوا يتخذونها الآن (فقد توقفوا تقريباً عن الاسـتمرار في الحفر، بـل واصلـوا الحـثَّ فـي التربـة) كانوا مسـكونين بهاجس الخوف من أن يكتشـفهم العـدو. ذلـك هـو الخطر الأول. أمـا الخطر الثاني فهو الخطر الـذي ينتظرهـم عندمـا يخرجـون إلـى العراء. ويرجـح أن يدفع أصحاب الامتياز حياتهم ثمناً لحظهم العاثر عندما يكونون أول الخارجين. وحتى لو لم يخوضوا اشتباكاً دموياً بادئ الأمر - إن نجحوا في فتح ثغر النفق

من دون أن يشاهدهم المدافعون - فإنهم سيلقون حتفهم، على الأرجح، عندما يندفع من ورائهم أفراد وحدات الانكشارية ويدوسون عليهم. في الحقيقة، إن اللحظة التي سيفتح فيها ثغر النفق ستندفع وحدات الانكشارية مثل تيار هادر، وسيندفع أفراد الهندسة العسكرية المرهقون وغير المسلحين صوب رماح المحاصَرين.

كلما اقتربوا من نهاية عملهم، كلما ازداد توجس الفلكي بالشر. كان المعسكر الآن يغالبه النعاس، لكن المئات من نخب الانكشارية داخل الخيام التي نصبت إلى جانب المخبز كانوا على أهبة الاستعداد، وفي يقظة تامة، ومدججين بالسلاح. أُرسل المئات من الآخرين في أثناء الليلتين الماضيتين إلى داخل النفق، ليكونوا على استعداد للهجوم إذا ما انهار السقف مصادفة. كانوا يقفون ساكنين مثل صف من التماثيل في الظلمة فيما أفراد الهندسة العسكرية يتدافعون أمامهم كأنهم جزء من الجدار. كان وجودهم في النفق قد زاد من صعوبة التنفس. وكانت نوبة حراسة أفراد الانكشارية ساعتين تحت الأرض فيما كان أفراد الهندسة العسكرية يعملون حتى الموت.

كان كل شيء يشير إلى أن ساعة نشوب المعركة باتت وشيكة. سار الفلكي بخطوات ثقيلة وسط الظلام وعلى ظهره كيس، وأمامه ضابط سابق عُوقب لأنه هبط من فوق أحد السلالم وتقهقر في أثناء الهجوم تاركاً رجاله أمامه. كانت محاولته تفسير موقع النجوم في برج الأفعى، (الذي يشير كما يبدو إلى النفق) وهو جهد جبار يبذله للارتقاء بنفسه من الطين الذي رُمي به، إنما قد تساعده على معرفة اليوم الميمون الذي ستندلع فيه الحرب، مع قبوله بأن يدفن نفسه حياً في الطين إلى الأبد إذا ما أخفق. لكنه إذ يجد نفسه الآن في باطن الأرض، فقد احتاج إلى بعض الأصدقاء المخلصين كي يُسمع صوته في الأماكن العليا. لم يكن جلبي واحداً منهم. لعل الشاعر سعد الدين يصبح المتحدث باسمه قبل

أن يُنكَّل به، لكنه لم يعد الآن سوى شاعر ضرير، ولا تكاد تؤخذ كلماته مأخذاً جاداً. أما صاحب السلطة القوي، المفتي الذي حَضَّهُ على تحديد يوم الهجوم وكان سبب خرابه، فقد نسي على الأرجح حتى اسمه.

تنهد الفلكي تنهيدة عميقة، فهو لم يشاهد مثل هذا العدد الكبير من الانكشارية تحت الأرض قبل اليوم. كانوا مولين الجدار ظهورهم، متراصفين على جانبي النفق، يبعد الواحد منهم عن الآخر مسافة ثلاث أو أربع خطوات. وكان وهج الجمرات المشبعة بالزيت المحترقة في دلاء موضوعة على مسافات متفاوتة تضيء وجوههم فتبدو مثيرة للهلع، لأنها كانت لا تضيء إلاَّ ذقونهم وجباههم، فيما ظلت عيونهم وأفواههم مثل ظلال سوداء.

وصل إلى النقطة التي ينحدر فيها الممر انحداراً شديداً. كانت فوق تلك البقعة أسس السور الرئيس الذي حاولوا عبوره من دون إقلاقهم كثيراً. ولما كان هذا الجزء من النفق يغور في عمق الأرض، فإن الهواء فيه كان أثقل وأشد رطوبة من أي مكان آخر. ثم يعود النفق إلى مستواه الاعتيادي. أصبح الفلكي الآن داخل القلعة. وكان قلبه في كل مرة يصل فيها إلى هذا المكان يضعف خفقانه. حثَّ خطاه كي يرجع بأسرع ما يستطيع، وكأن القلعة تثقل كاهله. تمكن من رؤية مجموعة من الرجال في نهاية النفق: لقد حل فريق النوبة الليلية محل فريق نوبة ما بعد الظهيرة. كانوا يتجاذبون أطراف حديث شيق في ما بينهم، بعضهم يشيرون إلى الجدران، وبعضهم الآخر يشيرون إلى السقف المبتل. تعرَّف الفلكي إلى المعماري وإلى علي بيه وهما يكلمان أُولوغ بيه آمر وحدة المهندسين. بدا القلق واضحاً على محيَّا الضابط، وظل المعماري يرفع يده ليكوِّن إشارة تجعله يبدو وكأنه يرسم دائرة فوق رأسه. هم يحاولون اتخاذ قرار بشأن تحديد النقطة التي سيتم منها الاندفاع إلى الأعلى.

جعل نور المشاعل الضعيف ظلال رؤوسهم فوق جدران النفق وكأنها محاطة بهالة كتلك الهالة التي يضعها النصارى حول رؤوس قديسيهم في دور عبادتهم.

كان حديثهم يجري همساً. وكان جنود الهندسة العسكرية الذين بدأوا بالعمل يحفرون من دون إثارة جلبة. كانوا يكشطون التربة بخناجر ذات شفرات عريضة وبصمت تام. بدأ الفلكي يملأ كيسه. كان واضحاً أن النفق لن يُحفر إلى أبعد من هذه النقطة. كان جنود الهندسة العسكرية منهكين الآن في توسيعه، وذلك لشق سرداب عظيم تحت فتحة الخروج كي يتمكن أكبر عدد ممكن من الانكشارية من التجمع في اللحظة الحاسمة.

أنهى الفلكي ملء كيسه وحمله على ظهره. ولما مرَّ أمام مجموعة البارزين استطاع أن يسمعهم وهم يتحدثون بأصوات خافتة وقلقة. من الواضح أنَّ شيئاً مهماً سيحدث في تلك الليلة، فالانتظار واللهفة واضحان في كل مكان. سار والكيس على ظهره أمام الصف الطويل من الجنود الواقفين إزاء الجدار، ثم هبط المنحدر العميق، وصعد مرة أخرى إلى مستوى النفق الأولي حتى وصل تلك النقطة التي يسمح فيها باستخدام العربات. وكعهده دائماً، رجع الفلكي إلى مكانه، وأطلق صيحة تعبر عن ارتياحه.

سأل الناقل:

- ما الذي يجري هناك؟ أعتقد أن المعركة ستنشب هذه الليلة!

قال الفلكي مفرغاً حمله في العربة:

- أعتقد ذلك أيضاً.

ثم انصرف وكيسه الفارغ فوق كتفه.

من الواضح أن الهجوم سيشن في تلك الليلة. وعندما وصل إلى نهاية النفق وجد الأشخاص المهمين لا يزالون في مكانهم، ولا

يزالون يتكلمون همساً ويصنعون بأيديهم شكلاً دائرياً فوق رؤوسهم بين الفينة والفينة. منحه وجودهم إحساساً بالأمان والثقة، فهم ليسوا منبوذين بالقدر الذي قد يوحون به على كل حال طالما أن مثل هؤلاء الأشخاص رفيعي المستوى قد جاؤوا إلى هنا كي يكونوا معهم في مثل هذه الليلة الحاسمة.

كان الفلكي يحمل بمشقة كيسه الثاني المملوء بالتراب عندما صادفه اثنان من جنود الهندسة العسكرية في الاتجاه المعاكس وهما يحملان سلماً قصيراً وعريضاً.

قال الناقل عندما التقيا مرة أخرى:

- إنه الكيس الثاني.

- هل كل شيء جاهز في المكان الآخر؟

- لا أعلم. لم أذهب خارجاً بعد.

عندما عاد الفلكي إلى نهاية النفق، كان المعماري وعلي بيه وضابطان آخران مجهولا الهوية قد بدأوا سيرهم الطويل عائدين إلى المدخل. وحلَّ الإحساس بالخواء والخوف محل الإحساس بالأمان الذي كان قد منحه وجودهم للعاملين في كشط التربة ونقل الأكياس. لكن أُولوغ بيه ومساعده وأحد ضباط الانكشارية ظلوا في أماكنهم عند نهاية النفق، وقف الضابط على بعد مسافة قصيرة، مسمَّر العينين على ما يجري في نهاية النفق. لم يكن جنود الهندسة العسكرية متنبهين إليه عندما كان الأشخاص المهمون الآخرون حاضرين في المكان، ولم يلحظوا إلاَّ الآن هذا الشكل المعتم الصامت والثابت الذي بدا وقد برز من الظلمة. بدا وكأنه الرجل الذي سيقود الهجوم.

عجَّل جنود الهندسة العسكرية في توسيع المنطقة، وكان من السهل غرف التربة سهلة التفتيت. كان الفلكي يتصبب عرقاً، شأنه شأن بقية الحمَّالين. وكان على أحد الجانبين غار منخفض حُفر على عجالة وكان

يحتشـد فيـه عـدد كبيـر مـن الرجـال وقد تراصفوا تراصف الأشـكال في النحت البارز. بدأ جنود الهندسـة العسـكرية الآن يكشـطون التربة عند الجدار المواجه كي يسمح باستيعاب عدد أكبر من الرجال. كان الجنود قد صعقوا وهم ينظرون إلى السلالم القصيرة التي ستقودهم عما قريب نحو مصيرهم.

لم يكن أحد يعرف الوقت المحدد، لكن كل ما كانوا يعرفونه هو أن الظلام حالك هناك فوق الأرض. كان أُولوغ بيه يختلس النظر بين آن وآخر إلى أعماق هذا النفق المظلم. كان في انتظار المبعوث الذي سيأتي حاملاً الأمر بالهجوم. كان متأخراً، أو لعل ذلك هو الانطباع الذي تولَّد عند الجميع بسـبب وجودهم تحت الأرض. كانوا متبلدي الأحاسـيس، وبدا الضوء المتراقص المنبعث من المشاعل وكأنه قد انتابه النعاس. إلا أنهم شـعروا فجأة بهزَّة، كأن الأرض كلها قد اسـتيقظت بحركة فجائية، ثم سمعوا هدير رعد، وتجمد الجميع في أماكنهم. انطفأ أحد المشاعل، وسـقط آخر. كان في وسـعهم أن يسـمعوا صوتاً مكتوماً لصاروخ وهو يسقط في مكان ما على مقربة من وسط النفق.

طفق الجميع يحدق في ذلك الاتجاه إلى أن تلاشى الصوت.

اندفع أُولوغ ومساعده صوب مكان الانهيار. أما الآخرون – الجنود وجنود الهندسة العسكرية والحمالون – فقد بعثوا إلى الحياة فجأة وكأنهم تخلصوا من سحر ساحر. وصاح أحدهم:

– لقد خدعنا!

وصاح آخر:

– إنها هزة أرضية!

أراد اثنان من الرجال أن يركضا وراء آمر المهندسين، لكن ضابط الانكشارية، الذي كان لا يزال حتى الآن جامداً كالمومياء، امتشق سيفه فجأة وهتف:

- اسكتوا! ولا تتحركوا!

فما كان منهم إلاَّ أن امتثلوا لأمره.

أصبح بإمكانهم الآن وسط الصمت الذي أعقب الأمر أن يسمعوا بكل وضوح وقع أقدام أُولوغ بيه ومعاونه وهما يتواريان بعيداً عن الأنظار. كما تلاشى الصوت أيضاً، لكنّ أصواتاً أخرى تناهت إلى المسامع وكأنها تقترب، ثم تبتعد، ثم تتوقّف. هرع أحد جنود الهندسة العسكرية من الجانب الآخر من النفق، فصاح به الضابط:

- قف! من أنت؟

- أنا أحد جنود الهندسة العسكرية يا سيدي. ماذا حدث؟

فقال الضابط:

- لا أدري. لكننا سرعان ما سنعرف.

- يا الله! ماذا حلَّ بنا؟

فأمر الضابط:

- اسكت! أضيئوا المشاعل.

- هناك شخص ما قادم.

أرهفوا آذانهم، وكان في وسعهم سماع صوت وقع أقدام، لكنها بطيئة في تقدمها.

- إذاً، ما الذي جرى؟

كان وجها أُولوغ بيه ومعاونه كالحين، ويتصببان عرقاً.

- لقد ضعنا!

- آه!

أمر الضابط:

- اسكتوا! ماذا جرى؟

قال أُولوغ بيه بنبرة غير واضحة:

- انهار النفق!

سأل الضابط مشيراً بأصبعه إلى الأعلى:

- هل هم الذين فعلوا ذلك؟

- نعم، إنهم هم.

- إذاً، لقد أمسكوا بنا!

- لقد دفنونا ونحن أحياء!

كرر الضابط:

- اسكتوا!

ثم التفت إلى أُولوغ بيه وسأله:

- ما الذي يمكننا عمله في مثل هذه الحالة؟

أجاب آمر المهندسين:

- لا شيء.

وأكَّد أحد معاونيه:

- لا شيء.

ترددت الكلمة تردداً كئيباً في كل أرجاء النفق:

- لا شيء!

- ألا توجد وسيلة لحفر ممر من الممرات كي نخرج؟

- لا، إنهم يراقبون كل حركة نقوم بها.

- ربما الأرض مادت بفعل الثقل.

- لا، ألا تشم رائحة البارود؟

فقال الضابط بنبرة هادئة من دون أن يكون موجهاً كلامه إلى أحد معين:

- إذاً، كل ما بقي لنا كي نفعله هو أن نموت. لقد اختار الله لنا هذه الطريقة لنموت، وما علينا إلا الإذعان لإرادته.

بدأ البعض منهم يبتهلون، لكن أكثرهم بدأوا بالعويل.

جلس الفلكي القرفصاء واضعاً رأسه بين يديه وكأن ذهنه قد غادر هذا العالم.

سأل أحدهم بَرِماً:

- ما رأيكم لو استسلمنا؟

فقال الضابط واضعاً يده على قراب سيفه:

- صه أيها الحقير!

- إذاً، من يظن أنه قادر على إصدار الأوامر؟ إنني أنا الآمر هنا في هذا المكان.

فأجاب الضابط إجابة سريعة لاذعة:

- وأنا الآمر على رجالي.

كرر أُولوغ بيه:

- إن الشخص الوحيد الذي يصدر الأمر هنا هو أنا!

- إذاً، أنت تريدنا أن نستسلم أيضاً. أليس كذلك؟

فأجاب الآمر:

- لا، إن الشيء الذي أريده هو ألاَّ يصدر أحد الأوامر لأن إصدارها شأن من شؤوني.

لكن الضابط أصرَّ:

- لو استسلمنا، فإن الوضع سيصبح أكثر سوءاً، إذ سيذبحوننا كالخراف.

غمغم أحدهم:

- مَن يدري؟!

صاح الضابط:

- اخرس! سيمزقوننا إرباً إرباً انتقاماً للمذبحة التي نفذها المغاوير.

تردد كل مقطع وسط الجميع: إرباً إرباً.

اتكأ الفلكي على كومة فوق الأرض، ونظر إلى الأعلى صوب سقف النفق الذي بدا بفعل الوهج القرمزي للأضواء وكأنه قناة ماء مقلوبة. وفكّر في نفسه أن في الإمكان مشاهدة النجوم الآن. إنها نقطة المراقبة الإمبراطورية، كما يسميها غير المسلمين، التي يحلم دوماً في إدارتها... ضوء مائل إلى السواد يقطر من قبة صغيرة. في وسع ذهنه المشوش أن يتدبر جمع القليل من الأفكار المرتبطة ارتباطاً واهياً ليس إلاَّ، وشعر بالغمِّ للمصير المحزن الذي قاده إلى إنهاء أيامه في جوف الأرض تحت قلعة أجنبية. ثم طافت به فكرة أخرى صوب النجوم التي ربما كانت طوال حياته أقرب إليه من الرجال، وكانت رفيقته وشريكته في الخصام والوئام والتي ما من شأنه أن يراها بعد الآن إذ اقترب الموت منه. ولم يشاهد من مكانه سوى تربة سوداء وماء يقطر، يقطر، يقطر إلى الأسفل.

مرت الثواني والفلكي يقلِّب هذه الأفكار في رأسه، حتى جاءت مرحلة أخرى أطول، إذ انطفأت المشاعل الواحد تلو الآخر. ثم انطفأت الفوانيس أيضاً، حتى توقف الزيت ودلاء الجمرات عن إرسال ضوئها المتذبذب، وظلت بين حين وآخر وكأنها قد انبعثت فيها الحياة مرة أخرى لتلقي ومضات غير منتظمة من نور ضارب إلى الزرقة حولها. لكن، انطفأ أخيراً حتى هذا الضوء الباهت الضعيف. كانت آخر ومضة منها قد أضاءت وجوهاً علاها الرعب والإنهاك، وجوهاً تفتقر إلى الملامح المحددة - عيون وأنوف وذقون - على حافة الذوبان وكأنها الشمع. لقد وصلوا جميعاً عتبة الليل الأبدي.

مزَّقت الابتهالات والآهات الصمت الطويل مرة أخرى. وبين الفينة والفينة كانت تنبعث صرخة قصيرة أو تجشؤ، لكن سرعان ما تتلاشى تحت وطأة النشيج. تخيل الفلكي شخصاً يزحف باتجاهه. وشعر بأنفاس

حارة تضرب رقبته.

سأل الشخص متضرعاً هامساً:

- أتريد أن أحكي لك قصة حياتي؟

لم يجب الفلكي، فواصل المتكلم المجهول كلامه:

- نعم، نعم. سأقص عليك قصة حياتي.

ثم بدأ يحكي بنبرة هادئة صادقة عن سلم كان يرتقي درجاته، وظل يرتقيها حتى حاول الفلكي أن يبعد أُذنه عن الرجل، ولكن المتكلم غير المرئي كان يدرك أن الفلكي قد أبعد أُذنه. قال الفلكي وهو يلجأ إلى لعنة موروثة من لغته:

- ليت لسانك يتوقف!

وكي يتوقف الفلكي عن التفكير في المتكلم الملعون، بدأ يفكّر في أشكال اللعنات على وجه العموم، وكانت في معظمها ذات صلة بالظلال وبالأرض: أتمنى أن تكون رائحتك مثل رائحة الأرض! أو، ليتك تكون بلا ظل! لكن الظلال كانت قد توارت واختفت من دون أي لعنات... وللمرة الأولى في حياته أدرك المغزى العميق للعبارة، وفكّر: أنا بلا ظل، لهذا فأنا ميت!

نطق لسان في مكان ما على مقربة منه:

- أنا البديل!

هنا أدرك الفلكي الصراع بين كائنين يحاولان الوصول إلى أُذنه اليسرى.

سأل أحدهما:

- البديل؟

أوضح الثاني:

- هو رجل في وسعه أن يحل محل طُرسُن باشا لأسباب أمنية!

- يحل محل الباشا؟ أين؟ متى؟

- كلما اقتضى الأمر، غالباً في أثناء الهجمات، ولكن في حالات أخرى أيضاً. على سبيل المثال... نعم، لكنه لا يريد أن يحل محله بديل، لهذا أرسلوني إلى هذا المكان.

- من أرسلك؟

- هم. يبدو أن الشكوك بدأت تساور الباشا، لكنهم هم أيضاً ساورتهم الشكوك... وساورتني أنا أيضاً... وقالوا: يوماً ما ستكون ذا نفع لنا، لكن يجب ألاَّ يراك أحد في هذه المرحلة. ولهذا حلقوا ذقني كي لا أبدو شبيهاً به ورموا بي في هذا المكان...

هتف الفلكي متعجباً:

- إذاً، أنت ظِلُّه؟ هذا هو السبب الذي دفعك إلى صبِّ اللعنات الآن بهذه الحماسة...

فقال الرجل:

- إنه لم يرغب فيّ، وهذا هو السبب الذي يجعلني أتعفن هنا في هذا القبر. هناك العديد من الناس غير المرغوب بهم في هذا المكان، بمعنى، العديد من الرجال الذين صدرت الأحكام بحقهم. كما يوجد مئات غيرهم تحت المراقبة، وآخرون يخضعون للاستجواب، فضلاً عن التعذيب...

سأل الفلكي:

- هل فقدت عقلك؟ أين هم كل هؤلاء الناس؟

فأجاب الرجل:

- في جميع الأنحاء. فنصف مستشفى الميدان تحت إمرة كابدوك آغا، والعديد من الأطباء هم في حقيقة الأمر ممثلو الادعاء، ومن وراء ورشة السبك، وعلى تلك الأرض الخربة... هناك حكم استبدادي. أما الجواسيس فهم منتشرون في كل مكان، بل يوجد بعضهم هنا

فـي هـذه الحفـرة... إننـي كثيـر الحركـة كـي أُغطي آثـار أقدامي. وهكذا سأنصرف...

فكّر الفلكي: نعم، في إمكانك أن تهرول بأسرع ما تستطيع. لكنّ صوت البديل سرعان ما حلَّ محله ذلك الصوت الذي سمعه قبل لحظات من الرجل صاحب السلم.

بذل الفلكي قصارى جهده كي يهرب من الصوت، لكن بلا طائل. تأوه من أعماقه: التهمني! اقضِ عليَّ! غير أن الرجل تحدث بنعومة وكأنه يريد أن يعتذر عن إلحاحه...

- المـرة الأولـى التـي فكّـرت فيهـا فـي العودة كنـت على الدرجة الرابعة من السلم. لكنني طردت الفكرة وواصلت الصعود. عند الدرجة السابعة سقط رجل ميت إلى جانبي. وعند الدرجة الثامنة هاجمتني فكرة الرجوع مرة أخرى وبقوة أعظم، لكنني تمكنت من طردها، ففكّرت في ما سيقوله عني جنودي. وعند الدرجة العاشرة نظرت إلى الأعلى فشاهدت اختلاط الحابل بالنابل فوق الاسـتحكامات. كان مشـهداً رهيباً. نظرت من حولي، فرأيت رجالي يصعدون السلم ورائي. كان يتعين عليهم أن يفسحوا المجال لي كي أهبط وأعود، لهذا واصلت الصعود. ولما بلغت الدرجة الحادية عشرة شممت رائحة جسد يحترق على مقربة مني. كان قفا رقبة الرجل مشـتعلاً، وعند الدرجة الثانية العاشـرة فكّرت في أنَّ ما من أحد سيلاحظني إن تهتُ وسط تلك المعمعة. فاستدرت إلى الجهة الأخرى من السلم، وتشبثت بالدرجة بيدي فقط. أمسكت بإحدى يديّ الدرجة الحادية عشرة، ثم ترنحت كي أمسك السلم إلى الأسفل. وعند الدرجة التاسعة سحق أحد الجنود الصاعدين أصابع يدي، ولدى وصولي الدرجـة الثامنـة أصيبـت أصابعـي بـأذىً أكبر. فمـا كان مني إلاَّ أن أفلتُ يدي، وسـقطت فوق مجموعة من الرجال تكدسـوا عند أسـفل السـور. فكّرت في أن ما من أحد شاهدني، لكنني كنت غير مصيب. فقد كانت

كل حركة من حركاتي تحت المراقبة. ما من شـيء يغيب عن الأنظار. في وقت لاحق نقل إليَّ كل ما جرى بأدق التفاصيل. للأمانة، إنَّ فكرة التخلي عن الذهاب واتتني حالما وصلت الدرجة الثانية. على نحو أدق، فإنني قررت عند وصولي الدرجة السابعة أن أهبط إلى الأسفل، لكنني لم أكن قد فكّرت بعد في كيفية تحقيق ذلك. عند الدرجة الحادية عشرة فكرت في أن أتظاهر بأنني ميت وأن أسقط، لكن علوّ المكان أرعبني. وعندئذٍ شممت رائحة الجسد المحترق... ألا تصغي إليَّ؟ أتبكي؟ انظر! كان من شأني أن أروي لك قصة حياتي في كل الأحوال. لكنني أرغب الآن في إضافة بعض التفاصيل القليلة. أصغِ إليَّ! لكن إن وجدتَ أنها تتبعك، فإنني لن أشعر بالإهانة إذا ما...

واصـل كلامـه مـن دون انقطـاع بصـوت هـادئ منخفض، وكان لا يزال يحاول أن يتذكر في أي درجة يقف تماماً عندما فكّر للمرة الأولى فـي العـودة وفـي أي مسـتوى اتخـذ قراره الفعلي بالهبوط إلى الأسـفل. بدا الرجل يواصل باستمرار كلامه، متردداً، ومنقحاً ما سبق أن ذكره، فـي محاولـة منـه أن يكـون دقيقـاً قدر الإمـكان، آملاً أن يكون موضوعياً وصادقاً إلى أبعد حدّ ممكن في استبطانه النقدي.

تخيـل الفلكـي فـي بعـض الأحيـان أنَّ جـزءاً من حيـاة الرجل بات مرتبطـاً بحياتـه علـى نحـو يتعذر معه الخلاص منه، وبذل قصارى جهده للخلاص مثل إنسان يحاول الهرب أمام مدٍّ هائج بلا طائل. بين الفينة والفينـة، توقـف الصـوت أو خبـا وأصبح أكثر استغلاقاً واستعصاءً على الفهم فيما بدأ صوت آخر يرتفع فوقه. كانت الأشـياء تتهاوى بسـرعة، وما يشبه النضح اللزج الأسود يرتفع داخل كل واحد، أو يزحف نحوه. ولم يعد الفلكي يدري إن كان لكل من بوله ومنيه وجود مستقل بذاته، وبدت رئتاه وطحاله كأنها آخذة بالتحلل، وتحول كل شـيء إلى شـيء آخر، وها نحن قد انصهرنا في جسد واحد... ولن يمضي وقت طويل

حتى تصبح الجماجم ناعمة وتترك الأدمغة تنز وتتسرب. وتلك هي النهاية، كما ظن الفلكي.

أعلن الصوت:

- إن الباشا الحقيقي هو أنا.

فصاح الفلكي:

- هل عدت أيها الحقير؟

لكن الرجل تظاهر بأنه لم يسمعه.

- لقد ساورني الشك منذ دهور، لكنني الآن متأكد من ذلك. فأنا طُرسُن باشا! أما الشخص الآخر الموجود على سطح الأرض فهو بديلي. لكننا نتبادل الأدوار غالباً، لقد تبين أنه الأذكى بيننا نحن الاثنين، وقد أطاح بي! بكلمات أدق لقد فعل بي ما كان ينبغي لي أن أفعله به!

احتج الفلكي قائلاً:

- ما الذي تتكلم عنه؟ فأنت لا تملك الحق في أن يجنَّ جنونك بمفردك...! ألم نتفق على البقاء معاً حتى النهاية؟

- لا تقاطعني! لقد ثبتت صحة شكوكي... ولا بد لأحدنا من أن يسقط. لكن لا يتعين عليك أن تصاب بالدهشة لسوء حظي، فقد حدث الشيء نفسه لنا كلنا. لقد أصبحنا تحت الأرض، لكننا نحن الرجال الحقيقيون والأصليون. أما الموجودون على سطح الأرض، فهم لا شيء، إنهم مجرد أشباح وأطياف... على كل حال، لا بد لي من الذهاب الآن... ثمة جواسيس يقتفون أثري!

- اذهب! اذهب إلى تحت الأرض!

ازداد صوت النغمات والابتهالات هدوءاً، لكن الإجهاش بالبكاء بين وقت وآخر كان يقطع الهمهمة. كما قل عدد الصرخات المدوية، وكانت آخر صرخة يسمعها قد جاءت من مكان بعيد، أو، وهو ما بدا له، من نهاية النفق.

زعق شخص ما:

- لا أريد أن أسمع قصة حياتك! لا أريد! إنَّ حياتي آخذة بالتلاشي، فلماذا يتعين عليَّ أن أسمع كل شيء عن حياتك؟ لا، لا أريد أن أصغي. أقول لك اغرب عني. لماذا تتشبث بي على هذا النحو. لا أريدك. هل تسمعني؟ لا أريدك! لا أريدك!

فقد المتكلم أعصابه، ثم انتابته نوبة بكاء عنيف سرعان ما سرت إلى الجميع، وأضاف البعض منهم لحنه الجنائزي الحزين:»يا لشقائنا!«.
فجأة تناهت إلى الأسماع صرخة مفاجئة وسط الآهات والعويل:

- القائد العام!

لقد هبط طُرسُن باشا قادماً من عالم الأحياء. وتمكن الفلكي من معرفة القائد العام على ضوء فانوس من فوانيس النفق الذي استطاع شخص ما بطريقة ما إذكاء ناره. كان صوت القائد العام يشبه صوت بديله، وكان لديه الوقت الكافي كي يترك لحيته تنمو مرة أخرى. وتساءل: يا الله! كم مضى علينا من الوقت ونحن هنا؟ ثم أجاب بنفسه: ما يكفي من الوقت لنمو لحية. إن سماع مثل هذه الأفكار من شأنه أن يثير هلع الناس الموجودين على سطح الأرض، شرط أن تصل الأفكار إلى ذلك المكان.

حيَّا الباشا الحاضرين واحداً إثر الآخر، مُظهراً مودة أكبر تجاه أولئك الذين يعرفهم من قبل. وسأل أُولوغ بيه إن كانت لديه رسالة يوصلها إلى أمه وزوجته. ثم أخبر رجلاً آخر بأنباء عن أقربائه. وعندما انطفأ الضوء قال من دون أن يوجه كلامه إلى شخص محدد:

- السلام عليكم.

فردُّوا عليه:

- نتمنى أن نلتقيك في الفردوس!

أمسك الفلكي بأصابعه القطعة البرونزية التي تحمل النجوم الثلاث.

حاول أن يدفع بنفسه وسط التراب ليصعد إلى الأعلى بقوة التفكير ليس إلاَّ، لكنه لم يفلح: فقد جعله الظلام والتراب جزءاً من إمبراطوريتهما. فبدأ يبكي. وحاولت صور لأصدقاء ولنساء ولشوارع مزدحمة صاخبة ولأبواب اصطدم بها أن تتشكل في سلسلة متماسكة بهذا القدر أو ذاك في ذهنه، لكن من دون جدوى.

دوَّت وسط العويل ضحكة رجل فقد عقله، وحلَّقت في المكان مثل طير أعمى. أمر الفلكي عقله: هيَّا! اترك هذا الجسد، فلم تعد بك فائدة له بعد الآن. تكلم البعض بأصوات ثملة عن الندم الذي لا بد من أن الناس يشعرون به فوقهم، فيما صحا آخرون للحظة ثم انفجروا باكين. لكن هناك آخرين رفضوا أن يكونوا منكسري الخاطر، وتخيلوا أنفسهم وكأنهم قاهرو الخواء، فأصبحوا بذلك أقوى من أي شيء آخر على الأرض.

وقالوا:

- إن ملكة... إلى جانبنا.

أما الفلكي فقد أفلح في منع نفسه من الصراخ بصوت عالٍ: «إنني أجنبي في هذه البقاع، لذا، اتركوني وشأني!»، ثم لوَّح بقطعة إثبات هويته الشخصية أمامه... لا بد من الاعتراف أنه ارتكب هفوات، لكن من المؤكد أن الإمبراطورية الأرضية يمكن أن تعطف عليه. ولا يمكن خلاصه الآن إلاَّ بالجنون. ناشد عقله طلباً للرحمة: «لقد أرهقتني، لذا اخرج من جمجمتي الآن!»، لكن عقله أبى أن يطيعه!

* * *

في السادس والعشرين من شهر تموز قررنا أن ينهار النفق. في البدء، تأكدنا أنهم توقفوا عن الحفر، مما يعني أنهم سيحاولون القيام بعملية الاختراق في تلك الليلة أو في اليوم التالي على الأكثر. وقررنا أن نبدأ عملية الانهيار قرب الأسس قدر الإمكان، وفي منطقة يكون فيها النفق قد وصل أعمق نقطة تحت الأرض، ليضمن الثقل الأعظم من التراب الكائن فوقه تدمير العدو الجاثم فيه تدميراً شاملاً.

بعد الانهيار واصلنا مراقبة سطح الأرض على امتداد النفق كله. لكن الرجال الذين دُفنوا أحياءً لم يحاولوا حتى فتح ممر للنجاة، كما لم يأتِ أحد من الخارج لإنقاذهم. على كل حال، من العبث الذي لا طائل منه محاولة القيام بمثل هذا العمل.

في البدء، لم نسمع أي جلبة قط، ونادراً ما كنا نصدق أن عشرات من أفراد الهندسة العسكرية والجنود المدججين بالسلاح كانوا تحت أقدامنا على عمق لا يزيد على القامتين. لكن الصمت لم يستغرق سوى بضعة أيام، إذ كان في إمكاننا أن نسمع بعد ذلك، وبخاصة في أثناء الليل عندما نضع آذاننا فوق الأرض، صراخاً وعويلاً، غير أنَّ ما من أحد كان في ميسوره أن يخبرنا بما يحدث حقاً في جوف الأرض. وفكرنا أنَّ أفضل وسيلة هي تركهم يموتون حيث هم. فلو تركناهم يخرجون، فلن تكون لدينا الوسائل لإبقائهم في الحبس، لأننا حتى من دونهم، لا نملك إلا القليل من إمدادات الماء والغذاء. ولو كانت الظروف غير هذه الظروف لطلبنا مبادلتهم بالمصابين من أفرادنا الذين هم في أيدي العدو وربما لا يزالون على قيد الحياة، أو ربما يتخلَّون عن سجنائنا لقاء فدية. لكن بعد الفظائع التي ارتكبت في حق نسائنا اللواتي أسروهن، ثارت ثائرة رجالنا. فنحن لم نتغير فحسب، وإنما على الأرجح لن نعود إلى ما كنا عليه سابقاً. لقد ازدادت مرارة الكثيرين منَّا بسبب الموت وفقدنا كل رغبة في العفو عنهم والرأفة بهم.

لمّا بدأت آهاتهم تتلاشى ابتهل إخواننا، بالرغم من ذلك، من أجل أرواح

أولئك الرجال الذين لم يحالفهم الحظ. فعلى مدى العديد من الليالي المتوالية، أشعلنا الشموع وأحرقنا البخور فوق مسار النفق. وبالرغم من هذا، فقد أصبنا بالأرق، وحتى الذين استسلموا للنعاس، سرعان ما استيقظوا وهم أكثر إرهاقاً من أولئك الذين هجرهم النوم بسبب الأهوال التي شاهدوها في أحلامهم. بل إنَّ بعضهم بدأوا يرتابون في أن الأتراك حفروا النفق بهدف واحد ألا هو حفظ موتاهم تحت أقدامنا.

* * *

الفصل الثامن

كانوا مستلقين على أسرة معسكرهم، متكئين على مرافقهم، والجو كان خانقاً داخل الخيمة. وبالرغم من خفة ثيابهم، فقد وجدوا الحرارة لا تحتمل.

قالت ليلى:

- لا بد من أنَّ الجو خارج الخيمة أكثر برودة منه داخلها. كما أن الحرارة داخل الخيمة إما أشد أو أقل منها خارجها.

كانت المرأة الوحيدة التي شاركت في حملات عسكرية. كان سيدها، وهو أحد الوزراء، قد اصطحبها معه في حملة تساليا(*)، وفيها لقي مصرعه. كان أول فعل أقدمت عليه، وهي أرملة شابة، أن فرَّقت الحريم بحسب مقتضيات العادة، فباعت الفتيات بسرعة غير معهودة، وحددت أسعارهن بما يوازي قيمة عنزة، كأن تفريقهن لم يكن كافياً للتعبير عن ضغينتها تجاههن.

أخبرت ليلى قصتها لرفيقاتها الشابات في ليلتها الأولى التي انضمت فيها إلى الحريم، مما دفع بعضهن لتسميتها باسم السيدة العنزة أو الماعزة، بحسب دفء علاقتهنّ. وفي الأسابيع الأخيرة ازداد قرب النساء من بعضهن بعضاً بسبب حالة العداء المحيطة بهن كما يبدو.

قالت بلوندي (التي سميت بهذا الاسم نظراً إلى لون شعرها الأشقر) وهي قريبة من ليلى:

- أُفٍّ! الحرارة خانقة! أين حسنٌ؟ عليه أن يأتينا ببعض الماء لننعش أنفسنا!

(*) **تساليا**: منطقة في شرقي اليونان تطل على بجر إيجة، من مدنها لاريسَّا وفولوس. (المترجم)

ضحكت الأخريات بسبب لكنة بلوندي التركية الركيكة وهنَّ يدركن إدراكاً جيداً أنَّ الماء لن يكون منعشاً لمدة طويلة.

لم تنبس أصغرهن إيجر بكلمة، وبقيت جالسة خارج المجموعة، على غير عادتها، شاحبة الوجه، شعرها مضفور بغير انتظام.

سألت ليلى:

- هل بدأتِ تشعرين أنك غريبة؟

- نعم.

- لا بد من أنَّ السبب هو ذاك.

حملقت فيها إيجر.

فقالت آيزيل:

- لقد مررت أنا أيضاً بوقت عصيب. آه، إنني أفتقد ابنتي الصغيرة! ستبلغ العامين بحلول فصل الخريف. هل ترانا سنعود في ذلك الوقت؟

أجابت ليلى:

- لا أظن ذلك. وإذا ما أخذنا في الاعتبار سير الأحداث حتى الآن، فإن الحصار سيستمر زمناً طويلاً.

قالت آيزيل:

- وكان حملي صعباً أيضاً.

فأوضحت ليلى:

- لكنك تبدين جميلة بعد الولادة. فعندما كنت حاملاً ظننا عندما نظرنا إليك أنه سيبيعك بعد ذلك. كنا نرتكب غلطة كبيرة.

ضحكت آيزيل ضحكة حالمة، ونظرت حولها إلى جميع رفيقاتها، ثم قالت بصوت أكثر رقة:

- أترغبين بمعرفة سبب حبه لي؟

التفتن كلهن لينظرن إليها نظرة تنم عن حب استطلاع. كما أن الفتاة الشقراء توقفت عن تحديقها إلى السجادة ووضعت يدها تحت ذقنها.

- حسناً، لأن لدي الكثير من الحليب. فعندما كان يعانقني، فإنه يجفل لإحساسه أن صدره قد تبلل.

سألت إيجر بدهشة كبيرة:

- هل هذا صحيح؟

- نعم، صحيح. فعندما أستلقي وإياه في الأمسيات كان يخبرني ألاَّ أُرضع ابنتي كي...

- لماذا لم تخبرينا بهذا الأمر من قبل؟

- كنت أخجل.

هزت آيزيل كتفها.

سألت إيجر:

- وهل سيكون عندي حليب وفير؟

ضحكن كلهن.

- مَن يدري؟

وقالت آيزيل:

- لن تُوقعي رجلاً في شباكك بحليبك.

- إذاً، ما السبب؟

- الله وحده يعلم...

نظرن إلى ليلى. فهي قد شاركت من قبل في حملات عسكرية، كما أنها المرأة الوحيدة التي عرفت رجلاً آخر. لهذا بدت لهنَّ أنها الأكثر حكمة في كل الظروف.

قالت:

- الرجال هم أعظم لغز في العالم. إنني... إنني... الحق أنَّ حلمي

الأكبـر يتمثـل دومـاً بـأن أكلِّـم رجـلاً... أن أتحـدث إلـى رجل... لا أن أعاشـره، بـل الحديـث وإيـاه، علـى مـدى سـاعات إلى مـا لا نهاية، إلى الفجر... إلى أن يعجز المرء عن الكلام تماماً...

لكن آيزيل اعترضت:

– ماذا تقولين؟ ألم تتكلمي مع زوجك الأول؟

– لا، كان متجهماً كَليلٍ بهيم. أما هذا الزوج الآخر، فهو لم يكلمني إلاَّ مرة واحدة. لكن هل تعلمن عن أي شيء تكلم؟ إنني أُصاب بالهلع لمجرد تذكر ذلك الكلام. حسناً. سألني عن كيفية معاشرة الرجل الآخر لي.

– حقاً؟ وهل أخبرته؟

– نعم، أخبرته. كنت أرتعد من شدة الخوف، وظننت أنه سيقتلني بعد ذلك، لكن العكس هو الذي حدث، وكان ذلك أمراً غريباً، إذ ازدادت محبته، أو ربما أنا ظننت أنه عاملني برقة فيما توقعت منه أن يغضب.

قالت إيجر:

– جميل. والآن أخبرينا عن شيء آخر.

– مـا الـذي تريديـن منـي أن أخبـرك إياه؟ لقد حدثتكن تواً عن كل ما عندي.

كانت حقاً قد أخبرتهن بكل شيء...

ثـم تجاذبـن أطـراف الحديـث عن مراحل أخـرى من حياة الحريم وشعرن بالدهشة لأنهن رغبن في الرجوع إلى بيوتهنّ في مدينة بورصة بمثـل هـذه السـرعة. وتذكـرن ليلتهـن الأخيرة فيهـا، التي لم يغمض فيها جفن لأي واحدة منهن. وانتاب اللواتي بقين في بيوتهنّ إحساس بالحزن وهن يشاهدن صديقاتهن يرحلن، فيما خابت آمال الأخريات لأنهن لم يُخترن لمرافقة الحملة.

قالت ليلى لأجل خاطر كل من إيجر وبلوندي:

- كنت أعلم أننا كنا ذاهبات إلى الحرب، لكنني لم أرغب بإفساد متعتكن. وأنت يا إيجر كنت في منتهى السعادة، وظللت تسألينني عن شكل الحرب ولم تكوني قادرة على انتظار الحرب حتى الصباح.

- ربما لأن ذلك الرجل ولد وسط الآلام والدماء، لذلك فهو يميل ميلاً طبيعياً إلى جعل حياته كلها قضية مخضبة بالدماء.

- وأنت، ماذا ستفعلين في المرة القادمة يا آيزيل؟

- مَن يدري كيف ستنتهي هذه الحرب؟

فأجابت ليلى:

- وكيف تدرين؟ لتكن مشيئة الله. لكن مهما كانت النتيجة، فإنها لن تغير الأشياء كثيراً عندنا. فلو حالفه النصر، فسيحصل على ترقية ويستحوذ على ثروات جديدة ويشتري نساء أخريات وستكون لدينا صديقات جديدات.

هتفت إيجر مندهشة:

- آه! سيكون ذلك ظريفاً!

- لكنه إن خسر الحرب، فسيبيعنا أيضاً، ومن يدري ما هو مصيرنا بعد ذلك. ربما أحسن، وربما أسوأ.

قالت إيجر مرة أخرى:

- آه، سيكون ذلك ظريفاً! إنني أحب أن أغيِّر سيدي!

قالت ليلى:

- اسكتي أيتها الغبية! فقد يسمعك المخصيُّ.

ولولت الفتاة الشقراء:

- أين ذهب حسنٌ؟ يا ليته يأتينا ببعض الماء.

قالت آيزيل:

- أعتقد أنهم يخططون لقطع الماء عن القلعة، فقد سمعت حسن

يتحدث عن ذلك مع خفير يوم أمس.

انتهت ليلى إلى هذا الرأي:

- حقاً؟ إذاً، ستضع الحرب أوزارها عما قريب. مَن يستطيع الصمود بلا ماء في مثل هذا الحر؟

سألت إيجر:

- لكن، كيف سيقطعون الماء؟

فأجابت ليلى:

- كيف؟ هم عادة ما يفتشون عن مصادر المياه، وعندما يعثرون على القناة، يدمرونها.

قالت آيزيل:

- هذا صحيح! لقد كانوا يتحدثون عن قناة ماء لم يتمكنوا من تحديد موقعها.

- الحمد لله أن لدينا حسناً، فهو يأتي إلينا بالأخبار من الخارج في أغلب الأحيان.

أبدت آيزيل ملاحظة:

- في ليلة أول من أمس، وفيما كان يتجول وسط الجنود، سمع الرجال يقولون إن المفتي يعترض علينا.

- المفتي؟ وما شأنه بنا؟

- يزعم أننا نجلب الحظ النحس.

هتفت ليلى متعجبة:

- شيء مألوف وسرعان ما سيقولون إن الغلطة غلطتنا إذ لم تسقط القلعة.

صاحت الفتاة الشقراء بصبر نافد:

- آه يا الله! ساعدنا على الخروج من هنا بأسرع ما يمكن.

فأجابت إيجر مناكدةً:

- أنت لا تتشوقين إلا إلى العودة إلى جيزيل!

لكن الفتاة الشقراء لم ترد عليها، بل تورد خداها قليلاً، ثم التفتت وهي تشعر بالحرج.

قالت آيزيل:

- توقّفن عن مثل هذا المزاح. ففي وسع حسنٍ أن يسمعكن. أتذكرن ما حدث عندما ضُبط كيكي متلبساً مع الفتاة اليونانية...؟

قالت إيجر:

- لم أتنبه إليك بعد. ما اسم المستنقع الذي غرقا فيه؟

- آمذي باتاك، وهو المكان الذي تُعاقب فيه عادة الزوجات الزانيات. ويمكنكن سماعهن وهنّ يصرخن طوال الليل.

كررت إيجر متأملةً:

- زانيات؟ يا لها من كلمة غريبة!

وكررت آيزيل:

- لن أنسى تلك الليلة أبداً!

صاحت إيجر:

- وأنا لن أنسى هذه الخيمة أبداً حيث يطبخوننا ونحن أحياء!

أجابت ليلى بنبرة حادة:

- لا تشتكي. ثمة ما هو أسوأ.

- وما هو الشيء الأسوأ من هذه الخيمة؟

قالت ليلى بإصرار:

- آه! هناك أشياء أسوأ بكثير: الوقوع في أسر العدو على سبيل المثال.

أشرق وجه إيجر:

- أنا لم أقع في الأسر قط!

فوبَّختها آيزيل:

- اسكتي أيتها الغبية! ماذا لو سمعك المخصيُّ؟

احتجت ليلى:

- أتريدين حقاً الوقوع في الأسر؟ هل نسيت ما أخبرنا به حسنٌ عن الفتيات الألبانيات اللواتي أتى بهن المغاوير قبل أسبوعين؟ لم يبقين إلا ليلة واحدة في معسكرنا. وعند بزوغ الفجر، كُنَّ قد فارقن الحياة!

أحنت إيجر رأسها.

فاستطردت آيزيل:

- لقد شاهدهن حسنٌ. فقد نهض من نومه قبل طلوع الفجر، وخرج يتنشق بعض الهواء النقي. ولدى رجوعه تعثر بحوض غسيل فأيقظني. لقد جاء ليقول لي: «لقد رأيتهن يا آيزيل هانم. إنهن شاحبات، بيضاوات مثل بياض الورق».

- مسكين حسنٌ! إنَّ فؤاده لا يستطيع رؤية امرأة معذبة.

فجأة أجهشت إيجر بالبكاء.

فقالت ليلى:

- كفى يا آيزيل. لا يمكن لإيجر أن تسمع مثل هذه القصص وهي في مثل هذه الحالة.

لَزِمنَ الصمت فيما واصلت أصغرهن البكاء، وتكلمت المرأة الشقراء معبرة عن رأيها، وهي تمرر يدها في شعرها: أُفٍّ! سأنفجر!

أما المرأتان الأخريان فقد كانتا تبردان وجهيهما بأقوى ما يمكنهما.

همست آيزيل في أُذن ليلى:

- أخبرني حسنٌ بفظائع أخرى. ففي الليلة التالية أراد الجنود أن ينبشوا قبورهن. هل سمعت في حياتك عن رجال يستمتعون باغتصاب جثث النساء؟ لقد نسيت الكلمة المستعملة في مثل هذه الحالة. حسناً، وفي منتصف الليل...

قالت إيجر:

- أعتقد أن حسناً قادم، فأنا أسمع صوت وقع قدميه.

وظهر المخصيُّ للعيان.

قلن في صوت واحد تقريباً:

- أين كنتَ؟ كيف تتركنا وحدنا في هذا الفرن؟

أجاب حسنٌ:

- كنت أُراقب مهندسينا وهم يحاولون العثور على مسار الماء. لقد غطوا السهل بحفر صغيرة، لكن القناة لا تزال خفية.

لمَّحت ليلى بالقول:

- ربما لا يفتشون في المكان الصحيح؟

كانت ليلى هي الوحيدة من بين النساء الأربع التي سمعت عن مثل هذه الأشياء من قبل، بالرغم من أن الحملة السابقة التي رافقتها لم تكن بحاجة إلى اتخاذ مثل هذه التدابير.

قال المخصيُّ:

- إن جنود الهندسة العسكرية يحفرون حيثما يخبرهم جاور أن يحفروا، إذ يُفترَض أنه يعرف كل أسرار الأرض والماء.

صاحت الفتاة الشقراء:

- تكلم، تكلم يا حسنٌ. أسرع بجلب الماء!

فأجاب المخصيُّ:

- حالاً يا سيدتي.

خرج حسنٌ، وتناهت إلى المسامع أصوات قعقعة الدوارق الفارغة وهي تبتعد.

كانت إيجر تسند رأسها إلى مرفقها.

سألتها آيزيل:

- كيف حالك؟ أتريدين التقيؤ مرة أخرى؟

- نعم.

- لقد شحب وجهك مرة أخرى.

سألت ليلى:

- هل يعلم أنك حامل؟

- لا بد من أن حسناً قد أخبره.

أبدت ليلى ملاحظة:

- لديهم ضعف لا يستطيعون مقاومته إزاء حمل النساء في أثناء الحملة.

تكلمت وكأنها تحلم أحلام يقظة. وكانت توشك أن تضيف شيئاً آخر، لكنها أمسكت عن الكلام.

سألت إيجر:

- وما سبب ذلك؟

لم تجب عن سؤالها إجابة مباشرة، لكنها واصلت:

- وبخاصة إن كان الحمل بولد...

سألت إيجر مرة أخرى:

- ما السبب الذي يدفعهم لهذا الولع الشديد بمثل هؤلاء الأطفال؟

خفضت ليلى ناظريها وقالت:

- لا أدري حقاً، لكن ربما يرجع ذلك إلى أنهم يولدون وسط الدمار والموت اللذين ترتكز عليهما مجمل حياة آبائهم. أو ربما يكون السبب هو أنهم بنشرهم الحزن في جميع الأرجاء إنما يجرُّون على أنفسهم ديناً على الحياة، ولهذا يشعرون بالغبطة إذا ما تمكنوا من إعادة جزء بسيط مما أخذوا.

أوضحت آيزيل:

- إنه متجهم في هذه الأيام. ألم تلحظن ذلك؟

- هذا صحيح. إنه لا يبتسم أبداً.

هتفت إيجر:

- لكنني أهوى الرجال الغامضين.

أضافت آيزيل:

- لديه مشكلة في أذنه. فقبل أسبوع، وفيما كان...، فإذا به يضع يده على أذنه اليمنى. ولـمّا سألته عمَّا به، أخبرني بأنه يسمع طنيناً في رأسه.

قالت إيجر:

- كيف يمكنه أن يتجنب حدوث مشكلة في سمعه وسط كل ضجيج المعركة وقرع كل تلك الطبول؟

اعترضت ليلى:

- لكنني لا أظن أن ذلك هو السبب الذي يدفعه لأن يكون نكداً، وسيئ الطبع. إنَّ سبب اكتئابه هو نتيجة معركة تبدو بلا نهاية.

أضافت إيجر:

- كما أن انهيار النفق أزعجه كثيراً.

- النفق؟ لقد أثَّر فيه بلا ريب. الحق أن كل شيء بدأ بذلك كما أظن...

تناهت إلى الأسماع أصوات قرقعة الدوارق وهي تقترب. لقد جاء المخصيُّ، فهرعن إليه حال دخوله الخيمة.

صاح حسنٌ بهنَّ:

- صبركنَّ أيتها الفاتنات!

أخيراً أفلح حسنٌ في دفعهنَّ صوب مقصورة في الخيمة تستعمل حماماً بخارياً. وامتزج ضحك النساء مدة طويلة من الزمن بصوت الماء المسكوب.

ولما شعرن بالراحة، رجعنَ إلى الخيمة الرئيسة وبدأن يمشِّطن شعرهن.

وقالت ليلى:

- قصَّ علينا يا حسنُ كل الأخبار!

كانت طلاقة لسان حسنٍ في أقصى درجاتها بعد الحمام، فقد أخذ يتحدث عن كل ما كان يخطر بباله، بلا أي ترتيب، كان حديثاً متداخلاً. وكان الناس في جميع أرجاء المعسكر لا يتكلمون عن أي شيء سوى المحاكمة المرتقبة للفلكي، إذ يفترض أن يكون هو المسؤول الرئيس عن إخفاق الهجوم الأول. وقد وصل المعسكر أناس واسعو الاطلاع من قصر اللعنة الكبرى في العاصمة يحملون معهم أدوات وخيوطاً قصيرة يُراد استعمالها للتثبّت من خطيئة الرجل. استعملت مقاييس معينة مناسبة أقنعت هؤلاء القادمين بأن الفلكي لم يكن موفقاً في توقُّعاته. وكانت إشارة اللعنة التي بحجم راحة الكف دقيقة دقة إطلاق سهم، لأن أدنى خطأ في تسديد الهدف يزيد من الخطورة كلما طار السهم إلى مكان أبعد. لهذا، فعندما وصلت اللعنة إلى القلعة انحرفت في مسارها عن السور الأيمن وتبدّدت معظم قوتها في الفضاء الخاوي وسقطت على الأرض في غابة بعيدة من غابات شجر الزَّان، أو في أحد المروج، وبعدها ستتلاشى في بحر سنتين من الزمان. لكن مَن سيستفيد منها؟

فالقلعة ستظل بمأمن.

تنهدت إيجر:

- لا بأس يا حسنُ! لكن هذه قصة معقدة جداً.

فأجاب المخصيُّ:

- لحظة! إنَّ الأمور أشدُّ تعقيداً مما قد تبدو. بادئ ذي بدء، فقد حامت الشكوك حول الفلكي بخصوص ارتكابه خطأ ينم عن جهل مطبق، لكن الشيء الذي نعلمه الآن هو أنَّ أي شيء من هذه الأشياء لم يحدث مصادفة... أولاً فقد اعترف معاونوه تحت التعذيب، ومن ثم هو شخصياً، بأنهم تصرفوا عن سابق دراية ومعرفة، وأنهم يتعاونون تعاوناً وثيقاً مع أعداء الدولة، وأن هناك شائعة تفيد بأنهم زرعوا رجالهم في مجلس الحرب. وإذا كان ذلك قد خفي كله عن الناس، فإنما سببه يرجع إلى الرغبة في إيهام الخونة بأنهم في أمان وبعده - طاق!- يُطبق الفخ عليهم كأنهم جرذان.

قالت ليلى:

- مهلاً يا حسنُ! ما الذي يدفعك لإثارة مللنا بكل هذا الأمر المشين؟ اذهب وأحضر لنا قليلاً من عصير الفاكهة بدلاً من ذلك، فنحن ظِمَاء.

لكن إيجر قالت بإصرار:

- احكِ لنا عن أشياء مسلية أكثر من هذه!

- مسلية؟ الجيش كله يتكلم عن كورديسجي وقره دومان!

لقد اهتم الاثنان بصبي واحد وهما في عداء مستحكم...

هنا غضت النساء الأربع في آن واحد تقريباً أنظارهن التي شابتها مسحة حزينة سببها ذلك الفعل المنفر الذي يظل بالرغم من ذلك محتفظاً بقدر من الجمال الخفي.

واصل حسنُ كلامه الذي لا يقف عند حدٍّ عن توافه الأمور، ولكن

قلما أبدت النسوة اهتماماً بعد ذلك، فقد تحولت أذهانهن إلى أفكار عن مشاجرة تافهة يكنَّ هنَّ موضوعها. لقد كنَّ واعيات وعياً تاماً بأن اندلاع مثل هذا الخلاف يُسَوَّى في الميدان مع قعقعة السيوف، بل في السوق، وبحسب السعر ورنَّة النقود الفضية.



شمس تُكِفُّ البصر، تتدفق إلى الأسفل وكأنها مسددة نحونا فجأة. ما من سحابة تحمينا، ولا حتى مسحة من ضباب في السماء. يبدو أننا تُركنا وحدنا تماماً، ولم يعد الخفافيش يرون جنيات أو أشباحاً. أتراها ربما تستريح في مكان ما فوق إحدى التلال؟ تبدو السماء منذ طلوع الفجر كأنها خاوية.

وإلى الأسفل، حيث يمتد السهل، كانوا يحصدون القمح قبل حينه، فكانت المناجل تلتمع عن بعد بوهج نفّاذ ومخيف كأنها لا تسقط فوق السنابل، بل فوق رؤوس البشر. إننا نحن الذين زرعنا البذور ولم نُؤمِّل يوماً ما بحصادها، لذا، نشعر بانكسار الخاطر. فها هي تلك الحقيقة الساطعة: إنَّ شخصاً يزرع وآخر يحصد. إن المنجل الذي لا نستعمله بأنفسنا قد سقط على العالم كأنه يسقط يوم الرؤيا.

السهل المحيط بالقلعة تنتشر فيه الآن الحفر والخنادق المعتمة التي حُفرت بحثاً عن قناة الماء. أما قائد البحث، وهو معماري يسمونه النصراني، فهو ذكي بما يكفي كي يخمن مباشرة عند عثورهم في اليوم الثالث على قناة الماء أن تلك القناة قديمة، ولم تعد قيد الاستعمال، فأمر بمواصلة العمل إلى أن عثروا على قناة أخرى وهي القناة الصحيحة.

لكن لا أحد يعرف، ولا حتى نحن، مجرى القناة الصحيحة، وكل ما نعرفه هو أن أحد اهتمامات جورج كاستريوني الأولى كانت شق قنوات جديدة كي توفر الماء لجميع قلاعه. ولغرض الإبقاء على مواقعها طي الكتمان، فقد حفر السجناء الخنادق. وانتهى بهم المطاف في العام الماضي إلى شق متاهات من القنوات والأنفاق حتى لم يعد في وسع أحد أن يحدد القناة التي تأتي بالماء إلى القلعة. وربما ما من قناة من هذه القنوات هي التي تأتي بالماء، وأن القناة التي تؤدي وظيفتها هي قناة مختلفة تماماً، وأنها قناة خفيَّة. لقد بنى العدو كل أحلامه على اكتشاف المصدر الحقيقي لمياهنا. لكن بما أننا لا نعرف نحن المصدر الذي تأتي منه مياهنا أو سبيل وصولها إلينا، فإننا نعتقد أن ما من شخص آخر سيتمكن من معرفة ذلك. لكن هذا

النصراني المثير للهلع يظهر بالرغم من ذلك في أحلامنا، لهذا بدأنا نحفر بئراً عميقةً أسفل سجن قلعتنا خشية أن نواجه أوقاتاً أشدَّ صعوبة من هذه الأوقات.

لقد مرَّ شهران تقريباً ونحن تحت الحصار. لقد أرهق مرأى العدو عيوننا، فهم يتجولون في آلاف الخيام المنتشرة على امتداد السهل تحتنا؛ هناك حشود لا نهاية لها تتحرك باستمرار. من أين أتى كل هذا الحشد الهائل؟ كيف يستطيع أحدهم الاتصال بالآخر؟ وكيف يتعاونون؟ إلى أين يذهبون؟ ولأي سبب؟ يقول الذين زاروا بلادهم إنَّ النساء هناك قليلات، قلما يراهن أحد. إذاً، مَن يُنجبهم؟ هل هم أطفال الصحراء؟



الفصل التاسع

كان جلبي مصاباً بالغيرة من الرجال الشبه عراة المستلقين خارج خيامهم. الحرارة خانقة، ولولا التقاليد والأصول لراقه خلع ثيابه.

عملياً، الجنود يجهلون من يكون، مثلما كانوا يجهلون وجود موثِّق بينهم مهمته تخليد الملحمة. وبسبب ثيابه التي كان يرتديها، فقد ساور البعض الظن أنه ربما يكون طبيباً أو فلكياً. لكنّ هذا الأمر لا يدعو للاستغراب أو العجب لأن معظم الجنود لم يعرفوا حتى كلمة تاريخ.

وسأل زمرة من الجنود:

- ما معنى هذه الطبول؟

أجابوا من دون أن يرفعوا أبصارهم إليه:

- قطع الرؤوس!

كان الناس قد احتشدوا حول ساحة مكشوفة بين الخيام تُنفَّذ فيها الإعدامات عادة. ولما لم يكن لدى جلبي ما هو أفضل ليفعله، فقد انضمَّ إلى تلك الحشود. في صباح ذلك اليوم، خرج ليتمشى فوق السهل المحيط بالمعسكر. المنظر آسر، غير أنَّ القنوات والخنادق التي حفرت في الأرض أفسدت عليه نزهته. فقد كانت تصادفه في أثناء سيره هنا وهناك سهام لا بدَّ من أنها سقطت في معارك حديثة. انحنى ليلتقط واحداً منها. لم يكن قد أمسك بيده من قبل سلاحاً، وبدا له أمر غريب أن يُسبب عودٌ من الخشب برأس حديدي صغير موت إنسان.

سأل جلبي جندياً آخر بعد مسافة قصيرة:

- من سَيُقطع رأسه؟

أجاب الجندي بهزة من كتفيه:

- ليست لدي أي فكرة. جاسوسان كما أظن.

واصل الطبل قرعه كي يتجمع الناس. وكان في الإمكان سماع صوت مبعوث من بعيد، ولاحظ جلبي القوام الفارع لسالم وهو يتقدم نحوه برفقة شخص آخر.

حيَّاه الطبيب:

- حسناً، كيف حالك يا مولى؟ كيف حال التأليف؟

انحنى موثِّق الحملة إلى الأسفل.

وقال سالم مشيراً إشارة تعريفية إلى مولى وإلى الرجل الآخر:

- هل يعرف أحدكما الآخر؟ أُعرفك إلى موثِّقنا مولى جلبي.

فنظر الرجل المجهول إلى موثِّق الحملة نظرة تكبر.

- وهذا هو فلكينا الجديد. لقد وصل قبل قليل قادماً من أدرِنَة.

نظر جلبي إلى الرجل نظرة الفضول التي يحدق فيها إلى كل من يأتي من العاصمة.

وسأل بنبرة رقيقة متظاهراً أنه لم يلحظ أنفة القادم الجديد:

- هل هناك أخبار من أدرِنَة؟

فقال الفلكي:

- لا، الجو حار.

تنبَّه موثِّق الحملة إلى أن الرجل الجديد ليس شغوفاً بالحديث. وتخيل جثة الفلكي القديم مغطاة بالطين والأنقاض.

اعتقد أنه من الأفضل له أن يستسلم لمشاعره كي يغيظ هذا الفلكي الجديد. كما اعتقد أيضاً أنَّ الأمر سينتهي به إلى الحالة نفسها إذا ما أخذ نفسه على محمل الجد أكثر مما ينبغي.

سأل الطبيب:

- ما سبب تجمع هذا الحشد؟

- يبدو أنَّ الإعدام سينفذ باثنين من الجواسيس.

فسأل أحد أفراد الانكشارية وهو يمر بهم:

- حقاً؟ جواسيس؟

وسأل الطبيب وهو يقصد ناحية المكان الذي كان يصدح بقرع الطبول:

- ما الذي تجسسا عليه؟

وحذا الآخران حذوه، فردَّ موثِّق الحملة:

- لا أدري!

فصاح بهم أحد الدراويش من ورائهم:

- يمكنني أن أخبركم. إنهما جاسوسان حاولا سرقة سر مدافعنا العملاقة!

تنبه موثِّق الحملة إلى وجود سعد الدين وسط الحشود التي كانت تتدافع حوله بالمناكب. لقد شاهده مراراً يطوف في أرجاء المعسكر وبيده عصاً بيضاء، ولم يكلمه في معظم الأحيان، لأنه لم يكن يدري ماذا يقول، لكنه في هذه المرة، وبعد أن شاهد الشاعر الوفي وهو يهيم على وجهه على هذا النحو، شعر بالأسى تجاهه.

سأل موثِّق الحملة الطبيب:

- هل ترى ذلك الضرير هناك وهو يتلقى الدفعات؟

- نعم.

- إنه الشاعر سعد الدين. لقد فقد بصره في المعركة.

لا يزال الفلكي الجديد لا يُظهر أي اهتمام بما يتحدث به مولى، كما أنه لم يكلف نفسه عناء الالتفات إلى المكان والنظر.

- سأذهب وأحضره، فأنا لا أستطيع تحمل رؤيته وهو يُعامل معاملة خشنة وقاسية.

سأل الطبيب:

- بما أنه على هذه الحالة، لِمَ لا يرجع إلى تركيا؟

أوضح جلبي:

- إنه ينظم قصيدة عظيمة عن الحملة، وهو يريد أن يكون حاضراً هنا عند سقوط القلعة.

قصد موثِّق الحملة ناحية الشاعر، وبعد هنيهة أتى به.

قال سعد الدين بنبرة حماسية هادرة:

- يمكن لكل الناس سماع وقع أقدام العسكر! يا له من صوت يثير النشوة!

رمقه الفلكي بنظرة عطف.

قال سالم:

- كان هنالك شاعر ضرير مثلك تماماً قبل قرون خلت في بلاد الإغريق القديمة.

نظر سعد الدين صوب الطبيب بمحجريه الخاويين.

واصل سالم كلامه:

- اسمه هوميروس، كتب ملحمة عظيمة عن حامية تدعى طروادة دمَّرها الإغريق. وقبل شهرين قال الأمير محمد، وهو سلطاننا في المستقبل، في كلمة ألقاها، بأن الله سلط الأتراك لينتقموا لطروادة.

قال الضرير:

- لا أعرف شيئاً عن ذلك. اسمي سعد الدين، وكانوا يسمونني نايتنغال(*) سعد الدين، لكنني لم أحب تلك التسمية.

اقترح عليه موثِّق الحملة قائلاً:

- أما كان من شأن أن تحب أن يطلق عليك اسم ساربركان تول

(*) **نايتنغال**: أي العندليب. (المترجم)

- كيليج أولغونسوي؟

فأجاب سعد الدين:

- لم تواتني الفرصة كي أحمل ذلك الاسم، لكن هذه الحرب حوَّلت نايتنغال سعد الدين إلى الضرير سعد الدين، وبه يدعوني الجميع الآن.

مسح جبينه بيده كأنه يريد أن يبعد شيئاً ما يثير إزعاجه أو خوفه. ولمَّا فرغ من ذلك، شاهد موثِّق الحملة في تلك الإشارة شيئاً مميتاً.

قال الشاعر مرة أخرى:

- يتناهى إلى سمعي صوت العسكر! إننا نتقدم في الليل. لا يمكن لأي شيء أن يقف في طريق الليل عندما يكون القمر هلالاً يتوسطه. إن الأرض لترتعد تحت أحذيتنا.

ابتسم سالم وقال:

- أنت تروقني!

لكن سعد الدين لم يقل شيئاً. فواصل الشاعر كلامه:

- سَيروي الدم التركي تراب ثلاث قارات. لقد كتب علينا ألاّ تجري الدماء في عروق جنودنا بعد اليوم، بل يجب أن تفور جروحهم حتى تتخضب الأرض بها!

قطَّب سالم حاجبيه.

وهتف سعد الدين بصوت أجش:

- سيسفك محيط من الدم؛ محيط من الدم التركي النقي.

عندئذٍ التفت سعد الدين التفاتة مفاجئة وانصرف من دون كلمة وداع. أما جلبي، فقد راقبه وهو يغيب عن الأنظار، يخطو خطوات وئيدة بمساعدة عصاه.

سأل الطبيب:

- هل ينفَّذ الإعدام أم لا؟

أجاب جلبي:

- لا أظنه سيتأخر بعد الآن، فقد شاهدتُ آمر المعسكر يمر بالمكان.

في هذه الأثناء، كانت زمرة من الضباط يحيّون بضوضاء أحد رفاقهم الذي يبدو أنه كان عائداً من رحلة طويلة، وكانوا يتجاذبون أطراف الحديث بحماسة، فيما ركّز جلبي سمعه ليلتقط ما كانوا يتفوهون به.

سأل اثنين من الضباط:

- إذاً، ما الأخبار من العاصمة؟

فأجاب أحدهما:

- ما الذي تتوقعه؟ الحديث كله عن هذه الحملة. عندما يعلم الناس أن المرء قادم من ألبانيا، فإن أول شيء يسألون عنه هو إن كان قد حظي برؤية إسكندر بِك.

أتى أحدهم بملاحظة ساخرة:

- إنهم لا يعرفون أنك إذا رأيتَ إسكندر بِك فعلى الأرجح أنك لن ترى أي شيء آخر.

فضحك الجميع.

أبدى سالم ملاحظة:

- انظروا! ها قد وصل ضابط الميرة وساروجا، ولا بد من أنهما في طريقهما لحضور جلسة اجتماع مجلس الحرب.

أومأ الضابطان رفيعا المستوى بتحية من دون أن يتوقفا، لكنَّ سالم لوَّح لهما بيده قائلاً:

- ستتدحرج رؤوس! ابقيا قليلاً.

- ومن الذي سَيُنفَّذ فيه الإعدام؟

قال سيري سالم:

- سيُعدم جاسوسان! يبدو أنهما كانا يحاولان سرقة أسرار مدافعكم.

ثم أضاف هامساً:

- أحقاً لا تعرفان شيئاً عن هذا الموضوع؟

قال ساروجا بصوت أجش ومبحوح:

- ما قصة هذا التجسس؟

- حسناً. إنه لأمر غريب!

سأل ضابط الميرة بصوت خفيض:

- من ذلك الرجل؟

فأجاب سيري سالم:

- إنه الفلكي الجديد. لقد وصل تواً من أدرِنَة.

قلَّب ضابط الميرة النظر في الفلكي بازدراء.

وسأل سيري سالم صانع المدفع مرة أخرى:

- ألا تعرف أي شيء حقاً عن الجاسوسين؟

فأجاب المهندس:

- لقد قلت لك من قبل إنني لا أعرف شيئاً.

- بلعومك ملتهب، فهل أُصبت بنزلة برد؟

- أعتقد ذلك.

كان يمكن سماع الأصوات المنبعثة من بين الجموع:

- ها قد وصلا! ها قد وصلا!

تدافع الناس بالمناكب كي يتمكنوا من الرؤية، فيما انطلقت صيحاتهم من كل مكان:

- الموت للجواسيس!

سُحل رجلان موثقا الأيدي باتجاه المنصة، وصعد الجلاد وراءهما. كان المدانان شبه عاريين، وكانت آثار التعذيب واضحة على جسديهما.

نظر ضابط الميرة إليهما نظرة تنم عن قدر من العناية:

- أظنني رأيت هذين الرجلين في مكان ما.

فأجاب جلبي:

- نعم. إنهما متطفلان نشاهدهما أحياناً قرب معمل السباكة، أحدهما ذو شعر أحمر. أتتذكره؟

أكَّد ساروجا:

- هذا صحيح! وهو كذلك.

اشرأب الناس القريبين ليصغوا للحديث.

وقال جلبي متعجباً:

- إذاً، هذا هو السبب الذي دفعهما للذهاب يومياً إلى هناك! يا لهما من كلبين! تأملوا! لقد عاملناهما معاملة طيبة على أنهما محبّان للاستطلاع لا أكثر.

بدأ الجلاد ومعاونه يفكان قيدي الرجلين.

أجاب ساروجا:

- لا! هذا غير صحيح! فقبل عشرين عاماً، أمعنت النظر من فوق سور لمشاهدة ساروخان لي العظيم وهو يصنع المدفع في معمله. هذان الصبيان ليسا بجاسوسين مثلما لم أكن جاسوساً في سنهما.

صعق موثِّق الحملة وقال:

- إذاً، ما هما؟

ردَّ ساروجا:

- لقد دفعهما تعطشهما إلى المعرفة وحب استطلاعهما لذلك.

إنني أستطيع أن أغفر لهما، لكنّ بلعومي يؤلمني جداً.

توقف الطبل عن قرع نداء التجمهر، فيما واصل ساروجا كلامه بصوته الأجش المبحوح:

- لماذا تنظر إليَّ هذه النظرة؟ ألا يمكنك سماع صوتي؟ كيف يمكنك خطف رجلين من بين فكي الموت من دون أن تضطر إلى رفع صوتك عالياً؟

وافقه ضابط الميرة على كلامه:

- هذا صحيح. فمصير الآلاف يعتمد على صحتك الطيبة. لديك كل الحق في العناية بنفسك.

وضع مساعد الجلاد رأسي الرجلين فوق البلاطة.

قال سيري سالم:

- انظروا! ها هو المعماري! إنه يندفع كعهده مثل زوبعة.

اندفع جاور أمامهم من دون أن ينظر حوله.

قال ضابط الميرة:

- سنتأخر.

استداروا على أعقابهم ومضوا في الوقت نفسه الذي هوى فيه الجلاد على رقبة أحد الرجلين. ثمة حركة وسط الجموع أعقبها هدير مدوٍّ.

غمغم سيري سالم متأملاً:

- إنهم في عجالة من أمرهم لحضور الاجتماع. أُراهن أنهم سيدعونني أيضاً.

لم يجرؤ على سؤال الطبيب عما كان يعنيه بعبارته.

رفع الجلاد فأسه للمرة الثانية. لقد حان دور الفتى ذي الشعر الأحمر. مرة أخرى تململ الحشد، وارتفعت صيحة مدوية.

قال سالم بصوتٍ وقد تخضب وجهه بالدماء فجأة:

- لا، إنهم لن يخفقوا في دعوتي على وجه التأكيد.

احتار جلبي في أمره، ولم يعرف الموقف الذي ينبغي له أن يتخذه؛ هل يظهر اهتمامه بكلام سيري سالم الذي يتعذر فهمه كما تقتضي المجاملة أم يتظاهر بأنه لم يسمعه؟ وبالرغم من أن الطبيب كان بمنزلة أقل من منزلة ضابط الميرة، إلاَّ أنه كان شخصية تحظى بقدر من الأهمية. أما جلبي فقد لعن حظه الذي وضعه في هذا الموضع في مثل هذه اللحظة الحرجة.

أضاف سالم من بين أسنانه وهو مكشر:

- لا، ليس ثمة خطأ في ذلك.

شعر جلبي بالدماء تندفع باردة في عروقه. فالتفت نحو الفلكي، لكنّ الأخير بدا غير مبالٍ بأي شيء تماماً، وواصل النظر بإمعان إلى الجموع المحتشدة.

في غضون ذلك، كان ضابط الميرة وساروجا قد مضيا في سبيلهما إلى خيمة الباشا، وشاهدا المعماري يندفع إلى داخل الفسطاط الوردي وقد سبقهما ببضع خطوات.

قال ساروجا:

- يبدو وكأنه قد أصابه مسٌّ من الجنون.

ردَّ ضابط الميرة:

- لديه على وجه التأكيد بعض المشاغل التي تقلق باله، فقد أوشك انهيار النفق أن يضع حداً لحياته.

- أتظن أنه لن يحالفه أي حظ بعد الآن في البحث عن قناة الماء؟

- أظن ذلك.

تعجب ساروجا:

- أنت في ترف ورفاهية حقاً، إذ ليست لديك المتاعب لتؤرقك كما تؤرقنا.

ابتسم ضابط الميرة وقال بهدوء:

- أنت على حق من حيث الظاهر، لكن هل سألت عن السبب الذي دفع آلاف الرجال في اليومين الأخيرين إلى أن يحصدوا القمح على جناح السرعة؟

قال ساروجا:

- هذا صحيح. لقد أردت أن أسأل، لكنني نسيت: ماذا يحدث؟

- سأطلعك على سرٍّ لا يعرفه الآن سوى الباشا وعلي بيه.

لم يتمكن ساروجا من كبت سعاله إلا قليلاً، وهو ما يحدث له عادة عندما يكون مهتاجاً.

قال ضابط الميرة:

- لقد هاجم إسكندر بِك القوافل القادمة من البندقية ودمَّرها وهي في طريقها إلينا محملة بالمؤن.

- هو هاجم البندقيين؟ يا الله...

قال ضابط الميرة:

- نعم. وهذا يرقى إلى إعلان الحرب على جمهورية البندقية.

نظر ساروجا إليه والدهشة تملأُ عينيه:

- لقد فقد عقله!

فأجاب ضابط الميرة:

- ربما. لكن لا تنسَ، لعل ذلك عمل يائس، أسد في حالة يأس.

- يمكنك أن تصفه بأنه يأسٌ أو غضبةُ أسد. لا فرق عندي بين

الاثنين. على كل حال، إنَّ وضع سيفك في كيس من الحبوب أو قراب للزيت لا يبدو عملاً من أعمال الأسد.

انفجر ضابط الميرة ضاحكاً وهزَّ رأسه وكأنه يريد التخلص من ضحكته، وقال:

- أنا أذهب غير هذا المذهب تماماً. فالجنرال الذي يدمر قطار تموينك قبل أن يهاجمك إنما هو جندي حقيقي.

قال ساروجا:

- أعتقد أننا سنتأخر.

دخلا الخيمة واحداً إثر الآخر محنيي الرأسين، وكان مجلس الحرب قد انعقد، ولم يكن شاغراً سوى مقعد القائد العام، في حين تجاذب القادة وكبار المسؤولين أطراف الحديث على نحو خافت. أما معظم الباقين فقد التزموا الصمت، انهمكوا في رشف العصير من كؤوس يُعاد ملؤها باستمرار من دورق برونزي يطوف به كالظل وسط أعضاء المجلس أحد الخدم. كانوا بين الفينة والفينة يختلسون نظرات جانبية إلى المعماري، لكن وجه جاور الشاحب أخفق في منحهم القناعة التي ينشدونها في مثل هذه الظروف، عندما تبدو وطأة صعوبة الاجتماع تثقل كاهل رجل واحد. فيما هم يراقبونه وهو يتلوَّى ألماً، كان الآخرون يشعرون بارتياح شديد لأنهم ليسوا في محله. إنَّ مظهر الرجل السلبي لم يخيِّب أمل أعضاء المجلس وحسب وهم يعتقدون أنهم محرومون من متعة قليلة يستحقونها فحسب، بل أثار انزعاجهم أيضاً، وبهذا خلَّصهم من كل إحساس بالشفقة.

دخل الباشا وجلس، وتوقف الجميع عن الكلام ولم يعد يُسمع سوى صوت خربشة أداة كتابة المساعد، فكانت جزءاً طبيعياً من صمت الكون أكثر مما هي موسيقى تصويرية.

ثم تكلم الباشا. كان كلامه موجزاً، أوضح فيه أن على المجلس

أن يقرر في هذا اليوم إن كان سيستمر في فرض الحصار أم لا. ثم أتى على ذكر مشكلة قناة الماء، فقد أخفقت كل الجهود المبذولة لاكتشافها. ولا بد من أن يدرك الجميع أن آمال العثور عليها تتضاءل بمرور الأيام. وأثنى على المعماري لإدراكه أن القناة التي عثروا عليها كانت قناة مهملة، وعلى وجه الخصوص في عدم السماح لهم بالاغتباط مبكراً.

- بصفتك معمارياً عظيماً، فقد وفَّرت علينا خيبة الأمل الكبرى، بمعنى، أنك خلصتنا من الشر.

لكنه فنَّد بالرغم من ذلك فرضية جاور القائلة بعدم وجود قناة أخرى.

- لقد ذكرت أن القناة التي اكتشفتها كانت قناة مزيفة للتضليل، لكنك تقول لنا الآن إنَّ هناك قناة أخرى. حسناً، إذاً أيها المعماري، قل لنا الحقيقة: هل هناك قناة حقيقية أم لا؟ إنني أطرح السؤال عليك!

بدأت شفتا جاور تلفظان الكلمات مباشرة:

- قناة الماء حقيقية. القناة مظهر خارجي. نعم، ولا.

رفع الباشا كلتا يديه صوب جبينه، وأشار إلى المعماري بالتوقف عن الكلام. ونظر إلى الرجل بعينين واهنتين مرهقتين وطلب منه أن ينتظر إلى أن يفرغ من التفكير. فما كان من المعماري إلاَّ أن أطبق فمه.

استأنف الباشا كلامه بنبرة جادة:

- لقد أثنيت عليك للأشياء التي تستحق عليها الثناء. لكنني في الوقت نفسه غير راضٍ عنك.

لمَّح كما هو متوقع، لكن بعد لحظة تردد، إلى النفق، وإن لم يكن تلميحه ينطوي على توكيد مبالغ فيه. وقال، من دون أن يبعد عينيه عن جاور، إن المعماري - وبقدر ما يتعلق الأمر بالنفق - لا يمكن أن يعد مسؤولاً عن انهياره لأن أفراد الهندسة العسكرية الذين ربما كانوا سبباً في اكتشاف النفق باتوا الآن مدفونين مع آمرهم أُولوغ بيه تحت

الأرض ولـم يتمكنـوا حتـى مـن الدفـاع عن أنفسـهم. مـن ناحية أخرى، فـإن الإخفـاق فـي البحـث عـن القنـاة لا يمكن أن يُعـزى إلاَّ إليه، وعليه أن يوضح هذا الأمر أمام مجلس الحرب. وعبَّر طُرسُـن باشـا في ختام حديثه عن فرضية غير منطقية بأن المعماري جاور ربما فقد لسـبب ما حماسته في قطع تجهيزات المياه عن النصارى.

فرغ الباشا من كلامه. ولم يعد يُسمع في ظل ذلك الصمت المطبق الذي أعقب حديثه سوى خربشة ريشة المساعد وهو يدون على الورق كل ما قيل. كانوا قد عهدوا جميعهم هذا وهو صوت متماثل دائماً سواء أكانت الكلمات المدونة حادة أو لطيفة، لدغات عقرب أم نسمة صيف رقيقة. أدرك أولئك الموجودون في عضوية المجلس والعارفون بالأمور الإدارية أن المسـاعد كان يتعمد إحداث صوت بريشته على نحو مبالغ فيـه. وبالحكـم مـن خـلال ملامـح وجهه الجادة التـي يظهرها أحياناً، لم يكـن صعبـاً التخميـن بـأن لحظات الصمت التي يغدو فيها صوت ريشـة كتابته هو الصوت الطاغي على كل الأصوات، إنما تمنحه فرصته الوحيدة في الحياة لتوكيد أهميته. وإذا ما بدأ شخص ما بالكلام مرة أخرى، فإن وجوده يمكن أن يصبح نسياً منسياً.

نهـض المعمـاري واقفـاً علـى قدميـه وبـدأ يتكلم، متلفظـاً كلمات مقتضبة، مرتبطة بعضها ببعض من دون توقف، بلا نبرات. ألفاظه المتعبة الخالية من أي نغمة تذكِّر بالصحراء. وفيما كان أعضاء المجلس يصغون إليه، تخيلوا أن هذا الرجل قد خُلق خصيصاً كي يجعل الأنهار والينابيع تجـف مـن مياههـا، وهـو مـا فعلـه حقـاً، وبدرجة كبيرة، فـي العديد من الحملات السابقة التي أكسبته مجداً عظيماً.

قدّم شرحاً عن بحثه عن قناة الماء، وأوضح لأعضاء المجلس أنه استند في عمله إلى بحث دقيق في المنطقة المجاورة بما فيها درجات ميـل كل المنحـدرات، ومقـدار الزراعـة فيهـا، وتركيبـة التربـة التحتيـة،

ومستوى رطوبتها، وغيرها من العوامل الأخرى. كان هذا المسح المفصل هو الفيصل في أوامره للحفر في هذا المكان وليس في تلك البقعة (احفر حيث يستوجب الحفر ولا تحفر حيث لا يستوجب الحفر). وعندما أدَّت هذه الأبحاث إلى الكشف عن وجود قناة ماء أدرك على الفور أنها قناة مضللة (حيث إنها شحيحة الماء ولا يمكن أن تضلل أحداً) أصرَّ على الاستمرار في الحفر إلى أن عيَّنوا موقع القناة الحقيقية، فأصدر أوامره بإجراء مسح شامل لقاع النهر ياردة فياردة، للعثور على أي أثر لها. ونزل الغواصون على عمق بضع قامات لكنهم لم يجدوا أي شيء. وبعد ذلك، وبخاصة بعد أن اعترف الأسرى الألبان تحت التعذيب، وباتوا في النزع الأخير، أنهم لا يعرفون شيئاً عن أي قناة أخرى، أصبح مقتنعاً بأن قناة الماء التي اكتشفوها كانت قناة حقيقية وقناة مزيفة في الوقت نفسه.

هنا قاطعه المفتي صائحاً:

- هراء! كلام فارغ! هذه هي المرة الثانية التي يخبرنا فيها بمثل هذا الكلام التافه. كيف يمكنك يا مولاي الباشا أن تسامح هذا... هذا... الذي يتلاعب بنا؟ كيف يمكن لقناة أن تكون حقيقية وغير حقيقية في الوقت نفسه؟ هل يعني أننا نفترض بأن للقنوات بدائل كما هي حال البشر؟

وجَّه الباشا الكلام إلى المعماري:

- أجب عن هذه الأسئلة.

فأجاب جاور:

- إنني لا أسخر ولا أتلاعب بأحد. إنني أشرح.

أوضح أن قناة الماء يمكن أن تعد قناة حقيقية وغير حقيقية في الوقت نفسه إذا ما بطل استعمالها. وأضاف قائلاً: إن المجرى الذي يسيل فيه الماء قناة وهو ما ينطوي عليه اسمها، لكن المجرى الذي لم يعد يسيل فيه الماء ولا يؤدي دوره ليس سوى فجوة أنبوبية.

لقد زُوِّدت القلعة بالماء من خلال القناة التي اكتشفوها إلى اليوم الذي وصل فيه الجيش. أما بعد ذلك، فقد كفّوا عن استعمالها خشية أن يُكتشف أمرها.

صاح المفتي:

- هل كانوا يعرفون ذلك؟ ولأي سبب فعلوا ذلك أيها السيد المعماري؟ لماذا عجلوا في فعل ما قد يكلفنا مشقة هائلة لفعله؟ هل كان عملهم احتراماً عميقاً لنا ورغبةً منهم في أن يجنبونا الوقت والجهد؟

هنا بدأ عدد من أعضاء المجلس يضحكون ضحكاً خافتاً، في حين أومأ البعض الآخر برؤوسهم بالموافقة، بمعنى أنهم وجدوا أسئلة المفتي وثيقة الصلة بالموضوع. كما أعلن أحد أمراء الأَلوِية قائلاً:

- هذا هو السؤال الذي كنت أريد الآن أن أوجهه.

لم تطرف عينا المعماري، بل فغر فاه، وتلفظ، كعهده، بألفاظ ذات صوت يشبه صوت العديد من حبَّات الرمل:

- أنت تريد أن تعرف ما الذي حطم الفجوة الأنبوبية؟ السبب الوحيد هو الخوف من التسمم.

أوضح أن المحاصرين، وهو ما يحدث عادة في الحملات، يقومون بعد غلق البوابات وكل شكل من أشكال الدخول إلى الحامية، مرئية أم غير مرئية، بملء الأحواض بالماء النقي، ولأنهم كانوا يخشون أن يتم تسميم مصادر مياههم، فإنهم يقطعون آخر صلة لهم بالعالم الخارجي؛ قناة مائهم.

ارتسمت على وجه المفتي العريض ابتسامة خبيثة، لكن الرجل واسع الاطلاع قد يسقط بالضربة القاضية للمرة الأولى. طلب المفتي الإذن بالكلام مرة أخرى، وقال:

- لنفترض أن هذا الكلام صحيح. لكنني بالرغم من كل شيء، لا أستطيع أن أفهم السبب الذي دفعهم للتخلّي عن مصدر مياههم قبل ثلاثة

أشهر، في حين كان في وسعهم اتخاذ القرار بقطع المصدر حتى اللحظة الحاسمة (أي المصيرية بالنسبة إليهم) عندما نكتشف وجود قناة الماء.

همس ساروجا في أذن ضابط الميرة بهدوء:

- الثعلب العجوز!

فجاء الرد همساً:

- ليس غبياً كما يبدو عليه.

واصل المفتي كلامه:

- واضحٌ لنا كلنا أن حوضاً يتغذى من أنبوب ماء يمكن ملؤه إذا ما تم قطع الماء عن الأنبوب. فإن المحاصرين سيحاولون تأخير عملية القطع إلى أبعد حدٍّ ممكن. لكن استناداً إلى ما تقول، فإن المحاصرين الذين نحاصرهم هنا يفترض بهم أن يكونوا بدرجة كافية من الجنون كي يقطعوا المياه عن أنفسهم حتى قبل أن نصل إليهم. هذا هو الشيء الذي لا يستطيع عقلي المسكين أن يستوعبه.

ردَّ المعماري على الفور:

- إن عقلك لا يستوعب لأنه لا يعرف.

تدخل الباشا قائلاً:

- لا يُحقِّر أحدكما الآخر، بل أجب عن هذين السؤالين: أولاً، كيف يحصل المحاصرون على مياههم؟ ثانياً: لماذا تخلوا عن قناة مائهم منذ وقت مبكر؟

ضحك تافجا العجوز وكورديسجي وبعض أمراء الأَلوِية ضحكاً خافتاً، وتألقت عينا تاهانكا بوهج شديد، فيما ظلت ملامح قره مقبل مكفهرة. أما طُرسُن باشا وعلي بيه فلم تغب عنهما أمارات التذمر والضيق. وعندما شاهد أمراء الأَلوِية هذه الأمارات أزالوا الابتسامات عن وجوههم.

كانت العيون موجهة كلها ناحية المعماري. وبدا صوت خربشة

ريشة الكاتب، قد عمَّق من حدة تلك النظرات.

تهدل فم جاور بحركة واحدة، كعهده دوماً، وأجاب عن السؤال الأول قائلاً ببساطة إنه، وبحسب تقديره، يرى أن المدافعين لا بد من أن يكون لديهم خزان ماء وبئر طبيعية داخل الأسوار. أما بخصوص السؤال الثاني، فردَّ بأن الألبانيين أوقفوا استعمال قناة الماء مسبقاً خشية أن يكتشف أمرها سراً وليس علناً خلافاً للمألوف. وأضاف: كان في وسعنا أن نُبقي اكتشافنا خفياً كي نضع في القناة سُمّاً أو نلوثها بمرض رهيب. وبهذا الأسلوب دسَّ السّمَّ للمدافعين عن جيزيل قبل عشرة أعوام واستخدم الأسلوب نفسه في تاش بعد ذلك بسنة واحدة، مثلما استخدم في مدينة حلب الواقعة على بعد اثني عشر ميلاً وذلك لجعل مرض الكوليرا يتفشى في القلعة. ثم أورد أسماء حصون وحاميات أخرى حُوصرت وقطعت عنها المياه، وذلك السلاح الأكثر رهبة من السيف.

أُصيب أعضاء المجلس بالذهول والاندهاش واحداً إثر الآخر، وهم لا يعرفون أن وجه البيضة العجوز - وهو الاسم الذي كانوا يطلقونه عليه من وراء ظهره - يمكن أن يكون بمثل هذه الشدة. فقدوا كل أمل في رؤيته وقد هوى بالضربة القاضية، وشعروا بالإنهاك. كما لاحت على وجه طُرسُن باشا علامات التعب، فكّر في نفسه: ستعود إلى السجن، لكنك ستعود أصلب عوداً، وهو دأبك دائماً. ما الذي سيحدث للآخرين؟ لكن الباشا لم يقوَ على تصديق أذنيه: لقد أصبح المعماري يطالب الآن بشن هجوم على الفور.

انتهز الكاتب فرصة الصمت ليكتب بسرعة مضاعفة.

قال ضابط الميرة:

- إنني أؤيد هجوماً في الخفاء! لكن ما رأيك أنت أيها الأخ المهندس؟

هزَّ ساروجا كتفيه:

- لا فرق عندي.

قال ضابط الميرة بإصرار:

- لكن الهجوم ينبغي أن يُشن الآن أو يلغى نهائياً!

كان يفكّر منذ بدء الاجتماع تفكيراً مهووساً في شيء واحد لا أكثر وهو: تدمير قطارات تموين الجيش.

تكلم ضابط الميرة مرة أخرى. فأشار بادئ الأمر، معبّراً عن رأيه بعبارات لطيفة ورشيقة، إلى مضار الحصار الطويل أكثر مما ينبغي، وقدرته على تحطيم حماسة الجيش. ثم وصل إلى بيت القصيد: فقد أيّد رأي المعماري وفضَّل شن الهجوم.

لكن أحد أمراء الألوِية قال:

- يبدو أن فلكياً جديداً وصل من العاصمة.

فقال الباشا مؤكداً:

- هذا صحيح. استدعوه!

نفذ أحد المبعوثين إلى الخارج بخفة.

وقال ساروجا:

- بما أنني لا أكنُّ أي احترام للفلكيين، فإنني أفضل أن أطرح رأيي قبل أن يصل. إنني أؤيد الهجوم.

كانوا يعبثون بحبات مسبحاتهم ببطء شديد. ويفتش كل واحد منهم في عيون الآخرين في محاولة يائسة لفهم طبيعة المعجزة في مجلس الحرب. فقد انقلبوا فجأة إلى صقور رجال كانوا في عيون الآخرين قبل بضع ساعات رقيقي الجانب، وكانوا موضع سخرية وازدراء لكونهم جبناء لا يفعلون شيئاً.

دخل الفلكي الخيمة، وانحنى انحناءة كبيرة، واتخذ مجلسه في المكان الذي أشير إليه فوق إحدى الأرائك. همس الباشا بضع كلمات

في أذن علي بيه الذي كان يجلس بجانبه.

قال علي بيه:

- إن مجلس الحرب يريد أن يعرف ما الذي تخبر به النجوم.

ثم وجَّه سؤاله:

- ألديك أي إجابة؟

- أنا مستعد.

- إذاً، أخبرنا: ما الذي تقوله النجوم بشأن الهجوم الثاني؟

- العلامات لا تبشر بالخير، إن وضع النجوم في الوقت الراهن غير مؤاتٍ.

بدأ الحاضرون يهمس أحدهم في أذن الآخر، وغمغم ساروجا في أذن ضابط الميرة:

- يبدو أنه أذكى من سلفه.

غير أن ضابط الميرة هاج وماج، وصرَّ على أسنانه وقال:

- في كل مرة نضطر إلى تحمل جَهلة يفسدون الأمور!

لاحظ ساروجا:

- يفهم أنَّ ذلك هو السبيل الوحيد كي يدرأ عن نفسه أي مخاطرة، وإنَّ أي توقع آخر يمكن أن يؤدي به مباشرة إلى حيث انتهى الأمر بسلفه: ستّ أقدام تحت الأرض.

واصل ضابط الميرة كلامه:

-غبي!

أفصح أعضاء المجلس الآخرون عن آرائهم واحداً تلو الآخر. في الحقيقة، لم يواجهوا من قبل مثل هذه المرحلة الحرجة. فهم أولاً لم يفهموا السبب الذي دفع الخبراء لتغيير موقفهم المعتاد. لكن رأي المفتي جعل الأمور أكثر تعقيداً. وبات تأييد الفنيين القوي لشن الهجوم الآن

كافياً لجعله موضع شك، ولكن عندما عبَّر الفلكي صراحة عن معارضته، فإنه لم يتردد في التصويت إلى جانب الرافضين. وحذا أمراء الأَلوِية، الذين حان دورهم للكلام بعد ذلك، حذو المفتي. أما تافجا العجوز وكورديسجي فقد كانا مرتبكين الارتباك كله بسبب انقلاب الأوضاع رأساً على عقب، وانقلبا على عادتهما بعدم إظهار أي حماسة للقتال. كان تاهانكا الذي رمق الفنيين بنظرة قاسية على استعداد للانضمام إليهم شريطة أن يفضلوا شن الهجوم.

سأل طُرسُن باشا:

- وما رأيك يا قره مقبل؟ ماذا تعتقد؟

فأجاب:

- لا أدري حتى الآن.

ثم رمق الجالسين حوله بنظرة حزينة محاولاً أن يكتشف الأسباب الحقيقية الكامنة وراء ما يجري؟ فقد أثار هلعه تبدل الأدوار أكثر مما أثارته أسوار القلعة.

سأل تافجا العجوز:

- ما رأيكم لو حاولنا أن نجرّب حظنا مرة أخرى مع قناة الماء؟

لم يستطيعوا أن يصدقوا ما يسمعونه، ولم يحلم أحد بأن آمر الانكشاري الذي يهابه الجميع، وهو الرجل الذي بدا مجبولاً بالنار والدم، أن يبدأ بالكلام عن الفجوات الأنبوبية وتجهيزات المياه. أدرك أنه هو وحده القادر الآن على ردم هوة الصمت التي أحدثها بكلماته. هكذا فرك جبينه بقبضة يده القصيرة وكثيرة العقد.

وواصل كلماته:

- قبل سنوات، وفي أثناء حصار هابسان - كالا، عثرنا على قناة الماء بوسيلة من أغرب الوسائل. ولم نستخدم الكثير من الأوراق

والرسومات اللعينة، بل وجدنا الماء مع جواد.

سأل علي بيه:

- ما هذا؟

استطرد تافجا في كلامه:

- أوضح لنا أحد الخيَّالة كيفية ذلك. إنها طريقة بسيطة. فقد أطعمنا الجواد طعاماً جيداً لأربعة أيام، ولكننا لم نعطه أي ماء. ثم تركناه يهيم على وجهه حول القلعة. إنَّ في وسع حيوان عطشان أن يقتفي أثر الماء حتى في أكثر المناطق جفافاً. صدقوني إن الحصان الظمآن يُعتمد عليه أكثر مما يُعتمد على أي معماري!

انفجر المفتي وأمراء الأَلوِية ضاحكين. أما طُرسُن باشا فقد لوّح بيده مشيراً إلى أن يعود النظام إلى المجلس.

اختتم تافجا حديثه قائلاً:

- وهكذا عثرنا على قناة الماء في هابسان - كالا. فلِمَ لا نفعل الشيء نفسه هنا؟

بدأوا يناقشون القضية، وكانوا في بادئ الأمر غير واثقين، لكنهم رويداً رويداً أخذوا يحملونها على محمل الجد في أثناء سير المناقشة.

قال كورديسجي:

- إن كل جندي من جنود المغاوير يعرف من خلال تجربته أن في وسع الجواد أن يعثر على ينبوع ماء تحت الأرض، لا سيما إذا كان الحيوان ظمِئاً. لكن هل في وسعه أن يحدد موقع فجوة ماء؟ أنا شخصياً لم أسمع مثل هذا الشيء في حياتي.

هتف تافجا بغضب:

- لقد شاهد الآلاف منا ذلك الحدث في هابسان - كالا.

لكن كورديسجي تشبث بموقفه:

- بصرف النظر عن عددكم، فأنا لا أزال أرتاب في الأمر.

رفع علي بيه صوته يريد أن يطرح سـؤالاً على المعماري عما إذا كانت أي قناة ماء تترك في أي نقطة في أثناء مرورها تحت الأرض ما يكفي من الرطوبة لإثارة خياشيم جواد ظمآن. فأجاب المعماري أنه لم يتعامل طوال حياته مع الجياد، وأنه لا يعرف شيئاً عن تركيب أجسادها. لكـن بقـدر مـا يخـص الأمـر الفجوات الأنبوبية، فـإن كمية الرطوبة التي يمكـن أن تظهـر إنمـا تعتمـد علـى المادة المصنوعة منها تلك الفجوات. فإذا كان مجرى الماء مصنوعاً من الحجارة الرملية، وهو الأمر الشـائع فـي صناعـة القنـوات المائيـة، فإنهـا يمكن أن تُسَـرِّب الماء. لكن إن كان المجـرى مصنوعـاً مـن مـادة الرصـاص فإن النزر القليل يمكن اسـتبعاده أيضاً.

لـم يتحدثـوا عـن أي شـيء آخر حتى نهايـة الاجتماع. ولما انفضَّ الاجتمـاع كان الليـل قـد هبـط. فخرجـوا مـن الخيمة واحـداً إثر الآخر، ومضـوا فـي طريقهـم جماعـات جماعات مؤلفة من فردين أو ثلاثة أفراد في اتجاهات مختلفة، باسـتثناء المعماري الذي، كدأبه، عاد سـيراً على قدميه إلى خيمته وخلفه عنصر حمايته يسير كظله.

علـى بعـد بضـع خطـوات، وقـف رجـل فارع الطـول يراقبهم وهم يخرجون من خيمة الباشا.

كان الرجل هو سيري سالم.

ظلـوا علـى مـدى ثلاثة أيام منشغليـن بمهمة تبدو عصيَّة علـى الفهم. فتحت الشمـس الحارقـة، كان الآلاف من الجنود بـلا قمصان يصنعون سياجاً عالياً حول القلعة. إننا لا نستطيع أن نتخيل ما فائدة مثل هذا السياج.

كانـوا قـد أوقفـوا كل أعمالهم الأخـرى. ولم يواصلوا صنـع أبراجهم فوق العجـلات، ولا سلالمهـم الهرمية ثلاثية الأضلاع، ولم يبدُ عليهم أنهم يبحثون عن قناة الماء. ففي هذا الوقت أخذوا ينهمكون في صنع السياج.

كنا نقدح زناد فكرنا على مدى يومين لمعرفة السبب الأقوى لما يبدو أنه ليس سوى نزوة. أتراهم قلقون من مبعوثينا وهم ينسلون إلى مكان ما تحت جنح الظلام؟ هـل يحاولـون إحباط هجوم مباغت نشنه عليهم؟ لكن هنالك العديد من الفجوات في السور مما لا يعيق تماماً سبيل مبعوثينا، ولا حتى سبيل الهجوم. إذاً، ما معنى ذلك؟ أهـو شـيء يتصل بالخرافات والشعوذة، شأنـه شأن اللعنات، والسحر الذي نواجه صعوبة كبيرة في فهمه؟ أم تراهم يهزأون منا؟ في الحقيقة يبدو السياج مثل حظيرة غنم. ربما يريدوننا أن نظن أننا طالما كنا مسجونين كالأغنام، فإننا سنموت هكذا، مثل خراف في طريقها إلى المسلخ، وهلم جرّا.

لقـد داخلتنـا منـذ مدة لا بأس بها الشكوك، حتى أخـذ أحدنا يشك في الآخر. ونصحنـا رجال ديننا أن نتجنب المعاصـي، وذكرنا بالمسوح والرماد(*)، لكن بلا طائـل. فالناس يتميـزون غيظاً مـن دون سبب، ويفقدون أعصابهـم لأتفه سبب؛ بالأمـس، زجَّ قائدنـا الكونت فرانا – أو فرانـا كونتي كما نسميه – بالأخوين بريلا فـي السجـن بسبب تمردهما بعد أن بـدأ كل شيء على نحو سخيف. فقد زعم غيون بريـلا أن الشمـس ضدنـا دائماً، وربما كان ذلك هو السبب في أن أغاني إقليمنا تبدأ كلها بعبارة "تشرق الشمس ساطعة لكنها لا تبعث فينا الدفء"، فتدخّل أحدهم وقال:

(*) **بالمسوح والرماد**: أصل العبارة من الكتاب المقدس: لم يبقَ أمامه إلاَّ أن يتوب في المسوح والرماد. (المترجم)

"إذاً، ربما تفضل القمر العثماني؟"، وبعد جدال قصير امتشق كل واحد سيفه.

في الحقيقة هناك العديد من الأشخاص الذين يعتقدون أن القدر ضدنا.

* * *

الفصل العاشر

بالرغم من حرارة شمس منتصف النهار، فقد توجهت حشود من الجنود المحبين للاستطلاع صوب السياج العظيم الذي شُيِّد بعجالة لم تسمح للكثيرين بمشاهدته. وقد أصيبوا بخيبة الأمل لدى وقوع أنظارهم عليه للمرة الأولى، إذ كان سياجاً عادياً لا يكاد يعلو فوق بوابة حديقة ولا يزيد عنها متانة. ومع هذا، فقد توقعوا أن يروا مشهداً عجيباً. فحتى لو لم يكن السياج نفسه منطوياً على أي سمات خاصة، فإن ما سيحدث على الجانب الآخر، في الأرض الحرام الفاصلة بين السياج والقلعة، سيكون أمراً غير اعتيادي. كان فيض الشائعات قد ازدهر على مدى اليومين المنصرمين، ووصل الذروة في ذلك الصباح. كانت التوقعات لا تعد ولا تحصى، لكن المعلومات الأكيدة متعذرة. قال بعض الرجال إن الأمر كله ذا صلة بالبحث عن أنبوب المياه، إلا أنهم لم يتمكنوا من تفسير العلاقة بين السياج ومجرى الماء المدفون تحت الأرض. زعم آخرون أن القلعة سيضربها السحر، وأن الابتهالات والماء المقدس الذي يُرشُّ على السياج سيحدان من أثره ويبقيانه في نطاق المنطقة المسيَّجة. بيد أن آخرين طرحوا تفسيراً مغايراً يرتكز إلى الأغاني والأساطير الخاصة بوطنهم أو بالمناطق التي خدموا فيها خدمة طويلة.

لكنهم عندما شاهدوا زمرة من كبار الضباط يتقدّمون من جهة المعسكر الرئيس ومن ورائهم كتيبة من محاربي الصحراء وفي إثرهم الحرس الشخصي للقائد العام للجيش، وأخيراً الباشا نفسه يتقدم ويتخذ مكانه على المنصة الصغيرة التي راقب عنها الهجوم الأولي، اقتنع الجميع أن حدثاً استثنائياً يوشك أن يقع. اصطف وراء الباشا وبحسب الأقدمية كل من علي بيه، وتافجا العجوز، والمفتي، وضابط الميرة، وساروجا

وكورديسجي وقره مقبل والمعماري وتاهانكا وغيرهم من أعضاء مجلس الحرب. وإلى الخلف منهم وقف أُمراء الأَلوِية وقادة فرق الموت وقادة حملة السيوف والأئمة وآمر المعسكر ومدير المخابرات وقاضي القضاة وسيري سالم والفلكي وآمر وحدة الهندسة العسكرية الجديد ومساعد ساروجا والمدفعي الأقدم ورئيس فرقة موسيقى الجيش ومفسِّر الأحلام الأول وأمين الأختام وما إلى ذلك. ووراء هؤلاء كلّهم، وقف أيضاً جمعٌ خليط أكبر حجماً يمكن للمرء أن يميز فيه الكتَّاب والأطباء والخواجات والخيَّالة والفنيين وضباطاً من مختلف الرتب العسكرية. وكان جلبي ضمن الصف الأخير، مشرئباً صوب المجموعة التي يقف فيها سيري سالم، ومفكراً أنه من الأفضل التوجه نحوه والانضمام إليه، أو إن كانت مثل تلك الإشارة ستكون في غير موضعها، وغير لائقة، إذ كان شديد الحذر واليقظة من غيرة المسؤولين وقد أفسدت التفكير في مثل هذا الأمر التافه المتعة التي شعر بها عند سيره مع ضابط الميرة وساروجا، فكان هذا سبباً في جعله يقرر في نهاية المطاف ألاّ يتزحزح من مكانه الذي يقف فيه.

في غضون ذلك، بدأ الحشد يتململ بالرغم من شدة حرارة الشمس. وطغى الحديث بين الناس وتدافعوا ووقفوا على رؤوس أصابعهم، وعلى حين غرة دوَّت صرخة عالية في كل الأرجاء: «جواد! جواد أبيض!»، وسأل أحد الأشخاص: «لماذا هو أبيض؟»، فقيل له إنه جواد أصيل. وعلى مدى دقائق قليلة طغت كلمة أصيل على كلمة جواد بعد أن انتقلت بين الأفواه.

في تلك اللحظة أكَّد صهيل متقطع تردد كأنه نشيج في عقول أولئك الذين لم يروا الحيوان بعد، أن ما سيحدث سيكون مقترناً بالجواد نفسه. ثم شاهد الجميع، أو معظمهم، الحيوان وهو يندفع بمفرده إلى ما وراء السياج متجهاً صوب الأرض الحرام من دون أن يكون على صهوته

أحـد، ولـم يكـن أحـد يجـري وراءه. واصل الجواد عَدوَه مدة قصيرة في المنطقة ثم توقف ونَخَرَ واندفع صوب النهر كأنه يفتش عن شيء خفي في الفضاء.

- الجواد يفتش عن الماء!

- إنه شديد الظمأ. هذا واضح!

- لقد ظل بلا ماء بضعة أيام على التوالي!

- لا بد من أنهم أطعموه الشوفان المملح.

صهل الجواد مرة أخرى، فكان صهيله ينم عن شكوى وأنين مهيب حمله النسيم في الجو.

وصاح أحد الأصوات:

- هل شاهدتم الزبد في فمه؟ البعض يرددون أنه سيعثر على قناة الماء.

لـمّا وصل الجواد إلى السياج وقف على قائمتيه الخلفيتين ولاحظ الجميع أن السياج في ذلك الجانب - جانب النهر - كان أعلى وبناؤه أفضل. ثم انطلق الجواد وهو يدور حول السياج كله باحثاً على ما يبدو عن مخرج. ولـمّا لم يكن هناك أي مخرج، فقد دار على عقبيه ليخبَّ صوب الأرض الحرام مرة أخرى.

- يا له من جواد مسكين! هل تراه سيعثر على قناة الماء؟

- بالتأكيد سيعثر عليها، فالجياد ليست قصيرة النظر كالبشر. وهي تلاحظ الأشياء التي تمر بنا. فعلى سبيل المثال، تستطيع أن ترى الموتى تحت الأرض بالسهولة نفسها التي أراك فيها. ألم تسأل نفسك يوماً عن السـبب الذي يجعل الجياد لا تعبر فوق قطعة أرض دُفن فيها شـخص ما؟ حسناً، السبب هو أنها تستطيع رؤية الجثة! كما أن طبقة التراب لا تحول دون رؤية الجواد. وبهذا سيعثر الجواد على قناة الماء مهما كان إخفاؤها بارعاً.

- نعم، لا بد من أنك محق.

توقف الحيوان في بقعة أو بقعتين، ونَخَرَ وهزَّ جسده، وانطلق يعدو من جديد، متجهاً هذه المرة صوب الاستحكامات.

أصدر الباشا وهو واقف في مكانه أمراً:

- دققوا في كل مكان يتوقف فيه الجواد.

مضى الجواد إلى أسفل الاستحكامات، وأحنى رأسه ليشم التربة، وبدأ يعدو على طول الطريق المحيط بالسياج.

كسر تافجا الصمت ليقول للباشا:

- يقول البعض إنَّ الأفاعي أكثر تنبهاً إلى وجود الماء، وقد حاولنا في هابسان - كالا استخدام إحدى الأفاعي، لكننا لم نقدر على إبقائها في المنطقة التي كنا مهتمين بها، كما أننا خشينا أيضاً أن تنزلق بعيداً في أحد الثقوب. ولهذا السبب تخلينا عن الموضوع.

كانت عينا الباشا مُسمَّرتين على الجواد، يراقب كل حركة من حركاته. بدا مسحوراً به، بل لاح لنظراته المرهقة أشد بياضاً، بل كالأثير. كان متوتراً جداً حتى شعر بعد برهة وجيزة أن ساقيه وعضلات رقبته تؤلمه من شدة التعب، كأنه هو الذي يعدو حول الاستحكامات حانياً رأسه بين الفينة والفينة ليشم بقعة رطبة في الأرض المستعرة. كما أنه تخيَّل في إحدى اللحظات أنه أرغى وأزبد، ما دفعه لمدّ يده إلى الأعلى كي يمسح فكه.

في هذه اللحظات ظهر للعيان المدافعون عن القلعة من فوق المتاريس.

ركض الجواد حول المكان، وقد ازداد هياجه. للمرة الرابعة جاء إلى خندق الماء المحيط بالقلعة، ثم ولَّى الأدبار.

فهم آلاف الرجال المندفعين صوب السور السبب الذي دفع الحيوان لمثل ذلك التصرف. ورأى كل واحد منهم أنَّ الأمر ذو صلة

بنتيجة الحرب، بالتالي، إلى ما هو مُخبَّأٌ لهم كأفراد. كان من جراء توتر الموقف أن خفَّت جلبة الجموع الواقفة، وأصبح ضجيجها دمدمة، لكنها لا تزال عالية لأنها صادرة عن عشرات الآلاف من الأصوات. وازداد هذا الدوي الهادر الذي تحول إلى أنين مكبوت تارة، وحشرجة أخيرة تارة أخرى؛ فإن خبب حوافر الجواد كان هو الصوت الوحيد.

أومأ سيري سالم نحو موثِّق الحملة كي يأتي إليه.

ثم قال وهو يحني رأسه نحو أُذن جلبي:

- لقد استولى قدماء الإغريق على طروادة باستعمال جواد خشبي. ويبدو أننا سنستولي على القلعة بجواد من لحم ودم! لقد تغير الزمان، لكن الشعراء لا يزالون غير مبصرين! على فكرة، أين هو صديقك؟

هزَّ موثِّق الحملة كتفيه مشيراً إلى أنه ليست لديه أي فكرة.

سأل أحد الأشخاص للمرة العاشرة:

- هل يفلح الجواد؟

- أشك في ذلك.

- لقد بات الجواد منهك القوى، وأظنه سينهار.

- انظر، انظر إلى هناك! ثمة فتيات فوق المتاريس.

- فتيات؟ أين؟

- هناك في الأعلى! في الجهة اليمنى من البرج الثاني. هناك العديد منهن. وهناك فتاتان أخريان إلى جهة أبعد قليلاً.

- لا بأس، لا بأس. ها هنَّ الآن. في وسعي أن أراهن.

- غريب!

- كيف يجرؤن على إظهار أنفسهن من دون خمار أمام الآلاف من الرجال؟

نعم، لقد ظهرت نساء كثيرات يراقبن من فتحات السور. ولو كنَّ

ظهرن في أي ظرف آخر لجذبن أنظار الجميع، لكن هؤلاء كانوا منهمكين فـي مراقبـة تقـدم الجـواد ولـم ينظـر إليهن سـوى عدد قليـل من الرجال ولثانية واحدة لا أكثر.

- يبدو الجواد وكأنه في دورته الأخيرة!

كان الجواد يعدو حول السور الرئيس كأنه أصيب بمسٍّ من الجنون. وبعد أن دار ثلاث دورات، تسمَّر في مكانه، ونبش الأرض بقوة وانطلق من جديد. وسـاد حول السـور صمت مطبق لا يمكن فيه سـماع صوت حوافر الجواد بكل الوضوح وحسـب، بل حتى أنفاسـه، ثم توقف مرة أخـرى علـى بعـد خطـوات مـن الجـدار وضـرب الأرض بقـوة بقائمتيه الأماميتيـن. وأثـار زوبعـة مـن الغبار، وبدأ يعـدو مجدداً رافعاً خطمه في الهواء. وصل في تلك اللحظة قرب أسفل البرج الثالث عندما سدد إليه أحد المدافعين سهماً صفَّر في الهواء وأصاب جسده. ولما بذل الحيوان محاولـة أخيـرة لانتزاعـه، انطلقـت آلاف الأصوات بآهة واحدة وبصرخة تنم عن قلق. كما استل عديد منهم سيوفهم.

استدار كبار المسؤولين نحو الباشا، ينظرون إليه نظرة فضولية.

قال الباشا بالرغم من شعوره بألم حاد في كتفه اليسرى:

- لا بأس. سيزيد الجرح من حدة عطشه.

أنَّ الحيوان أنيناً موجعاً يدعو إلى الشفقة، ونظر الجميع إلى البرج الثالث وهم يتوقعون سـهماً ثانياً يسـدد نحوه، لكن لم تكن هناك رمية أخرى.

همس صوت وراء ظهر الباشا:

- يمكنهم قتل الجواد، لكن إذا أرادوا عدم قتله، فذلك كي نعتقد أنه لا وجود لقناة الماء.

- إذاً، لماذا أطلقوا السهم؟

- مصادفة. لا بد من أن أحدهم فقد أعصابه.

هرع الجواد مرة أخرى باهتياج أشد، وسقط السهم عن جسده في الخطوة الثانية أو الثالثة. كانت الإصابة في أعلى قائمته الأمامية، وبان الدم وهو يسيل في خط منحرف عليها.

قال تافجا:

- لقد قتلوا في هابسان - كالا ثلاثة من جيادنا، واحداً تلو الآخر. واضطررنا إلى وضع درع سميكة على الجواد الرابع وهو الجواد الذي عثر على الماء.

بدأ الجواد يصهل مرة أخرى وقد انتصب شعر عنقه انتصاباً جميلاً. كان يهز أعلى كاهله ويدوس على الأرض في أكثر الأحيان. من أعلى سور القلعة راقب المدافعون بصمت (كان ذلك هو الانطباع الذي تكشف عنه رؤوسهم الثابتة على الأقل) في حين حبس آلاف الجنود أنفاسهم وهم يتدافعون نحو أعلى السياج، وأعرب البعض عن تمنياته بالقول:

- لنأمل أن الجواد سيعثر على بغيته!

أطلق آخرون كلمات تشجيع بنبرات متوسلة ويائسة:

- آه أيها الجواد الأصيل! هيَّا اعثر على القناة!

كان عشرات الشيوخ والدراويش قد جثموا فوق الأرض وهم يبتهلون رافعين أكفهم إلى الأعلى.

صهل الجواد، وبدا أنه اشتمَّ رائحة النهر، فاندفع صوبه مرة أخرى. لكن السياج كان قوياً مما أرغم الحيوان على النكوص. كان البخار يتصاعد من جسده المنهك، وكان خطمه يهتز. وسال من فمه خيط رفيع من الدم وهو يخبُّ بموازاة السياج وعلى بعد بضع خطوات من الجنود، فيحدق إليهم بعينيه المجنونتين.

كانت المتاريس قد احتشدت بالمدافعين، وبدا أن كل مدافع قد ارتقى نحو القمة، وكان بعضهم يلوح برمز النصارى الديني والأيقونات.

فجأة توقف الجواد، ودار حول نفسه، وأحنى رأسه، وغمر خطمه في الأرض. ثم داس بحوافره البقعة نفسها بقوة هائلة مثيراً كتلاً كبيرة من التراب. لكنه لم يتحرك من مكانه هذه المرة، بل على العكس، استمر يطأ الأرض ويضربها بعنف ويأس حتى غشيتها سحابة من غبار. على الفور تبين أن حدثاً استثنائياً على وشك الوقوع. كما في قصص الجنيات، بدا الحيوان وقد استولت عليه زوبعة، واختفى عن الأرض في كتلة من الدخان. لما استقرت سحابة الغبار، لم يعد في الإمكان رؤية الجواد في أي مكان. فندَّت عن ألف صدر آهة تنم عن خوف وهلع، ولكن ارتفعت فجأة صيحة من وسط الآهة:

- ها هو قد عاد! ها هو قد عاد!

أُصيب الجميع بالذهول ورفع العديد منهم عيونهم باتجاه السماء وهم يتوقعون مشاهدة الجواد عائداً. لكن ما إن انحسرت سحابة الغبار تماماً حتى شُوهد الجواد يرفع قوائمه في الهواء، ملوحاً بحوافره الواهنة فيما أخذ يحك ظهره بالأرض.

صاح الباشا:

- يجب الحفر في البقعة على الفور!

فاندفع آمر الهندسة العسكرية صوب رجاله بعد أن كان قد اقترب من الباشا وهو يتوقع صدور مثل هذا الأمر. وكان رجاله على أهبة الاستعداد على بعد بضع خطوات، مجارفهم ومعاولهم على أكتافهم. فُتحت ثغرة في السياج وقاد الآمر جنوده بخطىً سريعة باتجاه الجواد. ولما وصلوا إلى البقعة التي كان لا يزال مستلقياً فوقها، سحبوه بعيداً عنها، وبدأوا الحفر.

حدثت جلبة صاخبة بين المدافعين في أعلى السور العالي. وظهرت أشكال مرعبة مقوسة من الاستحكامات، وصفَّرت سهام مخترقة الهواء شديد الحرارة. فخرَّ اثنان من جنود الهندسة العسكرية صريعين من دون

كلمة. أما الثالث الذي أصيب فكان الآمر نفسه. أغمض طُرسُن باشا عينيه، وشعر بالإنهاك، ولكنه كان سعيداً بالرغم من ذلك.

وغمغم:

- أخيراً! أخيراً!

وزعق علي بيه:

- وفروا غطاءً لوحدة الهندسة العسكرية!

اندفع شخص ما إلى الأمام. وصدرت الأوامر، وأعيد فتح الثغرة في السياج، وتقدمت قوة من المشاة يحملون الدروع عالياً أمامهم صوب الحفارين الذين بدأوا بالهروب تاركين أدواتهم وراءهم.

قال طُرسُن باشا:

- لا بد من أن الأنبوب في هذا المكان، وما الضربة التي سددوها لنا إلا الدليل على أننا نستهدف مصدر مياههم. لكن ما الذي دفع قوة الهندسة العسكرية للهروب؟ أعيدوهم إلى العمل في هذه اللحظة! وعليهم أن يحفروا بسرعة كبيرة، إذ يجب ألاّ نعطيهم الوقت كي يسحبوا المياه! أسرعوا!

صاح علي بيه وهو يتقدم لاعتراض مجموعة من الهاربين:

- إلى الوراء دُر! واصل الحفر! بسرعة! هيَّا!

استدار الجنود المشاة عند سماع أمر الضابط وهرعوا صوب الجواد، وخلفهم أفراد الهندسة العسكرية. وعندما أصبحوا في مرمى العدو، رفع المشاة دروعهم وتقدموا حذرين. في الوقت الذي وصلوا فيه إلى المكان الذي بدأوا فيه الحفر، شكلوا على جانب القلعة ما يشبه جداراً صلباً من الدروع وانتظروا حتى يأتي من ورائهم جنود الهندسة العسكرية. ولكن لم يبدُ أنَّ هناك من يظهر أدنى اهتمام بالرجال الذين قضوا بجانب الجواد.

انطلقت رشقات أخرى من فوق السور، لكنّ المدافعين تواروا عن

الأنظار رويداً رويداً، وهو أمر غريب.

لـمَّح أحد الأصوات بالقول:

- لقد نزلوا لملء خزانات مياههم.

أصدر الباشا أمراً، وسرعان ما تقدمت قوة أخرى من المشاة صوب أفراد الهندسة العسكرية ووفرت لهم غطاءً ثانياً شبه دائري للوقاية من سهام العدو.

استمر الحفر، وانتظر الناس وساورهم القلق. وفي ذروة حماستهم وقلقهم وعرقهم الذي ابتلي به الجميع، ظل وجه المعماري وحده جامداً، فيما ظل المفتي يومئ برأسه بين وقت وآخر ويستنزل اللعنات.

حفر جنود الهندسة العسكرية ما يكفي من العمق حتى لم يعد المتفرجون يرون شيئاً، ولم تظهر للعيان سوى المجارف المملوءة بالتراب وهي تهوي من فوق حافة الحفرة. وكلما ارتفعت كومة التراب ازداد الهلع في عيون الجميع.

قال تافجا العجوز:

- عند حصار هابسان - كالا، اضطررنا إلى الحفر مدة نصف نهار.

ثم نظر إلى أحد رفاقه وإلى آخر كأنه يلتمس العذر للتأخر في العثور على مصدر المياه.

وران الصمت، وباتت الحفرة الآن عميقة جداً، وبدأ رفع الرمل باستعمال الأكياس. وتعثر رجل يحمل سلماً على ظهره، وبان الملل على وجوه بعض المشاهدين من طول الانتظار، ومضوا في سبيلهم، لكن سرعان ما احتل آخرون أماكنهم. وانضم إلى الحشد أناس لا يُتوقع أن يشاهدوا في الجيش كعمال المطبخ والمسؤولين عن غسل ثياب الضباط، وناقلي الماء، والمشتغلين بالتطريز، وشاحذي السكاكين، وكل أولئك الذين نُصبت خيامهم على الضفة الأخرى من النهر والذين بات يطلق

عليهم «القادمون من الجانب الآخر»، بل حتى الأقزام الذين أرسلوا من العاصمة مؤخراً للترفيه عن الجنود.

فرفع الباشا أصبعه ببطء، فيما بدأت أذنه اليمنى بالطنين مرة أخرى. ألقى نظرة أخرى إلى الجثث المرمية حول قوة الهندسة العسكرية، ومال إلى علي بيه ليهمس ببعض الكلمات في أذنه. لكن في تلك اللحظة، انطلقت صرخة فرح قوية من منطقة الحفر:

- ما - ا - ا - ا - ء!

لُفظت الكلمة عشرات المرات، بل مئات المرات، وآلاف المرات، لفظها حشد الجنود الذين نفضوا عن أنفسهم حالة السبات التي دفعتهم لها الشمس القاسية. لقد خطفتهم تلك الصرخة من تلك الحالة في لحظة واحدة، وكأن الماء نفسه قد أنعش أطرافهم ووجوههم التي لفحتها الشمس.

راح طُرسُن باشا يضحك، وكانت تلك هي المرة الأولى التي سمح فيها لنفسه بالابتهاج منذ بدء الحملة. وانتابت الدهشة بطانته، والتفت كل واحد منهم ليرى ما يجري. كان المشهد غير مألوف ومثيراً. فهم لم يتخيلوا يوماً ما قائدهم العام قادراً على الضحك. كأي شيء يؤدي إلى قلب فكرة مقبولة عموماً رأساً على عقب، فإن ضحكة الباشا أثارت نوعاً من القلق، وإحساساً بالخوف إلى حدٍّ كبير. فقد بدا وجه الزعيم فجأة غريباً، وبعيداً، ويصعب سبر غوره.

ارتفعت الآن صيحات تقول: «الماء! الماء!» من جميع الجهات بحماسة شديدة. وقبَّل الجنود أحدهم الآخر، وتعانقوا، ورفع أحدهم الآخر، وزمجروا، وزعقوا كالمجانين. أما الدراويش فقد بدأوا بالرقص.

لكن فتحات شرفات السور ظلت مهجورة. لقد توارى المدافعون عن الأنظار. ولم يعد في الإمكان رؤية أي شيء سوى الحراس وهم

يتحركون ببطء على قمم الأبراج كأنهم ظلال غريبة تماماً عن عالم البشر.

هدر صوت طُرسُن باشا كأنه ثملٌ بالانتقام:

- أخيراً، سأسحقك يا إسكندر بِك!

صرَّ أسنانه كأنه يطحن عظام أسوأ عدوٍّ له، لفظ اسمه للمرة الأولى في حياته، إذ تجنب الباشا لفظ اسم إسكندر بِك في أثناء اجتماعات مجلس الحرب وفي أثناء المناقشات الأخرى، وإذا ما أشار إليه فإنه لا يستعمل سوى هاتين الكلمتين: «ذلك الرجل!». وغمغم مرة أخرى بجذل مكبوت مقلباً كل حرف من حروف اسمه في لسانه:

- يا إسكندر بِك!

زالت الابتسامة عن وجه الباشا ببطء كالماء فوق الرمل. وعادت ملامحه الطبيعية التي فهمها كل أولئك المحيطون به الذين ابتهجوا لذلك، وغمرتهم موجة الفرح التي كانت قد حلت عليهم متأخرة قليلاً، وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث بضوضاء، وهنَّأ أحدهم الآخر تهنئة قلبية. وظل المفتي وكورديسجي وغيرهما يرمقون المعماري الذي لا يزال رابط الجأش وتظاهروا أنهم يسخرون منه. أما تافجا العجوز فمكث واقفاً بلا حراك، يصب اللعنات في سرِّه، فخوراً في انتظاره للآخرين ليتقدموا إليه بالتهنئة.

أغرق الماء الحفرة الآن، وظهرت بركة ماء فوق الميدان، لكن الأرض الظمأى تشبعت به ولم يكبر حجم البركة بعد ذلك. وانهمك جنود الهندسة العسكرية الملطخون بالطين بالعمل حول البركة وسط أدواتهم والجواد النافق وجثث الجنود الذين قُتلوا والذين لم يبدُ على أي أحد اهتمام بهم.

انتهت المهمة بنجاح، واستدار طُرسُن باشا، لكنه قبل أن ينصرف نادى علي بيه وقال له:

- لنحتفل هذه الليلة!

وسار معاونوه في إثره.

قال ساروجا:

- لا أظن أنّ الحصار سيستغرق وقتاً أطول بعد الآن. واأسفاه. لن نحظى بفرصة اختبار مدفعنا الثالث.

واصل ضابط الميرة كلامه:

- لا أدري لماذا. لكنني أشك في ذلك!

فقال ساروجا:

- لا بأس. لقد منحتني بعض السلوى. فعندما سمعتهم يصرخون بكلمة ماء قبل قليل، ظننت أنني فقدت مدفعي الثالث.

- هل القوالب جاهزة؟

- نعم، تقريباً.

تابع الاثنان طريقهما وسط الفوضى وتوقف كل شيء. وتعالت في جميع الأنحاء أصوات إصدار الأوامر والصياح:

- ابتعدوا عن الحفرة!

- سيصيبكم حراس المتاريس!

كان أفراد الهندسة العسكرية قد بدأوا بإحضار القتلى فوق نقالات، وثمة مجموعة كبيرة وراءهم، كان المشاة يدفعون عربة وُضع عليها الجواد الذي نفق. وتنحى الجنود جانباً كي تمر العربة، واشرأبت أعناقهم كي يروا بوضوح الجواد الميت وقد تدلى على جانبه شعر رقبته الملطخ بالطين.

قال أحدهم:

- سيدفن الجواد وسط مراسيم عسكرية كاملة شأنه شأن آمر الهندسة العسكرية.

- إنهم محقون إذ يقولون إنه جواد أصيل.

- سيشيد له ضريح، إذ إنني سمعت الباشا يصدر أمراً بذلك.

- ضريح؟ هذا من قبيل الإنصاف، وهو جدير به.

سأل ضابط شاب من ضباط الانكشارية:

- مَن الذي سَيُعيَّن لأمرة جنود الهندسة العسكرية الآن؟

- مَن يدري؟ لقد كان ثاني رجل يُقتل، ولم يستمتع المسكين طويلاً بوظيفته، إذ لم يمر على استلامه منصبه سوى ثلاث ساعات. أتمنى أن يحالف التوفيق خلفه بصورة أفضل!

لمح ضابط الميرة يسير أمامه على بعد بضع خطوات وحيداً إلاَّ من حارسه الشخصي. كما لاحظه ضابطان شابان من الانكشارية، فانفجرا ضاحكين.

وقال أحدهما:

- لعله يعرف الشيء الكثير، لكن جواداً عجوزاً يعرف أكثر مما يعرف هو، والناس الذين هم مثله ليسوا سوى طفيليين على الدولة، وكلهم متشابهون! ويحصلون على أكياس من ذهب مرتبات لهم ولا يفعلون شيئاً.

- لكنهم لا يخدعون القيادة العليا، وإذا كانوا قد حصلوا على عمل، فذلك لأنهم أفضل الموجودين في الزمرة السيئة.

فسأل أحد الانكشارية مبتسماً:

- هل سمعت ذلك؟ لقد أخفق المعماري في قضية الجواد الذي نفق!

قهقه الرجال، واستدار أحدهم، لكنه شاهد ضابط الميرة ساروجا فما كان منه إلاَّ أن همس شيئاً ما لرفاقه، فتوقفوا عن الضحك. واعترت الدهشة أحد الضباط لما رآه من صمت مطبق مفاجئ، فاستدار وخمَّن السبب، وأراد أن يبين أن الانكشاري لا يهاب التعبير عن رأيه حتى

أمام المسـؤولين، بصرف النظر عن مكانتهم العالية، فقال بأعلى صوته وقد امتلأ غروراً:

- في الحقيقة، إن الجواد قد يفعل أشـياء لا يسـتطيع المتعلم أن يفعلها.

ابتسم بعض الانكشارية ابتسامة عريضة بتردد.

أما ضابط الميرة فقد شحب لونه وصاح باحتدام:

- كرر ما قلته أيها الضابط! هيَّا!

فقال الضابط بعجرفة:

- لم أكن أوجه حديثي إليك يا سيدي.

- غبي! بليد! لا تتحرك!

توقف الضابط عن السـير، وحدَّق إلى ضابط الميرة بوقاحة. كما توقـف الضابـط الآخـر وبقيـة الرجال، في حين اسـتدار المعماري ورمق الجمع بنظرة هادئة.

سأل الضابط هازئاً:

- هل توجه الكلام إليَّ؟

أجاب ضابط الميرة وهو يقترب:

- نعم، إليك. وهذا هو جوابي!

ثم صفع الشاب على وجهه بمروحته الجلدية.

مدَّ الضابط يده إلى سيفه، لكن حارس ضابط الميرة الشخصي وثب إلى الأمام بخفة القط ووضع خنجره بين سيده والانكشاري. كما استل حارس سـاروجا الشـخصي خنجره بدوره، وارتفعت همهمة مكبوتة من بين الحشد الذي تجمع، إذ كان الناس قد رأوا العلامة التي ثبتت بالخياطة على الرداءين الطويلين اللذين يرتديهما ضابط الميرة والسبَّاك.

أمر ضابط الميرة:

- جرّدا الرجل من سلاحه!

عامل الحارسـان الضابط بخشـونة وانتزعا سـيفه. نظر الانكشـاري حوله كأنه ينشد النجدة، لكن الاستجابة الوحيدة التي أبداها حشد الناس تمثلت في غمغمة أخرى. نظر الحارسـان إلى سـيديهما وسـلاحهما بيد كلٍّ منهمـا ينتظـران الأوامـر، وأدرك الجميـع أنَّ مصيـر الضابـط الجريء معلق الآن بين شفتي اثنين من كبار رجالات السلطنة.

قال ضابط الميرة:

- خذاه إلى السجن!

عندمـا شـاهد ضابطـاً رفيـع المسـتوى وسـط جمـوع النـاس نـاداه قائلاً:

- احبس هذا الوغد، وأقفل عليه الباب بالمفتاح!

أومأ الضابط برأسـه علامة الموافقة، وأمر جنديين من المشـاة أن يأخذا الانكشاري إلى السجن.

قال ساروجا بعد أن سارا بضع خطوات:

- أحسنت صنيعاً، لكن ربما كان ينبغي لنا أن نخبر حراسنا بإعدام الرجل حالاً.

فأجاب ضابط الميرة:

- سيؤدي به الأمر إلى النتيجة نفسها، فالمحكمة العسكرية ستحكم عليه بالإعدام.

- يا للجهل!

- لقد اعترضنا ونحن نتكلم كلاماً لطيفاً جداً. لكن في أي شيء كنـا نتكلـم؟ أعتقـد عـن الميرة... لا بأس. لنحتسِ كأسـاً من العصير في خيمتي، فالضوضاء الصاخبة قادمة، ولا أستطيع تحمل ذلك.

قبل ساروجا الدعوة.

كان الاحتفال قد بدأ قبل قليل، وكان الليل قد هبط، وبدأت الطبول تقرع في كل ركن من أركان المعسكر، وتدفق الجنود إلى المكان الذي يظنون أنه سيكون محطاً لأفضل متعة. كاد ضابط الميرة وساروجا أن يصطدما مراراً بمشاة ثملين إلى حدٍّ ما. أما الدراويش فكانوا يحاولون إيجاد فسحة كي يتمكنوا من البدء بالرقص.

بينما هما يمشيان أمام فسطاط الباشا، سمعا صوت الصنوج الرقيق والمخملي الذي يختلف اختلافاً واضحاً عن قرع الطبول المدوي.

قال ضابط الميرة وهو يبطئ من مشيه:

- إنها يد امرأة!

- نعم، هذا صحيح.

كان الفسطاط الوردي مضاءً بأنوار ساطعة أكثر مما هو مألوف، لهذا تألقت عيونهما بالشوق إلى الأسرة التي يحتويها.

قال ساروجا:

- الباشا يلهو!

- إنه لا يلهو كثيراً!

- ظننت أنني لاحظت أنه لا يستمتع بما يشغله عن عمله، لكن هذا يثبت أنه سعيد في هذه الليلة خاصة، وهو محق كل الحق في أن يكون مغتبطاً في هذه الظروف!

استمر رنين الصنوج في إيقاع جميل يصحبه توقف أحياناً كأنما لإغاظة المستمع.

وقال ضابط الميرة:

- إذا لم يربح هذه الحملة، فسيأفل نجمه إلى الأبد!

- أتظن ذلك؟

- إنني متأكد. وإذا خسر المعركة، فإن أفضل ما يمكنه أن يأمل

فيه هو نفيه عن الوطن. أما أسوأ شيء فهو...

وهنا رسم ضابط الميرة خطاً بسبابته تحت حنجرته.

مرة أخرى صادفا جنوداً ثملين يتسكعون ويلوحون بمشاعل متوهجة، ويتبادلون النكات البذيئة، ويضحكون ضحكاً عالياً. وكان آخرون يلعبون لعبة القفز فوق ظهور بعضهم، أو يحاولون التوازن فوق ما يشبه الأرجوحة.

لم يحاول ضابط الميرة إخفاء ازدرائه، فقال:

- لا يعجبني أن أرى أفراد الجيش وهم يتصرّفون من دون تكلف.

كانت خيمته قد نُصبت بعيداً عن الناس، في بقعة هادئة. كان الجنود الذين لا يشعرون برغبة في المشاركة في الاحتفال جالسين أو مستلقين أمام خيامهم، يتحدثون في ما بينهم. وفي مكان ما، كان شخص ما يغني أغنية حزينة، وكان يصعب تمييز الكلمات:

نحن في حملة جديدة

في بلاد بعيدة

في أراضٍ موحشة...

اختلط قرع الطبول ليغدو صوتاً مدوياً واحداً وصل آذانهما بموجات اندفع بعدئذٍ إلى مسافة أبعد ليتوارى في أفق الليل.

استدار ضابط الميرة على عتبة خيمته ونظر للحظة صوب المعسكر الضخم مترامي الأطراف الذي تقطعه آلاف الأشكال المثلثة التي يصنعها اللون الأرجواني الباهت للخيام.

سأل ساروجا:

- فيمَ تفكّر؟

- أفكر في أننا سنضطر إلى العودة ونصبِ خيامنا مرات عديدة

في هذا الجزء من العالم.

- حتماً، فنحن نعيش في زمن الحرب.

قال ضابط الميرة مغيِّراً موضوع الحديث فجأة:

- أصغِ! سأُصرُّ في مجلس الحرب على شن هجوم ثانٍ بلا تأخير. ولا بد من أن تؤيدني.

- بكل تأكيد. لكن لِمَ العجلة؟

أوضح ضابط الميرة بإشارة من يده صوب الخيام التي لا تعد ولا تحصى:

- عددهم هائل، ولن تكفي الحبوب لإطعامهم جميعاً.

نظف ساروجا أنفه.

- إذاً، ثلاثة أو أربعة آلاف فم أقل يُطعمون؟

فأجاب ضابط الميرة:

- هذا صحيح! الأكثر من هذا، إننا قد نربح المعركة.

فاعترض ساروجا:

- لكن نصرنا يقترب أكثر مع كل يوم يمر وهم بلا ماء. الوقت إلى جانبنا.

أجاب ضابط الميرة:

- لقد قطعنا عنهم المياه، لكن لا تنسَ، فقد قطعوا هم عنا الغذاء.

ثم أشار مرة أخرى صوب مركز المعسكر الرئيس حيث يجري الاحتفال وتعلو الضوضاء.

وقال:

- إنهم يحتفلون هذه الليلة، لكنهم لا يعرفون أنهم سيحصلون على نصف الحصة الغذائية خلال أيام قليلة.

تنهد ساروجا:

- يا للرجال المساكين! هناك أشياء كثيرة يجهلونها!

- ذلك قدر الجندي.

دخلا الخيمة. وبمرور الوقت، قلَّ كلامهما أكثر فأكثر. وفي نهاية المطاف، نهض ساروجا واقفاً على قدميه ليستأذن بالانصراف، فسار معه مُضيفه حتى أوصله إلى منتصف الطريق إلى خيمته. كانت الحفلة لا تزال مستمرة على مسافة بعيدة، لكنها بدت أقل ضوضاء وصخباً الآن.

قال ضابط الميرة فجأة كأنما يريد أن يودع صديقه:

- أصغِ! هل تخدعني أذناي أم أن هذا بوق الإنذار؟

فقال حاجبه:

- لقد استمر قرع الطبل مدة غير قصيرة.

وافق ساروجا وقال:

- نعم. إنها الدعوة لحمل السلاح!

أرهفا سمعهما. كان الطبل يقرع في مكان ما في عمق المعسكر، وكانت كل ضربة من ضرباته تعلو فوق ضربات طبول الحفلة.

هتف ضابط الميرة:

- إنه إسكندر بِك!!

أصغيا بكل انتباه مرة أخرى، إذ كان يتناهى إلى مسامعهما من مكان بعيد من جهة الشمال صوت مدوٍّ. ومن وسط الظلمة تردد صدى أصوات مختلفة ومتقطعة تقول:

- إلى السلاح! إنذار!

قال ضابط الميرة:

- تعالَ يا ساروجا وأمضِ الليل هنا معي في خيمتي، فهذا الجزء من المعسكر آمن.

قال السبَّاك.

- لا بد لي من الذهاب لمعرفة ما يحدث في معمل السباكة.

- معملك ليس في خطر هو الآخر.

قال ساروجا معترضاً:

- ومع هذا، فالأفضل أن أرجع.

- إنني أنصحك بالبقاء. فنحن في حالة إنذار هذه الليلة.

تردد ساروجا، في حين تواصل قرع الطبل الكبير بلا توقف؛ نداء الدعوة إلى السلاح.

قال ضابط الميرة متاملاً:

- لا بد من أن إسكندر بِك علم بأننا قطعنا المياه.

بعد لحظة صمت، استطرد:

- لقد وثب النمر!

* * *



أخيراً قطعوا الماء عنّا. بادئ ذي بدء، عندما بدأ الجواد الأبيض يعدو ويعدو من حولنا كأنه لعنة حلت على متاريسنا، فكرنا أن سلوكه كان سلوكاً لا عقلانيا؛ ممارسة سحرية أو طقساً بدائياً. ولم يعرف ما كان يجري إلاّ الكونت الذي ظل ساهراً في تلك الليلة محاولاً أن يفك رموز الرسائل التي كانت ترسل إلينا بواسطة إشارات ضوئية من فوق قمم الجبال. كانت الإشارات تتحدث عن السياج، وعن الماء أيضاً كما هو واضح. وفي حين كنا نلهو فوق الاستحكامات، فإنه ذهب إلى دار العبادة. وانتشرت الأقاويل، ولكن بالرغم من أننا كنا نسلّي أنفسنا، إذ بنا نستسلم للقلق، وبالرغم من أننا لم نعرف الحقيقة كاملة، فإننا ابتُلينا بالخوف وتصببنا عرقاً بارداً.

كان وجه الكونت شاحباً لدى عودته لرؤيتنا أعلى السور، وألقى نظرة إلى الأسفل صوب معسكر العدو وقد بان الأسى في عينيه. ولم يكن خائفاً من سلاحهم الجديد، لكنه بدا فزعاً بسبب ذلك الجواد. وفي وقت لاحق، وعندما انتهى كل شيء، أوضح أن القناة المائية صُممت لتسير في اتجاه عكسي يجعل اكتشافها متعذراً على عقول البشر. لكن عندما تنحى البشر جانباً، وأوكلوا المهمة إلى الحيوان، انتابه خوف شديد. ففي مثل هذا الظرف، تكون الغريزة أشد فاعلية من الذكاء.

وعندما شاهدوا الماء يتدفق من الحفرة وتتحول إلى بركة ماء غير عذب، انفجرت بناتنا باكيات، ثم مضين جميعاً إلى دار العبادة.

احتفل الجانب الآخر بقطع المياه حتى وقت متأخر من الليل. فأحدثت الأبواق والطبول والنايات ومزامير القِرب وغيرها من الأدوات الموسيقية جلبة وملأت الليل بعربدة جهنمية. واستمر ذلك حتى سماعنا صوت طبل الإنذار يقرع عندهم. وأدركنا أن كاستريوني قد انقضّ عليهم بعد أن سمع أنهم قطعوا المياه عنّا.

تجاوز الوقت منتصف الليل، وكان معسكرهم في حالة اضطراب عنيف، وتعذر عليهم التنفس كأنما قُطِّعت أوصالهم حتى الموت. كان جورج بينهم،

يضربهم ويضايقهم على النحو الذي يعرفه هو وحده. كان الليل بهيماً ولم نستطع رؤية أي شيء، لكننا كنا نسمع صوت أنفاسه، فاتخذنا مواقعنا وراء البوابة العظيمة وبتنا على أهبة الاستعداد لفتحها وشن هجوم مضادٍ حالما تصلنا الأوامر. وصاحت امرأة من فوق المتاريس:

– يا جورج! يا جورج! انتقم لنا واقتلهم جميعاً!

* * *

الفصل الحادي عشر

كان موثِّق الحملة قد استسلم للنوم عندما أيقظه الإنذار الأول، وكان قد أمضى مساءً كئيباً. ففي المعسكر الذي كرَّس نفسه للهو صاخب، مشى متثاقلاً ذهاباً وإياباً من دون أن يصادف أيّاً من معارفه، ثم تخلى عن فكرة البحث عن صديق، وقفل راجعاً إلى خيمته، وحاول أن يأخذ قسطاً من النوم، بلا طائل. شعر بوحدة موجعة، ومما زاد الطين بلة أصوات الاحتفال الصاخب المتواصل خارج الخيمة، حتى إنه أراد مرتين أو ثلاث مرات أن ينهض ويخرج مجدداً، لكنه عندما تذكر مشيه اللامثمر الذي قام به في وقت مبكر، قرر أن يمكث في فراشه. ثم انتظر كي يخفت صوت الاحتفالات، على أمل أن يتمكن من النوم حالما تهدأ الأوضاع. لكن النوم باغته قبل أن تنتهي الحفلة، ولفَّ الجواد الأبيض الباحث عن الماء وهو يعدو حول القلعة لفَّات بطيئة حبكت ذهنه في شبكة من الأحلام، وذكَّرته الأرض الحرام في الجانب الآخر من السياج بسهول كوسوفو؛ باستثناء أن الجواد الأبيض كان يمتطيه فارس، وكان ذلك الفارس هو السلطان مراد. حدَّق السلطان بعينين مفعمتين بالأسى إلى الموتى الذين انتشرت جثثهم في كل مكان، وفجأة هتف وهو يئن بصوت عالٍ: لا يا الله! فاستيقظ على الفور. كانت الضوضاء في المعسكر قد تبدلت، فخرج من خيمته، وأرهف أُذنيه وسمع صوت الطبل الكبير وهو يُقرع معلناً حالة الإنذار في مكان ما في قلب المعسكر. توقف قرع الطبول الأخرى، واحداً تلو الآخر. وتناهت إلى الأسماع من كل مكان صيحات: «إلى السلاح!»، وأسرع مولى جلبي بارتداء ملابسه وشعر بعرق بارد على حاجبيه، وخرج. كانت طبول الحفلة قد هدأت الآن تماماً، ولف ظلام مخيف أطراف المعسكر. ولم يسمع سوى صوت ذلك الطبل المدوي

والعميق الذي يعلن حالة الإنذار. تمكن جلبي من معرفة أصوات الأقدام الهاربة، والأسلحة وهي تستعد، والأوامر، ووقع الحوافر وهي تسرع. خرج الجنود من خيامهم وأسلحتهم في أيديهم، وهرعوا إلى نقاط تجمع وحداتهم كأنهم ظلال هاربة تُسرع إلى اجتماع متآمرين. تملكه الخوف. لماذا يركضون على هذا النحو؟ إلى أين تراهم يذهبون؟ وقف خارج خيمته مذهولاً، لا يعرف ماذا يفعل. كان في وسعه سماع صوت أقدام وهي تنطلق مسرعة. وصاح أحدهم:

- بسرعة أكبر! بسرعة أكبر!

ثم ران الصمت مجدداً. لماذا يتم إخلاء هذا الجزء من المعسكر؟ وبعد أن داهمته هذه الفكرة، بدأ يعدو عَدواً آليا وراء الآخرين الذين أطلقوا سيقانهم للريح. لم يعرف كم طال ركضه، ولم يتوقف إلاّ عندما شعر أن هناك عدداً كافياً من الناس حوله. كان الخروج حقيقياً، وكان الانكشارية والمتطوعون والمشاة والخيَّالة المدججون بالسلاح يحاولون اقتفاء أثر وحداتهم مستعينين بضوء المشاعل. وكان يصعب أن تعرف إن كانوا يخططون للانسحاب أم الاستمرار في الهجوم. وانطلقت صيحات ونداءات القادة الخشنة من جميع الجوانب:

- لقد انطلق الفوج الرابع!
- يبدو أنهم هاجموا مضاجع الانكشارية!
- فوج الخيالة الخامس هنا!
- يقاتل قره مقبل قتالاً ضارياً حتى الموت!
- إلى معمل السباكة! إنهم يهاجمون معمل السباكة!
- ارجع! ما وحدتك؟ الفوج الثاني؟ إذاً، انسحب!
- لقد فتح الألبان البوابة!
- لا يمكنهم فتحها! اسكت!

ثم صرخ أحد الأشخاص كالمجنون وكان على رأس زمرة تتراجع

في حالة من الفوضى:

- لقد مات بكر خان!

- عد أدراجك! إلى أين تذهب؟

- إسكندر بِك!

- قلت عد أدراجك!

- إسكندر بِك! إسكندر بِك!

- لماذا تصرخ أيها الوغد؟ هنا! خُذ هذه!

سمع الموثِّق صوتاً مكتوماً لضربة سيف يخترق جسداً، ثم صوت رجل يسقط على الأرض.

- المغاوير! ها هم المغاوير!

مرّ كورديسجي بشعره الطويل المتألق تحت ضوء المشاعل وهو على رأس قوة تمتطي الجياد.

صاح أحد الضباط:

- ارجع! ارجع!

- انضموا إلى وحداتكم!

- الخيَّالة! الخيَّالة العظماء!

هرع الخيَّالة على صهوات جيادهم وطواهم الليل وهم في إثر المغاوير.

كان قلب موثِّق الحملة يوشك أن ينفجر، فقد كانت صفوة الجيش تندفع اندفاعاً باسلاً نحو الجبهة لصدِّ العدو. وشعر بالخزي إذ استسلم للخوف لبضع لحظات خلت. وراقب بإعجاب المغاربة وهم يتقدمون صوب المنطقة التي كان الوحش إسكندر بِك يعيث فيها فساداً. لكن فرصته لم تدم طويلاً. إذ إن كتلة الرجال الذين بددت أصواتهم وأسلحتهم وأوامرهم خوفه سرعان ما ذابت أمام عينيه بسرعة فائقة. ابتلع الظلام

الأسلحة والأصوات والأوامر، وأدرك مولى جلبي على الفور أنه وحيد في طريق قد يستولي عليه النمر المغير.

هكذا أطلق ساقيه للريح لا يدري أي طريق يسلك. كل ما كان يفكّر فيه هو الخروج من تلك البقعة التي هُجرت وكأنها سفينة غارقة. وتمكن من أن يسمع حوله أصوات الرجال وهم ينادون ويحضُّ أحدهم الآخر على المضي قُدماً. لكنه لم يتمكن في ظلمة الليل الحالكة من أن يتبين تماماً المكان الذي كانوا يأتون منه. كانت أصواتهم تشبه أصوات الأشباح أكثر مما تشبه أصوات الأحياء، نقلتها رياح الليل إليهم.

سرعان ما وجد نفسه مرة أخرى وسط حشد من الناس. ولم يستطع أن يُميِّز إن كان هذا الحشد من الرجال هارباً من القتال أم أنه يبحث عن القتال. ولكن الحشد تفرق بسرعة كبيرة ليجد موثِّق الحملة نفسه وحيداً مرة أخرى، وأصبح في وسعه الآن أن يرى الرجال وهم يتجمعون قادمين من جميع أنحاء المعسكر كأنهم خلية من النحل، ليتحركوا بعد ذلك إلى الأمام ويتفرقوا بغير نظام مثل سحب بيضاء منفوشة في يوم عاصف. ولم يكن هناك ما يمكن الاعتماد عليه في ليلة رعب كهذه الليلة.

واصل ركضه باستمرار، وقادته ساقاه على نحو فطري باتجاه قلب المعسكر حيث لا تزال خيمة القائد العام شاخصة. تناهى إلى سمعه صوت أناس ينادون ويصدرون الأوامر، ليصدر بعد ذلك من وسط الظلام صوت غريب مرعب لأنفاس ثقيلة أسكتت بقية الأصوات. وفكّر موثِّق الحملة في أن ذلك الصوت هو صوت تاهانكا!

كانت خيمة الباشا غارقة في الظلام، لكنه شاهد بالرغم من ذلك مبعوثين يجيئون ويذهبون. وخمَّن جلبي أن الباشا داخل الخيمة، لكن الأضواء كانت خافتة كي لا يتمكّن أحد من رؤية الخيمة. استجمع رباطة جأشه الآن ولاحظ أن الخيمة يحيط بها مئات من مقاتلي الصحراء وقد وقفوا ساكنين ورماحهم على أهبة الاستعداد، فشعر بأمان أكبر، وجلس

على الأرض بجانب ممر. كان يسمع مختلف الأصوات القادمة من مكان بعيـد، لكـن هـذا المـكان هادئ. وجاء مبعوثون يمتطون الجياد، وتوقفوا في أماكنهم، وترجلوا عن سـروجهم وهرعوا. حَمد الله الذي سـمح له بالعثور على مكان آخر! غير أنَّ هذا الهدوء النسـبي لم يدم طويلاً، إذ شـعر كأن شـيئاً ما يزحف إلى الأمام ويتحرك في الظلمة. ازداد حجم الكتيبة بأعداد أخرى من مقاتلي الصحراء، وصاح شخص ما من خلفه مُصدراً أمراً، في حين بدا هزيم رعد بعيد يقترب أكثر فأكثر.

شـعر جلبي بقطرات العرق على جبينه. ما الذي سـيحدث لو أن ذلك الإعصار ضرب خيمة القائد العام؟ اعتدل في جلسته. نعم، حقاً. يبـدو واضحـاً أن الخيمـة هـي الهـدف. نعم، إن الإعصار يسـتهدف هذه الخيمة ولا شيء سواها. مرة أخرى تغلب عليه الهلع، فبدأ يهرول. آه، لو تمكن من العثور على بقعة يختبئ فيها! على مكان آمن حقاً، جُحر، حُفرة في الأرض... كان ذهنه متوقداً. آه... النفق المهجور! فرن الخبز (يا مولى! هل أدركت الآن أنَّ الفرن ليس سوى تمويه لمدخل النفق؟) حـثَّ خطـاه صـوب المبنـى المهـدَّم. كان الهزيم يقترب خلفه. بسـرعة! بسرعة! أخيراً وصل إلى هناك، ولم يجد أحداً، فدخل. تحسس طريقه وهو يرتعد من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وعثر على سلم، فهبط إلى الأسـفل. كانت درجات السـلم باردة كالثلج. اسـتمر في هبوطه. الظلمة حالكة! رائحة طين كريهة. وفكّر في الفلكي. وبغتة شعر بشيء يتحرك تحت قدميه في الظلام. ثعبان! فكّر وقد انتابه هلع شـديد، وأوشـك أن يعود أدراجه عندما سمع صوتاً يقول له بهدوء:

- مهلاً! إنك تدوس علينا!

اعتراه ذهول شديد.

قال الصوت نفسه بنبرة وديعة:

- الأفضل لك أن تجلس!

لم يتمكن جلبي من فهم أي شيء. وفكّر في أنه شعر بشيء آخر يتحرك على مقربة منه. وسمع عطسة.

قال الصوت متسائلاً:

- من أين أنت؟

بدأ موثّق الحملة يتلعثم:

- أنا؟ من هنا... مصادفة...

فأجاب الصوت:

- لا بأس. إنني أعرف نوع المصادفة التي تعنيها. لكن لديك فكرة رائعة، وأنت لست غبياً.

لم يجب جلبي.

واصل الرجل كلامه بصوت أجش:

- لا تخف. إننا لا نختبئ هنا كي نكشف سرك، والغربان لا يفقأ أحدها عيني الآخر. إنني من فوج المشاة الرابع، ومضى عليَّ أحد عشر عاماً وأنا جندي عادي. فكّرت منذ زمن بعيد في أن أبقى هنا إذا ما شنَّ إسكندر بِك غارة ليلية. لا اعتراض لدي على الموت على الأسوار، لكن لا جدوى من الموت في أثناء الزحام الشديد. لهذا خرجت من خيمتي عند سماعي صوت الإنذار مباشرة، وقلت لنفسي: اهرب يا جندي المشاة العجوز، لقد حان الوقت لتعثر لك على مخبأ. وعندما وصلت إلى هذا المكان وجدت أصدقاءً. ولقد كانوا سريعي الخاطر أكثر مني.

تجشأ أحدهم على مقربة منه وكأنه يريد توكيد تفسير جندي المشاة.

واصل كلامه:

- اجلس! واسترح! ما من أحد سيزعجك في هذا المكان.

وجد جلبي تحدباً صغيراً كي يجلس فوقه.

سأل جندي المشاة:

- أأنت أحد جنود الهندسة العسكرية؟

ردَّ موثِّق الحملة:

- نعم.

- وهو ما فكّرت فيه. لا بد من أنك اشتغلت هنا.

في الوقت الذي شعر فيه جلبي بأنه يريد تجاذب أطراف الحديث، وهو ما يريده كل شخص في الوقت الملائم عند زوال الخطر، كان جندي المشاة قد سكت. ولم يتجرأ موثِّق الحملة على الكلام أولاً، إذ كان يخشى أن يفضحه صوته. كان يشعر بالخزي. ففي اللحظة ذاتها التي حمي فيها وطيس المعركة، كان هو الموثِّق، مؤلف الكتاب الذي يراد به تخليد المآثر البطولية في الحملة، متكوراً كالجرذ في نفق ومتوارياً عن الأنظار بانتظار أن يهدأ كل شيء.

غمغم جندي المشاة وكأنه يقرأ أفكار جلبي:

- لا بد من أن المعركة ضارية في الأعلى.

لم يعرف موثِّق الحملة ماذا يقول، إذ كانوا يسمعون ضربات على سطح الأرض فوقهم، وفي بعض الأحيان تكون واضحة جداً، وفي أحيان أخرى أقل وضوحاً. ساد صمت طويل، ثم بدأت الضوضاء مرة أخرى، من مكان بعيد، ثم بدأت تقترب أكثر فأكثر.

غمغم المشاة:

- إنهم قادمون من هذا الطريق.

أمسكوا عن الكلام وأرهفوا آذانهم. كان الصوت يقترب، حتى تحول إلى صوت جياد تعدو. لقد أصبحوا الآن أكثر قرباً، فوقهم مباشرة. بدأت الأرض تهتز، فتكور موثِّق الحملة في جلسته.

قال جندي المشاة:

- إنهم فوقنا تماماً.

تحول صوت حوافر الجياد فوق رؤوسهم إلى طنين رهيب. فوضع يده في شعره لينفض عنه الغبار الذي اعتقد أنه لا بد قد تساقط عليه وابتهل حتى تلاشى الهدير بعيداً.

تنهد أحدهم تنهيدة عميقة، وشعر جلبي بالارتياح وكاد أن يرفع صوته عندما بدأ يتضح من بعيد صوت وقع أقدام، سرعان ما أخذ يعلو باطّراد.

قال جندي المشاة:

- موجة أخرى.

حبسوا أنفاسهم، وأصبح الصوت عالياً جداً حتى إنهم ظنوا أن سقف النفق سينهار عليهم.

صاح أحد الأصوات:

- إسكندر بِك!

فكّر موثّق الحملة في أن آخر موجة ستواصل التدمير إلى النهاية. والأسوأ من ذلك، بدت الموجة وكأنها تحاصره بإحكام، مثلما تُضيِّق الحمى الحنجرة. عندما هدأ الصوت وتلاشى نهائياً، فسح لنفسه بذلك الافتراض بعدم حدوث أي هجوم آخر، أصبح جلبي مدركاً صوت جندي المشاة الهادئ والثابت والذي ربما كان يتكلم منذ مدة من دون أن يهتم إن كان أحد يصغي إليه أم لا:

- أحد عشر عاماً وأنا أرتدي البزّة العسكرية. أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟ ومن يدري كم من الأعوام بعد سأضطر فيها إلى الخدمة العسكرية؟ لقد أصبحنا قدامى، وحان الوقت كي يعطونا الأرض التي وعدونا بها. فقبل أن نلتحق بهذه الحملة قيل لنا إن الأرض المحيطة بالقلعة ستخصص لنا إذا ما استولينا عليها. لقد جئت من الأناضول، لكنني شاهدت كل أرجاء المعمورة، فقد حاربت في سهول قره بوغدان

وفي ستارا بلانين وطرابول وفي بلغاريا والبوسنة، ووصلت إلى أماكن نائية مثل سميندرا في هنغاريا. ثمة أرض طيبة في كل مكان، وفي كل مكان نخيِّم فيه أسأل عن الأشياء التي يمكن زراعتها في تلك البقعة وما هي نوعية التربة مقارنة بغيرها من الأماكن التي حاربنا فيها. أنت من الهندسة العسكرية، لهذا لا ينبغي لك أن تندهش بكل هذا. أنت رجل من صلصال ومن طين أيضاً لكنك لا تحترم الأرض، بل تجعلها ترضخ للعنف، كما يقول الناس، ثم تتذمر عندما تنتقم منك مثلما انتقمت في هذا النفق عندما انهار على رفاقك. على كل حال، ماذا كنت أقول؟ آه، نعم، عن الأرض. هكذا وعدونا بمنحنا أراضي حول القلعة، ولـمّا وصلنا إلى هنا، كان أقل شيء فعلته هو النظر بعناية إلى التربة، وغرفت منها براحة كفي، وفتَّتها وشممتها. إنها أرض طيبة، ولا بد للقمح من أن ينموَ فيها بكل يسر وسهولة. ولكن، ما الفائدة؟ إنها تربة أجنبية، ولا أدري لماذا لا تبعث السرور في قلبي، وتترك إحساساً بالخواء في صدري. إنها أرض أجنبية على كل حال. أتفهم ماذا أقول؟ حتى رائحتها مختلفة.

كانت أصوات وقع قدمين تجريان ببطءٍ مسموعة من المدخل. ثمة شخص ما يهبط السلم، فتوقف جندي المشاة عن الحديث، وحبس الجميع أنفاسهم. هناك رجل يتحسس طريقه في النفق.

قال جندي المشاة:

- رويدك أيها الرفيق وإلاّ وطأت فوقنا!

قال القادم الجديد وقد فقد صوابه من شدة الخوف:

- آه!

فقال جندي المشاة:

- لا داعيَ للتأوه! اجلس! أنت على ما يرام في هذا المكان. من أين أنت؟

فأجاب الرجل بصوت مختنق من فرط خوفه:

- فوج الخيالة التاسع.

- ما الذي يجري فوق؟

- الأفضل ألاَّ تسأل.

- يبدو أن الألبان حاولوا كسر الحصار. هل تعرف أي شيء؟

- لا، كل ما أعرفه هو أن الناس يذبحون بعضهم بعضاً.

- أتخيل ذلك.

- لا. لا يمكنك ذلك. إنه أسوأ من أي شيء يمكن تخيله.

- كيف يمكن أن تكون الحال أسوأ؟

- آه. ثق بي. إنها أسوأ.

ثم لزم الصمت، لكن تنفسه الثقيل يشير إلى أنه يريد أن يقول شيئاً ما.

قال جندي المشاة:

- هيَّا! تكلم. لماذا الأمور سيئة جداً؟

- لأنه لا يوجد قتال دائر فوق، وهذا ما أستطيع أن أقوله.

- إنك لمجنون! إذا لم تكن هناك غارة علينا، إذاً، ما الذي يحدث؟

- ليست لدي فكرة. لعله إنذار كاذب، أو خطأ. على كل حال، لقد عمَّت فوضى شاملة، ولا يفهم أحد أحداً تماماً.

- ولماذا الوضع أسوأ مما لو كانت ثمة غارة ليلية؟

- لأنك عندما تتعرض لهجوم تعرف من الذي تقاتله. لكن هذا... يستحيل وصف ما يحدث. إنه شيء أشبه بالحمى، بالهذيان. لا يوجد إسكندر بِك! هذا ما يقوله الناس. لم يأتِ إلى هنا منذ مدة. ثمة شخص ما يدعى جرجي حلَّ محله. وهو شخص ذو شأن.

- أنت مجنون حقاً. لكنني أكثر جنوناً منك لأنني أصغي إليك.

هل فهمت؟ لماذا لا تقول شيئاً أيها الأحمق؟

انصرف الغريب. وقال جندي المشاة لنفسه: يا له من أحمق، ولقد زعم بأنه من الخيالة. كيف يمكنهم وضع مثل هؤلاء الجنود في حفرة كهذه؟ إنه الغباء بعينه!

ساد صمت طويل آخر! وتناهى إلى الأسماع هزيم الرعد، لكنه لم يرتفع أكثر، وبدا وكأنه يدور في مكان ما عند حوافّ المعسكر، ويضعف رويداً رويداً، ويصبح أشد وضوحاً إلى أن تلاشى نهائياً. استمر هذا الارتفاع والانخفاض في هدير الأصوات مدة طويلة على نحو متقطع.

قال أحدهم:

- سأخرج إلى سطح الأرض لأرى ما الذي يجري.

سمعه الآخرون وهو يجهد في سيره على التربة حتى وصل السلم وبدأ يتسلقه. انتظروه حتى يرجع. فرجع.

- والآن؟

- يبدو أن كل شيء قد بدأ، لكن الفجر لم يطلع بعد.

تحرك شخص آخر في الظلمة.

وسأل أحدهم:

- هل سترحل؟ كما تشاء! أما أنا، فسأبقى لمدة أطول! وسنلتقي مرة أخرى. وإذا ما سمعت إشارة الإنذار، فعُد سريعاً إلى هنا، ستجدنا في المكان الذي رحلت عنه.

رغب جلبي في النهوض على قدميه، لكن الإنهاك جعله يبقى في مكانه. أراد أن يغمض عينيه بعد أن راودته فكرة مفادها أنَّه قد لا يجد خيمته في مكانها وأنَّ ملجأه الحالي سيكون على الأرجح أفضل مكان يجده حتى هذه اللحظة. ولم يتمكن من أن يعي إن كان يوشك أن يستسلم للنوم أم لا. لم يستطع الحيلولة دون رؤية الجواد الأبيض وهو يعدو في مخيلته، لكنه لم يعد يعرف أي جواد هو: أهو جواد الظهيرة أم

جواد مراد القديم في كوسوفو بولاي. بدا وكأن موسماً بأكمله قد انقضى منذ عصر ذلك اليوم. وفكّر في صحائف مخطوطته وقد وطأتها حوافر الجياد، لكنها لم تكن أكثر مدعاة للحزن أو أكثر إحباطاً من التفاصيل التي أوردها ضابط الميرة عن اغتيال العاهل. حاول أن ينسى ذلك، لكن بلا طائل. حاول بادئ الأمر أن يطرد الفكرة عن ذهنه، ثم حاول أن يأمرها بالخروج منه، لكن كلا الوسيلتين باءتا بالإخفاق. ثم أراد أن يحوِّر القصة إلى حدٍّ ما، وأن يخفف من روعها، لكنها انحشرت في موضع يصعب اختراقه... إن السلطان العظيم مراد لم يقتله النصارى، بل قتله وزراؤه. قطرات من رصاص منصهر في أذنه، ربما ما كانت لتؤذيه أكثر. إنه رعب، وفضاء مفتوح على مصراعيه، وشكّ يبعث على الخدر اجتمعت كلها في شيء واحد.

لم يستطع أن يعرف السبب الذي يدفع ذهنه في مثل هذه الليلة للبقاء دونما سبب واضح مركزاً تركيزاً ثابتاً على هذه الصورة. ثم ظن أنه فهم: إنه وحيد في الظلام، في مكان غير طبيعي تماماً ليس هو بالأرض ولا بالخيمة ولا بالمكتب. إنه ضرب من مكان غير موجود، مكان هو حقاً خارج نطاق القانون، خارج العالم، وخارج الإمبراطورية. لعل هذه هي الفرصة الأولى التي يملكها للتفكير مليّاً في شيء ما لا يتجرأ تماماً على تدوينه: الحقيقة عن معركة كوسوفو! وقال لنفسه: هيا، أسرع! فالفجر يوشك أن ينبلج.

هكذا فكّر في المقطع الأول وهو في أحشاء الأرض: السلطان مراد خان على صهوة جواده الأبيض، يتفقد الموتى عند الغسق بعد أن انتهت المعركة. وفجأة، ينهض بلقانيّ رث الثياب، وهو ينزف دماً، من فوق الأرض، ويحاول أن يقترب ليقبّل كما يبدو يده، إلاَّ أنَّ الحرَّاس دفعوه إلى الوراء. لكن ما يدعو للغرابة أن السلطان يأمرهم أن يتركوه وشأنه. فيقترب الرجل، وبدلاً من أن يقبل اليد الممتدة نحوه، استلّ من

تحت ثيابه الرثَّة التي تغطي جسده العاري سيفاً مستقيماً، ووثب مثل قطة وحشية، وأغمده في قلب السلطان مباشرة. هذه هي القصة التي تطالعها كل الكتب، لكن ضابط الميرة يصرخ: أكاذيب! كيف يمكنك أن تصدق أيها الأحمق أن أي كافر يستطيع في مثل هذا اليوم الدموي أن يقترب من السلصان على هذا النحو؟ وكيف يمكنك أن تفترض أن رجلاً جريحاً يمكنه أن يثب عن الأرض ليصل إلى ارتفاع فارس على صهوة جواد وبضربة واحدة يغمد السيف في قلب السلطان؟

المقطع المضاد الأول: لقد وقع حقاً حادث اغتيال، وهو حادث غريب تماماً، قبل غروب الشمس بقليل وأمام عشرات الشهود. لم يكن الرجل الذي يمتطي صهوة الجواد هو مراد خان بل كان بديله. ولم يكن الرجل الذي اغتاله بلقانياً بل كان درويشاً دُرِّب على هذا الفعل وكان متنكراً بزي آخر.

توسل: آه يا عروس الشعر، ساعديني. ساعديني على كتابة المقطع الثاني!

المقطع الثاني: خيمة السلطان. مجلس الوزراء يحيط بالسلطان. يهرع أحد المبعوثين معلناً موت العاهل. فيضحك السلطان، لكن الوزراء يقطبون. لماذا اسودَّت عيونكم كالغربان؟ فيقول رئيس الوزراء: «ذلك نذير شؤم، فعندما يسقط ظل، فإن الشخص الحقيقي لا بد من أن يسقط أيضاً»، وعند هذه المرحلة يهجمون عليه ويسددون طعناتهم نحوه حتى يموت.

المقطع المضاد الثاني: هكذا رُويت الجريمة لسنوات طويلة. إنهم يريدوننا أن نعتقد أن السلطان قضى على يد نصراني... وقد قُتل على الفور حرس السلطان البديل ومعهم الدرويش القاتل، للحيلولة دون تسرب الخبر.

آه، ساعديني يا عروس الشعر على كتابة المقطع الثالث!

المقطع الثالث: في الطرف القصي من المعسكر، تصل رسالة إلى وريث العرش يعقوب جلبي: «يطلب والدك جليل القدر حضورك». كان في وسعه أن يسمع في أثناء سيره الناس يهتفون: «لقد قُتل السلطان!» لكن المبعوث يُطمئن الأمير: «إن بديله هو الذي قُتل يا سيدي». غير أن يعقوب يشعر بهاجس مشؤوم.

المقطع المضاد الثالث: قبل أن ينطلقوا صوب كوسوفو كانوا قد وضعوا الخطط لقتل السلطان بصرف النظر عن نتيجة المعركة. وكان الهدف من ذلك هو ألاَّ يتولى الابن الأكبر العرش كما تقتضي قواعد الخلافة، بل يتولاه الابن الأصغر بايزيد لأن الوزراء كانوا يفضلونه.

ساعديني يا عروس الشعر على كتابة مقطعي الأخير!

المقطع الأخير: يدخل الأمير يعقوب جلبي خيمة والده. جثة السلطان ممدّدة فوق بطانية. فيصرخ الأمير: «لكن هذا أبي! لقد قالوا لي إن بديله هو الذي قُتل!»، فيقول أحد الوزراء: «في هذا الوادي من الدموع، كلنا ظلال!» وعندئذٍ قتلوا يعقوب مثلما قتلوا والده.

المقطع المضاد الأخير: يدفن الشقيق الأصغر الأمير بايزيد وجهه بين كفيه، ويتظاهر بأنه لا يفهم، لكنه كان يعرف كل شيء منذ بعض الوقت. لقد وعدوا أن ينفذوا العملية من دون إراقة الدماء، وتظاهر بأنه يصدقهم. يفكّر في ميدان الجنازة في كوسوفو حيث تمتد أمام أنظاره، ويتوقع أن اللعنة ستحل على الغالب والمغلوب إلى الأبد. ندَّت صرخات من مسافة بعيدة: لقد قُتل السلطان! مرة أخرى، نشر المبعوث الخبر الكاذب بأن بديل السلطان هوْ الذي مات، ويسير كما سار أخوه قبله ويدخل خيمة والده، يدخل ويشاهد الجثتين على الأرض. يفكّر في نفسه: أبي وبديله... لكن الأعيان المجتمعين في هذه اللحظة ينحنون وينادونه بملك الملوك، وعندئذٍ يدرك أن إحدى الجثتين هي لشقيقه يعقوب. ويغمغم رئيس الوزراء:

- لم يكن في اليد حيلة. ولم يكن هذا جزءاً من الخطة.

يغطي العاهل الجديد وجهه المبلل بالدموع بيديه، لكن لن يعرف أحد أبداً من أي شيء صُنعت تلك الدموع وما السبب في ذرفها...

تنهد موثِّق الحملة:

- اغفر لي يا الله!

شعر أنه شاحب وفي حالة إعياء كأنه ارتكب جريمة لا تغتفر. كان مثل هذا الشعور قد راوده منذ زمن بعيد في فترة مراهقته... ونهض من مكانه بدافع الهلع، وتحسس طريقه للخروج وتمكن من العثور عليه. كان الصبح قد بدأ ينبلج عندما خرج. وكان الفجر قد بات رمادياً مشوباً بلون أرجواني يتعذر اختراقه، يخفي الأفق في جميع الأنحاء، فبدا كل شيء يفتقر إلى الواقعية. وشعر بالتراب يسقط من ثيابه. ولو أنَّ أحداً شاهده في تلك اللحظة لظنَّه ميتاً قد خرج من القبر. رفع ياقته كي لا يعرفه أحد، وحث خطاه. بدا المخيم غارقاً في نوم هانئ. ولم تكن هناك أي إشارة تدل على ما قد حدث قبل قليل. وراود جلبي الإحساس بأنه قد عاد من القبر. في ذلك القبر دفن كتابه الوحيد المعادي للدولة. تنفس تنفساً عميقاً وشعر بالسعادة لأنه تخلص منه. كانت تتضح على جوانب الخيام المائلة رطوبة ندى الصباح، غريبة أمام عدوانية البشر. الهلع والصرخات والرعب ووقع حوافر الجياد الهادرة تحللت كلها في ملايين القطرات الصغيرة، كل واحدة تحتوي على إحساس بنهاية الليلة وبزوغ فجر النهار، لكن الشيء الذي شاهده عندما ابتعد قليلاً في سيره كان شيئاً مختلفاً. فأمامه صف كامل من خيام مدمرة، بعضها ممزقة، ورايات على الأرض بين جواد ميت وجثة رجل وجهه على الأرض. فارتعدت فرائص جلبي، فالمشهد هو مشهد دمار يمزّق القلب، وعلى مسافة أبعد، صف طويل لخيام دُمِّرت وكأن إعصاراً اكتسحها. ففكر وهو يسرع لمغادرة المنطقة والوصول إلى خيمته في أن إسكندر بِك لا بد

من أنه قد مرَّ بهذا الطريق. ثم سمع صوت وقع قدمين في غير انتظام. شـخص ما، أعرج، يسـير نحوه. وشـاهد شـكل رجل طويل القامة يعتمد في سـيره على عصا كتلك التي يسـتعملها العميان. وعندما اقترب منه تبين من هو: سـعد الدين! كان يغمغم مطبق الشـفتين، ولوّح من حين إلى آخر بهراوة مهدداً.



في اليوم الذي تلا قطع المياه، أرسلوا وفداً للتفاوض معنا. انتظر المبعوثون وهم يرتدون زيهم الرسمي خارج البوابة الكبرى كي نسمح لهم بالدخول. وكان أحدهم يرفع علم السلام بيده فيما كان آخر يقرع طبلاً قرعاً خفيفاً. صرخنا بهم من فوق استحكاماتنا بأن يرحلوا عنا وإلاَّ فستخترقهم سهامنا. وعندئذٍ صاح الطبَّال:

– أيها المحاصرون! ألا تسمعون صوت هذا الطبل؟ لقد صنعه ملك الملوك من جلود أعدائه!

هذا كل ما حدث في المفاوضات. كان الجو لا يزال حاراً لا يطاق، وكادت البئر التي حفرناها أن ينفد ماؤها، وأخذنا نحفر بئراً غيرها. إننا نعاني الظمأ. إذاً، هذا هو حصار الماء الذي طالما تحدثوا عنه في المفاوضات التي عقدت قبل اندلاع المعركة. يمكن خزن كمية كبيرة من الغذاء، كما قالوا لنا، لكننا لن نستطيع خزن المياه!

نظراً إلى خشيتهم من شن هجوم آخر، فقد بدأوا يحفرون الخنادق على امتداد النهار ويثبتون الأوتاد فوق الأرض حول المعسكر كله. وقد ترددت شائعات تفيد أن جرجي لم يهاجم فعلاً، وكان القادة يحاولون تفنيد مثل هذه الشائعات. وإذا كانوا يملكون أي تفسير للفوضى التي ضربت أطنابها في المعسكر، فإن من مصلحتهم أن تكون مثل هذه الشائعات صحيحة. لكن لو كان التفسير الوحيد للفوضى هو هلع عام سرى بين الجنود، فقلما يكون هذا في مصلحة الجيش.

دخان أسود يرتفع طوال الوقت من معمل السباكة. يبدو أنهم يصنعون مدافع أخرى. مهندسوهم وفنيوهم يثيرون الرعب قدر ما يثيره الانكشارية الذين تسلقوا استحكاماتنا. إنهم يريدون تسديد ضربة قاضية، وهم ينتهزون فرصة الحرارة الشديدة والعطش الذي يلتهمنا. إنهم يظنون أن الشمس إلى جانبهم وكأن القمر لا يكفيهم، وبهذا يعتقدون أنهم سادة الكون.

إنهم في عجالة من أمرهم، وهم يريدون الانتهاء من كل شيء قبل هطول

أول زخات المطَر، لأنها لو أمطرت...

إننا نرمق السماء بنظرة تنم عن حرص. لكن ما من سحابة يمكن مشاهدتها. السماء صحراء زرقاء. عُزلة.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني عشر

بـدأوا الهجـوم مـرة أخـرى. وعلى العكس من أسـاليبهم المألوفة، فقد شرعوا بشن العملية في تمام الظهيرة، عندما بلغت الحرارة أوجها. وتزاحمـت أعـداد كبيـرة مـن الجنـود المهاجميـن المخضبيـن بالدمـاء والمتفصديـن عرقـاً أمـام سـور القلعـة الخارجـي برمتـه. كانـوا يومئـون ويتسلقون السلالم ويهبطونها، يتقهقرون، ويندفعون إلى الأمام ويدورون، ويلهثون، ويصرخون فوق مدافعهم الهادرة، ومئات الطبول واصلت القرع مـن دون توقـف. غطـى حجـاب كثيـف من غبار أصفـر اللون أجزاء من المشهد بين الحين والآخر، لكنه كشف عن آخرين على نحو أشد رعباً وهلعاً وهو يبتعد ببطء بفعل الريح.

الشمس تضرب بلا رحمة!

لقدر قرر طُرسُن باشا ضرب قوانين الحرب عرض الحائط وهاجم فـي منتصـف النهار لسـبب واضح: سـيتلقى المحاصَـرون عقاباً مزدوجاً نتيجة الظمأ. لقد رأى المعماري (الذي لاحظ أن الباشا أولى، على نحو غريب تماماً، اهتماماً أكبر بأفكاره عندما غضب عليه) أن سبعة أيام بلا إمدادات خارجية من الماء ستؤدي إلى نفاد أحواض المياه مهما كانت كبيـرة الحجـم (اعتـرف السـجناء بعد التعذيـب بوجود أعداد مختلفة من الأحـواض؛ بعضهـم قالـوا إنهـا أربعة، لكن آخرين ذكروا أنها ثلاثة). أما بخصوص الماء المستخرج من البئر، فيبدو أنه غير كافٍ لتلبية حاجات المحاصَرين ولا حتى لمداواة جرحاهم. لقد أكَّد المعماري أن إصابتهم بجـروح فـي مثـل هـذه الظـروف أكثر فائدة لنا من قتلهم. اضطر طُرسُـن باشا إلى بذل قصارى جهده كي لا يصيح في وجه جاور:

- لن تبدأ بعد الآن باقتراح استراتيجيات أخرى سيئة، أليس كذلك؟ ربما ستعمد إلى إقناعي كي أصدر الأوامر إلى جنودي بأن يتنبهوا في أثناء هجومهم بألاّ يقتلوا العدو بل أن يجرحوه فقط.

في هذا الظرف قال شيئاً ما يشبه ذلك للمعماري على سبيل المزاح. ورد جاور:

- افعل ما تظنه مناسباً يا مولاي!

بالرغم من كل شيء، كان المعماري هو الذي قدّم أكثر النصائح مكراً بشأن توقيت الهجوم. فقد أراد معظم أعضاء المجلس تأجيل الهجوم إلى مدة أطول كي يؤدي الظمأ جزءاً من الدور الذي سيؤديه السيف. كان قد أشار إلى أن التأخير قد يبدو معقولاً، وأن العطش سيساعد حقاً على إنجاز المهمة، لكن عليهم ألاّ ينسوا أن الوقت قد تجاوز منتصف شهر آب وأن الناس الذين يعرفون المنطقة قطنوا إلى أن الأمطار ستهطل عمّا قريب، وأن زخّة مفاجئة قد تعرّض كلّ شيء للخطر.

كان الاعتراض كافياً ليقنع الباشا بالعمل وفق نصيحة المعماري. يضاف إلى ذلك، حتى لو توقفت الأمطار، فإن لديه تواريخه النهائية الخاصة بهذه الحملة. لقد وضع طوقاً من حديد حول القلعة، لكنه واقع في قبضة هذا الطوق قدر وقوع المدافعين عنها. وبما يعوزهم الماء، لكنه لا يملك إلا وقتاً قليلاً. يمكن للحملة أن تستمر حتى أواسط شهر أيلول، على الأكثر، ولكن ليس إلى ما بعد ذلك الشهر. ومن شأن تساقط الثلج للمرة الأولى أن يجعل الأوامر تصدر بوجوب الانسحاب، وهذا يعني له النهاية. أبقى عينيه مسمّرتين على بقعة واحدة، وهي البوابة الرئيسة، حيث الاندفاع على أشده. فقد نجح المشاة في إقامة سقالة أخرى وغطّوها بجلود حيوانات مبللة بالماء. كانت سواتر القصب الكبيرة فوق رؤوس المهاجمين تبدو مثل مراكب فوق بحر متلاطم الموج. كانت

هـذه المبتكـرات تحميهـم عندمـا بـدأوا يضربون البـاب الثقيل بمدكاتهم الحديدية العملاقة.

لاحظ علي بيه:

- بدأت المفصلات تتفكك، يبدو أنها لم تُصلح بشكل جيد.

قال الباشا:

- كرر الأمر بألاّ يدخلوا الفناء الداخلي.

انطلق أحد الضباط صوب المتاريس.

قـال أحدهـم لـدى انعقـاد مجلـس الحرب فـي الليلة الفائتة إن من الحكمة عدم محاولة تحطيم البوابة الرئيسـة طالما أن المحاولة الأولى قد أخفقت. غير أن الباشـا اعترض قائلاً إن فتح البوابة الرئيسـة بالقوة، حتـى وإن لـم تكـن لهـا فائـدة عملية، سيرفع من معنويـات المهاجمين. علاوة على ذلك، فقد ابتكر، بعد استشارة ساروجا، استراتيجية تتطلب فتح البوابة الرئيسة في كل الأحوال.

همس مساعد آمر المعسكر وهو يميل إلى سيده:

- يرغب الطبيب في مقابلتك.

قـال طُرسُـن باشـا مـن دون أن يرفـع عينيـه عـن بوابـة القلعـة الرئيسة:

- الآن؟

- نعم، الآن.

- أدخله!

قدّم سيري سالم نفسه، وانحنى انحناءتين طويلتين، وساوره الظن أن الباشا لم يتنبه إليه فانحنى انحناءة ثالثة.

عندمـا ظهـر ظـل طويـل علـى قدمي الباشـا وانتبه إلـى أن الطبيب واقف وراءه قال:

- تكلم!

ثم قال في نفسه: تكلم وليحلّ بك الشر إن كان كلامك في غير موضعه.

- عفواً يا مولاي لإزعاجك في مثل هذه اللحظة...

فقاطعه الباشا:

- ادخل في صلب الموضوع.

ابتلع سيري سالم ريقه وقال مشيراً إلى المتاريس:

- علينا أن نأخذ أسيراً من بين المحاصَرين، حياً إن كان ذلك ممكناً، أو جريحاً.

ولـمّا أدرك أنه كان يطالب بما هو أكثر مما ينبغي، توقف وأردف:

- وإذا كان ميتاً فلا بأس. سأدرس أحشاء الرجل لأرى إن كان الرجل قد شرب الماء، وإن كان قد شرب، فما كمية ما شربه؟

أسير! حاولوا في أثناء الهجوم الأول القبض على أسير بأي وسيلة متوفرة بأيديهم، لكن المحاولة أثبتت أنها باهظة التكاليف، إذ ليس من السهل على مَن يفرض الحصار أن يأتي بنفسه بأسير ويهبط سلماً يحترق. تسبب أسير جريح وهو يكافح فوق كتفي من أسره بسقوط الاثنين حيث لقيا حتفهما معاً. أما الجثة فتلك قضية أخرى. إذ إن من السهل رمي إنسان ميت من أعلى السلم. كما إن الجثة المحطمة لا تختلف عن جثة تحمل ثقباً في الصدر.

قال طُرسُن باشا من دون أن يسترق النظر إلى سيري سالم:

- جثة عدو! أحضروا لي أسيراً حياً أو ميتاً بأي ثمن.

بعد مضي لحظات شاهد زمرة من الدراويش المسلمين يركضون باتجاه السور، وتواروا عن الأنظار وسط الجموع الغازية. ثم شاهدهم مرة أخرى وهم يتسلقون أحد السلالم التي لا تعد ولا تحصى والمستندة إلى

الاستحكامات. لكن انتباهه تشتت بعامل آخر ولم يعد يشاهد الدراويش مرة أخرى. كانت المدكات الهاوية على البوابة الرئيسة توشك أن تحطمها وتفتتها. علت سحابة من غبار فوق الجنود الهائجين الذين كانوا مستعدين للاندفاع عبر البوابة التي يُعمَل على تفكيك مفصلاتها. ثم هدر صوت المدفعية وأصبح في الإمكان رؤية قذائفها وهي تحطم أجزاء من السور الرئيس.

قال ضابط الميرة لسيري سالم بعد الانفجار الأخير:

- ذلك هو المدفع الثالث.

كادت البوابة الرئيسة تنهار.

فأصدر طُرسُن باشا أمره:

- اخلعوها من مفصلاتها وآتوني بها إلى هنا.

كان أمراً غريباً إلى حدٍّ ما. وكان يدرك أن القبض على البوابة ليست له قيمة من وجهة النظر العسكرية، لكن من الناحية الرمزية سيكون مهماً لرفع معنويات جنوده بقدر أهمية رمي العدو في أتون اليأس. وصلت الفوضى ذروتها عند البوابة، ولا بد من أن المدافعين أدركوا مقاصد المهاجمين لأنهم رشقوهم الآن برشقة من السهام. وفكّر طُرسُن باشا في أن ما من أحد يمكنه النوم نوماً هانئاً بلا باب حتى لو كان في بيته. وأرسل مبعوثاً ثانياً يعد بمكافأة خاصة للمهاجمين في الخط الأمامي. كان المشاة والفنيون يقاتلون وكأنهم رجال قد أصابهم مسٌّ، إذ رموا بأنفسهم بعنف أكبر في حمى المعركة المحتدمة. وتشبث العديد منهم، حتى الموتى، بدرجات السلم، في حين ارتقى آخرون الدرجات من فوقهم. ثم علت وسط ضجيج آلاف الأصوات من المعركة صرخة عظيمة قد تكون صرخة فرح أو ذعر، وانهارت البوابة الخشبية العملاقة وسقطت على ظهرها محدثةً دوياً هائلاً. وعلى الفور اندفع الجنود الذين تنحَّوا جانباً عند سقوط البوابة من حولها كالنمل. وفي النهاية، وبقوة الحبال

والكلابات المعلقة وعشرات الأذرع العارية الضاربة إلى السمرة، بدأت البوابة تبتعد ببطء عن السور. فأمطر المدافعون الغاضبون بالسهام والقار المنصهر الرجال الذين كانوا يحاولون رفع البوابة بعيداً. سُحب هؤلاء الموتى الذين كانت قبضاتهم لا تزال تتشبث بأجزائها المعدنية مع البوابة نفسها وسط الغبار، ولكن ما من أحد انتبه إليهم. ورفع المهاجمون - وقد تقطعت أنفاسهم وتفصدوا عرقاً وغطتهم ذرات الغبار الأسود - البوابة الثقيلة العتيقة بعيداً عن منطقة القتال وهم يصرخون كأنهم يحملون عروساً شابة.

هدر المدفع مرة أخرى، كل إطلاقة مدفع بدورها، وبعد الإطلاقة الأخيرة التفت ضابط الميرة إلى سيري سالم وقال:

- ذلك هو المدفع الثالث.

فأجاب الطبيب وهو يحدق إلى نقطة فوق الاستحكامات حيث كانت مجموعة من الدراويش تشتبك بالأيدي مع العدو:

- لقد عرفت الصوت هذه المرة بنفسي.

فلاحظ ضابط الميرة:

- إنه يسدد إلى الأسفل باستمرار.

وافق سيري سالم وهو لا يزال يحدّق إلى الدراويش:

- هذا صحيح.

في المنطقة الشاغرة الممتدة بين المعسكر والجنود المهاجمين، كان المبعوثون يعدون على صهوات جيادهم جيئة وذهاباً على نحو متفرق. وكانت فرق النقالات تحمل الجرحى وتندفع عائدة من أسفل سور القلعة. وانطلقت مجموعة صغيرة من الجنود يحملون طبولاً من جانب المعسكر ليحلوا محل جنود الصفوف الأمامية الذين اخترقتهم السهام ومزقتهم، فلزموا الصمت أو باتوا يئنون أنيناً مميتاً تقريباً بحسب خطورة جراحهم.

قال سيري سالم متعجباً إلى حدٍّ ما وهو يرنو بعينيه كي يرى على نحو أفضل ما يجري على بعد مسافة منه:

- لقد أسروا واحداً! لقد أسروا واحداً!

رنا ضابط الميرة إلى الاتجاه نفسه.

قال الطبيب بعد مدة وجيزة:

- آه، لقد خدعتني عيناي!

لكنه هتف مرة أخرى وقد بانت نظرة جهنمية في عينيه:

- ها هو! ها هو!

لكنه كان مخطئاً للمرة الثانية. وأخيراً ظهر أحد الدراويش على قمة السور وعلى كتفه جسم رجل. وبخفة السنور أمسك بأعلى السلم وبدأ يهبط من دون أن يرمي حمله. لا بد من أنه كان يصيح بأعلى صوته أنه يحمل أسيراً للباشا لأن الانكشارية وهم يرتقون السلالم تنحوا جانباً كي يمر. كان السلم يحترق من مكان أو مكانين، وكان المشاة قد أحضروا سلماً آخر ليحل محله، لكن الدرويش أفلح في الوصول إلى الأرض قبل أن ينهار. وغاب عن الأنظار لبضع دقائق، ليظهر مرة أخرى وسط حشد الجنود، وكان الأسير لا يزال على ظهره.

صاح سيري سالم بأعلى صوته:

- ها هو! ها هو!

التفت الباشا ومعاونوه لينظروا إلى حيث كان الطبيب يشير. كان الدرويش يركض نحوهم بالرغم من أنه كان يحمل رجلاً فوق ظهره، مثيراً سحابة غبار تحت قدميه الحافيتين. كان وجهه الداكن يقطر عرقاً أمام مشاهديه، وكان صدره يعلو ويهبط وهو يتنشق بشراهة الهواء اللافح، وكان الدم يسيل من رقبته حتى أسفل جسده العاري، لكن لم تكن هناك وسيلة لمعرفة إن كان الدم دمه أم دم الجسم المجهول الذي يحمله. وبقي رأس الأجنبي ذو الشعر الأشقر يتمايل يمنة ويسرة فوق كتف

الدرويش الحديدي.

أمر سيري سالم بصوت عنيف فجأة وقد انقلب لون وجهه ورقبته إلى لون أرجواني:

- اطرحه أرضاً!

تنهد الدرويش تنهيدة أخيرة ورفع الأسير عن كتفه، وانحنى إلى الأمام وطرحه أرضاً، فانحنى سيري سالم فوق الجسم وتفحص الصدر والوجه والفم والعينين تفحصاً سريعاً.

ثم هتف:

- إنه لا يزال حياً!

- حياً؟

- نعم، لكنه يوشك على الموت.

فتح فم الأسير ونظر إلى لسانه.

فسأل الباشا:

- هل هو ظمآن؟

- نعم، إنه ظمآن يا مولاي، والآن سنرى مدى ظمئه.

حشر سيري سالم يده في جيبه وأخرج سكيناً، ومال فوق الجسد وبدأ عمله. أشاح بعض الحاضرين بوجوههم جانباً، وكان معظمهم قد شاهدوا مجازر كبيرة لكن وجوههم امتقعت لدى رؤيتهم ما كان الطبيب يفعله، وللمرة الأولى علموا أن تقطيع الجسد تقطيعاً بطيئاً ومتواصلاً يمكن أن يكون أشد تأثيراً بمئة مرة من تأثير رمح أو سيف. ظل سيري سالم يعمل دقائق عديدة على الجسد العاري، وعندما انتصب واقفاً على قدميه كانت يداه ومرفقاه ملوثة بالدم. ثم رفع ذراعيه كي لا يلطخ رداءه وذهب صوب الباشا وقال:

- تبدو جافة تماماً - مصابة بالجفاف كما يقول زملاؤنا - لكنهم

لا يزالون يشربون القليل من الماء.

طرفت عين الباشا منهوك القوى، وتنفس تنفساً عميقاً، وأشار بيده، فأُبعدت الجثة عن المكان. كان الدرويش لا يزال واقفاً في مكانه وهو يلهث.

قال الباشا:

- كافئوا هذا الرجل!

حاول بعينيه الكليلتين أن يرنو إلى امتداد السور كله حيث كانت المعركة لا تزال دائرة، فلاحظ أن الصورة الكلية لم تتغير، فهناك حركة فوضوية لا تتوقف، ومئات السلالم، بعضها اعتلاها الجنود وبعضها الآخر مهملة، وأخرى استحالت فحماً بعد احتراقها، لكن الغبار الأصفر لا يزال يعصف ويعصف في المنطقة، ويتساقط على أجساد جريحة، مقطعة، متعرّقة. وبدأت الشمس بالمغيب، غير أنَّ الحرارة ظلت مرتفعة، وغامت عينا الباشا من فرط التعب، وكاد أن يستسلم للنوم بين الحين والآخر، ولم تُعده إلى وعيه إلا زمجرة المدافع.

وجاء مبعوث يخب على صهوة جواده، وقال باقتضاب:

- قُتل أُوتش تونجقورت.

حوَّل الباشا ناظريه إلى البرج الشرقي حيث تجمع الخيالة، وبدا الجنود وكأنهم يتحركون على نحو أخرق، وكأنهم في حلم، لكن الباشا كان يدرك إدراكاً جيداً ما كان يحدث هناك ومقدار الجهد والإصرار الكامنين وراء خمولهم الظاهري.

في محاولة لإعادة الثقة إلى نفسه، حوَّل ناظريه عن الخيَّالة إلى الأسفل صوب الجزء الأدنى من الاستحكامات حيث كانت موجات من المشاة بقيادة قره مقبل لا تزال تتحمل عبء الهجوم الأكبر. وكان هو نفسه قائداً لتلك الوحدة ذات يوم، وكان يدرك معنى ما يسميه الوقوع تحت مطرقة الهجوم، أي أن تسحب دائماً السلالم المحترقة، وتنصب

سـلالم أخرى جديدة بدلاً منها، ثم تسـقط عنها ولا تنهض ثانية، وأن تُصاب بسهم طائش، وأن يُرمى عليك القار أو الكبريت، وأخيراً، وهذا هو أسـوأ ما يمكن أن يحدث لك، أن تطأك أقدام رفاقك من المغاوير والانكشارية وحملة السيوف وفرق الموت ولا تملك الحق في الشكوى من ذلك وحسب، بل تضطر أيضاً إلى أن تنظر بدهشة إلى أولئك الذين يتسلقون ذرى المجد، في حين تظل قابعاً في الأسفل كأنك حقير، وأن تموت ميتة لن يعرف بها أحد، تماماً كالحياة التي عشتها...

حرَّك تافجا العجوز قواته من الانكشارية بضع خطوات إلى الوراء بعيداً عن المنطقة الشاغرة التي كانت فيها البوابة الرئيسة والتي أصبحت الآن أكثر إثارة للهلع. وكان رجاله المتكورون تحت السواتر التي احترق العديد منها، ينتظرون الأمر للاندفاع نحو البوابة الداخلية.

فوق الاستحكامات، قاتل جنود الخيالة قتالاً ضارياً للاستيلاء على الممـر فيهـا، لكـن النجـاح لـم يحالفهـم حتـى الآن، إذ لم يصل بعد إلى الأعلى عدد كبير منهم، إذ كان معظمهم يتلقون ضربات تطرحهم أرضاً وهم في طريقهم إلى أعلى السلم.

أمـا الذيـن أفلحـوا فـي العثـور علـى موضع أصبع فـي قمة المبنى الحجري فقد تلقوا ضربات وحشية، لكنهم ظلوا متشبثين إلى أن اضطُروا في نهاية المطاف إلى أن يرخوا قبضاتهم ويجذبوا معهم إلى أسفل الهاوية أحد القتلى أو الجرحى من المدافعين. لم يحن الوقت بعد لدخول حملة السيوف ساحة الوغى، كما لم يحن الوقت بعد لدخول صفوة الجيش، وهم الاستشهاديون، معمعان القتال.

بـدأ المدفـع يـدوي مـرة أخـرى بقصف متتابع وكأنـه يذكِّر الناجين بوجود مستوىً أعلى حيث الضربات المسددة أشد قوة ولا يماثل شدتها شيء.

انفجرت غمامة من غبار في ثغرة فُتحت عند البوابة الداخلية.

قال ضابط الميرة موجهاً كلامه إلى سيري سالم:

- سيحاول ساروجا استعمال قذائفه المدفعية الكروية لتحطيم الممر برمته.

لم ينبس الطبيب بكلمة، وبدا مستغرقاً في التفكير.

فغمغم أحد أمراء الألوية ذو ذراع واحدة:

- ستصادفه مشقة عظيمة في تنفيذ ذلك.

فردَّ ضابط الميرة:

- نعم، هناك مشقة على وجه التأكيد، لكن قذيفة واحدة ستحطمه تحطيماً كاملاً، فلديهم مدفع من نمط جديد يستخدمونه للمرة الأولى.

لكن آمر اللواء هزَّ رأسه مُشككاً، وقال معترضاً:

- ليس هناك ما هو أكثر حذقاً من ذلك، إذ لا مناص لهم من التسديد إلى جهة منخفضة، لكن هذا التسديد ينطوي على خطر.

قال ضابط الميرة:

- أعلم ذلك! سدٌ آخر من النيران، فقد ضرب المدفع الثالث الأسوار في النقطة الكائنة فوق البوابة الداخلية، على بعد أذرع إلى جهة اليمين، فاتسعت بذلك الثغرة التي فتحت من قبل.

جأر علي بيه بصوته إلى العالم أجمع:

- ستكون الضربة القادمة موفقة.

بعد الإطلاقة الأخيرة، تحرك جنود الانكشارية مرة أخرى إلى الأعلى باتجاه مدخل القلعة المتسع وهم تحت حماية سواتر القصب الهائلة.

قال آمر اللواء ذو الذراع الواحدة:

- تافجا يستعد.

ثم غمغم إلى نفسه: هيا، تقدم أيها الأبله!

لكن شخصاً آخر قال وهو يزيد من مقامرته:

- سيشنون هجوماً أشدَّ هولاً من الموج المدّي.

ارتعدت فرائص مجموعة الأعيان الذين كانوا يشاهدون المعركة، وكانوا ينتظرون القصف المدفعي التالي. ولم يعد أحد منهم يهتم بعد الآن بما يجري على امتداد السور. هناك سلالم تهوي، واندفاع وتقهقر مفاجئان: لقد حدث مثل هذا الشيء مئات المرات وسط قرع طبول المعركة الذي يصم الآذان. كان اهتمام الجميع منصباً على المنطقة الواقعة حول البوابة الرئيسة حيث كان رجال تافجا، الذين اصطفوا اصطفافاً اتخذ له شكل المربعات، ينتظرون اللحظة المناسبة للانقضاض.

انطلقت مدافع الهاون واحداً تلو الآخر، وارتفع خط سيرها إلى الأعلى فوق الاستحكامات لتسقط بعد ذلك على الجانب الآخر في قلب القلعة. ثم دوَّى المدفعان العملاقان الأول والثاني، فحبس الجميع أنفاسهم، منتظرين الدوي المعهود للمدفع الثالث الذي لم يكن قد انطلق بعد.

بدأ أفراد الانكشارية يتدافعون الآن صوب المدخل الرئيس الذي كان يظهر من خلاله جزء من الفناء الداخلي. كان الفناء مهجوراً تماماً، والرماح والسهام والخرق المشبعة بالقار المحترق والزيت تتساقط دونما انقطاع على السواتر المتحركة، لكن الانكشارية لم يتقهقروا. ويبدو أن المدافعين توقعوا أن العدو يعد العدة للهجوم على البوابة الداخلية، فرفعوا من وتيرة جهدهم لصده. لكن في نقاط أخرى حول السور، كان المشاة والخيالة والمتطوعون يديمون زخم الضغط على نحو يجعل من المستحيل على المحاصَرين سحب أي من جنودهم من خط المواجهة إلى الخلف.

لم يصدر الباشا بعد أمره لحملة السيوف بشن الهجوم، كما أنه لم يرسل بعد ما تبقى من الاستشهاديين، إذ كان ينتظر دوي المدفع العملاق الثالث الذي لم يطلق قذائفه بعد.

تعالت أسئلة من مثل:

- لماذا لا يطلق المدفع؟

- ما الذي يخطط له ساروجا؟

لكنها كانت أسئلة توجه بنبرة عادية وليس بصوت عالٍ، تكررت في جميع الأرجاء وبنفاد صبر متزايد. أرسل الباشا أحد ضباطه على صهوة جواد ليستطلع الأمر من سرية المدفعية. لكن ما إن تقدم الضابط مئة خطوة حتى هزَّ هدير المدفع الثالث العملاق الأرض. كان الحاضرون متوتري الأعصاب بسبب الانتظار على نحو جعلهم يظنون أن صوت الانفجار أقوى مما هو في الواقع. وتبع ذلك صفير غير مألوف يمزق الهواء على ارتفاع منخفض فوق رؤوسهم. وراقبوا النتيجة بقلق متوقعين أن تخترق القذيفة الكروية البوابة الداخلية، لكنها سقطت وسط قوات الانكشارية تماماً...

هتف الباشا متعجباً بنبرة غير مألوفة تماماً:

- آه...!

اندفع جنود الانكشارية الذين كانوا يقفون في صفوف متراصة حتى تلك اللحظة إلى جميع الاتجاهات. وعمّت فوضى عارمة أمام المدخل الرئيس، وهرول الضباط من جميع الجوانب محاولين تقدير مستوى الخسائر تقديراً دقيقاً.

عاد تافجا العجوز على صهوة جواده الأدهم مثيراً زوبعة من الغبار، وبدأ يصيح من مكان بعيد. فتقدم اثنان من الحرس نحو الباشا لحمايته، وترجل آمر الانكشارية عن صهوة جواده كأنه انهار وهو يصرخ بأعلى صوته بكلمات هي مزيج من المنغولية والتركية، فكان على الحاضرين أن يحزروا لا أن يفهموا ما كان يتفوه به. كانت الإشارات التي يبديها بذراعيه كثيفتي الشعر مع كل عبارة يقولها كأنما يريد أن يخنق أحداً. وعندما توقف عن الصراخ، اضطُر الناس إلى الاعتراف بأنه قال بشكل

أو بآخر ما كانوا يتوقعون سماعه منه.

صاح مرة أخرى:

- لقد صرنا مطية لأولئك الخنازير، لأولئك الخونة، لأولئك النصارى! هل رأيتم؟ لقد بدأوا يحصدوننا من الخلف بقذائفهم الكروية! هل يمكننا تحمل ذلك؟ لا، لا يمكننا! لا ومئة لا!

فسأل الباشا:

- كم عدد الذين ماتوا؟

كان تافجا يحتدم غضباً حتى صعب عليه التنفس:

- عشرات! مئات الموتى! أريد أن أنتقم لما حدث لقواتي، أولاد قره خليل! أريد المذنب! نعم يا مولاي الباشا. أريد رأس الجماعة المذنبة! الانكشارية يطالبون بالمذنب!

فأجاب القائد العام:

- سيحصلون عليه.

هدر تافجا بصوت جهوري:

- في هذه اللحظة! إنهم يريدونه الآن! ولا يتمالكون أنفسهم من الغضب، ويريدون الحكم عليه بأنفسهم. أعطِني إياه!

أمر الباشا:

- ليعثروا على الرجل المسؤول الآن! استدعوا شاويش باشي!

جاء آمر المعسكر مهرولاً.

قال له الباشا:

- اعثر على المسؤول، واعتقله على الفور كائناً من كان، وسلِّمه للانكشارية، فهذا حق من حقوقهم، ويمكنهم أن يفعلوا ما يشاؤون بالرجل.

فقاطعه ضابط الميرة وقد امتقع وجهه:

- مولاي الباشا! وإذا تبين أن الرجل ليس إلا... ساروجا؟

رفع طُرسُن باشا عينيه إلى السماء كأنما يريد أن يقول: ليس بإمكاني فعل أي شيء حيال ذلك.

قاد آمر المعسكر كتيبة من المشاة إلى سرية المدفعية لاعتقال المذنب.

قال طُرسُن باشا بصوت عالٍ كأنه يحدث نفسه:

- الشيطان نفسه هو الذي خرَّب هذه العملية.

أدرك أن لا فائدة من الاستمرار في الهجوم بلا الانكشارية، فأصدر أمره بأن تقرع طبول الانسحاب.

فانسحبت الأفواج المنهكة على التوالي تحت أشعة الشمس التي لا تزال حارقة، واستدار الباشا ورجع إلى فسطاطه. كما ذهب ضابط الميرة إلى موقع المدفعية على الفور. في طريقه صادف مجموعة من الانكشارية يقودها تافجا وآمر المعسكر، وكانوا يصرخون مثل مجموعة من كلاب هائجة. شاهد في وسطهم مساعد ساروجا مقيَّد اليدين والرجلين، شاحب الوجه، وثمة ثلاثة أو أربعة ضباط يجرونه على الأرض. هنا رفع الشاب عينيه الفزعتين إلى ضابط الميرة ملتمساً منه العون. غير أن هذه المجموعة كانت تمشي سريعاً ولم تعذب ضابط الميرة تلك النظرة مدة طويلة. فقد أثار اهتمامه صوت محتدم يعرفه جيداً؛ إنه ساروجا يركض وراء الانكشارية وحاجباه خلفه:

- قفوا أيها المتوحشون القذرون! دعوه وشأنه! ولسوف تدفعون حياتكم ثمناً لهذا التصرف!

قال ضابط الميرة برقة وهو يمسك بردنه:

- أصغِ إليَّ لدقيقة واحدة يا ساروجا.

- اتركني وشأني! لا علاقة له بما حدث! قفوا!

اضطر ضابط الميرة إلى أن يركض قليلاً كي يلحق بالسَّبَّاك.

- انتظر! لا داعي للركض وراءهم. ألا تدرك أنك لن تحقق شيئاً بذلك؟ أصغِ إليَّ!

- لا. قفوا أيها المتوحشون القذرون! يا تافجا! يا شاويش باشي! لستم بأفضل من الحيوانات أيها الطفيليون المقززون! قلت لكم توقفوا!

غير أنَّ الانكشارية واصلوا سيرهم بخطىً رشيقة نشطة، ولم يلتفت أحد منهم. وظن ضابط الميرة أنه إذا لم يُهدئ من روع ساروجا، فسيهجم عليهم مستخدماً قبضته وسيضطر إلى دفع ثمن باهظ.

- أرجوك، اهدأ يا أخي ساروجا!

حاول أن يمسك به من الخلف، وأشار إلى حرسه لمساعدته، فجاؤوا إليه لكنهم لم يتجرأوا على وضع أيديهم على عضو من أعضاء المجلس.

- أيها الخنزير القذر، أيها المغفل البشع، يا كومة قذارة يا تافجا توكما خان. سأحطم رأسك الكبير! وسأطلق نيران المدفعية على انكشاريتك حالما أتمكن من ذلك. وسأدمركم جميعاً بلا رحمة!

أخيراً أفلح ضابط الميرة وبصعوبة بالغة في السيطرة على السبَّاك.

كان ساروجا يرغي ويزيد، وعيناه ثابتتان محملقتان.

فقال ضابط الميرة لحاجبه:

- افرك جبينه!

ثم مسح بنفسه الزبد عن شفتي ساروجا، الذي ضعفت محاولاته للتخلص منهم، لكن رأسه بعروقه البارزة ظل باتجاه أولئك الانكشارية الذين يسحلون مساعده، وأصبحت كلماته غير مفهومة الآن، لأن صوته بات أبحّ غليظاً.

عندما توارت الكتيبة عن الأنظار، بدأ ساروجا يئن كأنه مصاب بجرح. قال وهو يتنهد بأنفاس سريعة:

- كيف سأتدبر أمري من دونه؟ سيقتله هؤلاء المتوحشون. قل لي كيف سأتدبر أمري من دونه؟

فأجاب ضابط الميرة:

- سنتشاور في الأمر، وسنحاول إنقاذه.

قال ساروجا متذمراً:

- أي باب ستطرق؟ المكان هنا يشبه الصحراء.

فقال ضابط الميرة مرة أخرى:

- علينا أن نفكّر في الأمر.

رمق ساروجا صديقه بنظرة غامضة محاولاً أن يستجلي إن كان لديه أي أمل أم أنه يحاول أن يبعث السلوى في نفسه.

ثم أضاف بحزن:

- سيندمون على قتله، لكن عندئذٍ سيكون الأوان قد فات.

فكّر ضابط الميرة في مَن سيقدر على التوسط لدى الباشا لإنقاذ حياة معاون السبَّاك. مما لا شك فيه أنه يرغب في الالتماس، لكنه لن يتمكن من أن يؤدي دوره في القضية طالما أن صداقته الوثيقة بساروجا ليست سراً، وأنه يحتاج إلى شخصٍ بعيد نسبياً، ومن شأن كورديسجي أن يكون هو الشخص المناسب، لكنه يتعفن في خيمته بسبب جرحين بليغين أصيب بهما في غارة إسكندر بِك الأخيرة. أما قره مقبل فلن يكون موضع حفاوة بسبب عدم ثقته بتافجا العجوز. على كل حال، وبعد هذا الهجوم المنهك، الذي تحمل فيه هو ومشاته العبء الأكبر في القتال، بات من العبث الحديث عن إنقاذ حياة رجل واحد مع شخص ما شاهد قبل قليل المئات وهم يلقون حتفهم حوله. وفي ما يخص المفتي، فهذا أمر غير وارد، إذ قد يفرك يديه بغبطة لموت أحد الخبراء. وبهذا، لم يعد هناك سوى رجل واحد له نفوذ ويمكن مفاتحته: علي بيه!

قال ضابط الميرة:

- لنذهب لزيارة علي بيه، فربما يستطيع مساعدتنا.

فيما هما سائران صوب خيمته، شاهدا صفوفاً لا حصر لها من الجنود العائدين من موضع المتاريس. وكانت وجوههم تُظهر إنهاكاً رهيباً مثلما تظهره حركات هؤلاء الرجال المتعبين. وكان العديد منهم يساعدون رفاق السلاح الجرحى الذين اهتزت رؤوسهم المحروقة حروقاً خفيفة على نحو غريب فوق أكتافهم. أشاح ضابط الميرة بوجهه مرتين أو ثلاث مرات كي لا يرى تلك الجروح المروِّعة التي اجتمع الحديد والقار والحجارة على إحداثها.

حاولا الوصول إلى هدفهما باللجوء إلى زقاق جانبي، لكن ذلك كان مضيعة للجهد، فقد بدأ المقاتلون يعودون إلى خيامهم من جميع الاتجاهات، صامتين، واجمين. وفيما الشمس تغوص بعيداً عن الأفق وتغمر السماء بوهج برتقالي اللون، بدا المعسكر الكبير كأنه إسفنجة عملاقة تشرَّبت بالعرق والدم.

قال ضابط الميرة:

- ليس الوقت مناسباً لمثل هذا الاتصال. ولكن مع ذلك لنحاول.

كان علي بيه وحيداً في خيمته، وأصغى بانتباه إلى ما قاله ضابط الميرة من دون أن يغير ملامحه الكئيبة قيد شعرة. أما ساروجا فما نبس بكلمة. ولما فرغ ضابط الميرة من كلامه، واصل علي بيه نظرته الطويلة إلى تلك البقعة نفسها على البطانية، وخمَّنا أنهما لن يتوقعا منه أي شيء. ثم أخبرهما أنه سيحظى بشرف عظيم لو تمكن من مد يد العون لعالمين بارزين مثلهما، وأنه فهم فهماً تاماً أن إعدام مثل هذا السبَّاك الماهر يخالف المصالح الحقيقية لكل من هؤلاء الملوك والسلطنة عموماً، وبخاصة أنَّ عصراً من السلاح الجديد قد بدأ، وأن عدد صانعي المدافع في جميع أنحاء السلطنة يمكن أن يُعدَّ على أصابع

اليـد الواحـدة. لكنـه بالرغـم مـن ذلك فكّر في أن الحكمة لا تقتضي منه أن يلتمـس القضيـة أمـام الباشـا، وعليهمـا معرقـة ذلك. وطلب منهما أن يتخيلا الحالة الذهنية لأناس أمضوا ساعات متواصلة يهاجمون بضراوة المتاريس الحصينة ويُشرطون بالرماح ويُحرقون بالقار وبعدها يُحصدون حصداً من الوراء بمدفعية جيشـهم، تلك المدفعية التي بنوا عليها آمالاً عريضة. لهذا ليس من السـهل مناقشـة أمثال هؤلاء الناس في مثل هذا الظرف، وبخاصة أن العديد منهم يعانون ضربة شمس؛ حتى لو غضضنا الطرف عن تورط تافجا.

هنا صبَّ ساروجا لعنة لدى ذكر اسم قائد الانكشارية الكريه.

فيما هما ينصرفان، نصحهما علي بيه بمقابلة الباشا شخصياً بالرغم من أنه لا يُعوِّل كثيراً على أمل النجاح.

بعد أن خرجا من الخيمة، أعلن ساروجا بحماسة:

– لنذهب للقاء الباشا! لنذهب إليه مباشرة لأننا إذا لم نذهب، فإن ذلك التافه سيكون قادراً تماماً على إعدام الفتى على الفور!

سـارا سـيراً سـريعاً صوب خيمة القائد العام، التي كان يقف أمام بابها اثنان من الحرس يحملان فأسين في حالة الاستعداد.

قال ضابط الميرة باقتضاب للحاجب الذي خرج من الخيمة ليتفقد حاجتهما:

– علينا رؤية الباشا.

أجاب الحاجب:

– الباشا مرهق، وقد أصدر أوامره بألا يزعجه أحد.

قال ساروجا بإصرار:

– قـل لـه إن القضيـة عاجلـة، فأنا رئيس المهندسـين وهذا صديقي ضابط الميرة.

قال الشاب منحنياً:

- إنني أعرف من أنتما.

ثم دخل الخيمة.

عاد الحاجب بعد بضع دقائق، وقال:

- الباشا مصاب بالتهاب في بلعومه ولا يستطيع رؤيتكما.

مدَّ ساروجا يده إلى بلعومه وكأن هناك من هاجمه وقال:

- قل له إننا... إننا...

لكن الحاجب كان قد اختفى، وضبط ساروجا نظرة أحد الحارسين الجانبية.

قال ضابط الميرة:

- من الأفضل أن نرحل!

انصرفا، وسارا بتؤدة، إذ لم يعد هناك أي سبب يدفعهما للعجلة. كانت الأرض المنبسطة أمام المتاريس، والتي كانت قبل بضع ساعات مشهداً لدويّ هائل رافقته المئات من دقات طبول الحرب، مهجورة وهادئة. كل ما بقي هناك أنقاض البوابة الحديدية الكبيرة التي نقلت إلى مكان قصي في أطراف المعسكر.

فيما هما يمشيان، وصلا إلى صف طويل من العربات انطلقت لجمع جثث القتلى.

قادتهما خطواتهما من دون تفكير إلى المنطقة التي نصب فيها الانكشارية خيامهم، فسارا صامتين كأنهما لا يريدان الوصول إلى حيث يذهبان.

جَرَّا أقدامهما بتردد حتى عندما صادفهما حشد كبير من الانكشارية بدا وكأن شيئاً ما يجري بينهم. ثم بدأ الناس يتفرقون مثنىً وثلاث، ولا بد من أن كل شيء قد انتهى. وبالرغم من ذلك تجولا وسط المتجمهرين حتى وهم ينفضُّون من المكان. كانت أمارات الذهول تلوح على وجوه مَن تبقى منهم، بل بدا بعضهم فاقدي الرشد، يحملون الفؤوس أو السيوف بأيديهم. ولاحظ ضابط الميرة وصديقه ساروجا منكبي تافجا

العريضين وكان يوشك على الانصراف وخلفه رجاله. فاقتربا، وفيما هما يبحثان عن جثة الضحية شاهدا جنود الهندسة العسكرية وهم يضعون شيئاً ما فوق نقالة. ولم يعد ذلك الشيء جسد وعظم حتى أطرافه، بل مجرد تراب وبقايا جسد وعظم وحجارة تحولت إلى عجينة بفعل ضربات السيوف والفؤوس المجنونة.

لم يتمكنا من إبعاد أنظارهما عن النقالة التي نقلت فوقها تلك البقايا. ونظر بعض الانكشارية نظرة استغراب إلى عضوي المجلس. كانت الكراهية قد غادرت عيونهم، ولم يبدُ على ملامحهم سوى الذهول والإنهاك الشديد، حدجهم ضابط الميرة بنظرة ثابتة، فقبل لحظات قصيرة كانوا يضربون السبَّاك بكل النفور والخوف اللذين ألهمتهم بهما خفايا العلوم التي طالما عذَّبت عقولهم، اعتقدوا أنهم بتقطيع أوصال العالم الفني إنما يحررون أنفسهم من قبضة الإرهاب الذي ينطوي عليه المجهول. لكنهم لن يكونوا أحراراً منه إلا لمدة قصيرة، لأن الإرهاب نفسه سرعان ما سيعود إلى أذهانهم ويحتلها مرة أخرى. ومن أجل راحة البال، سينطلقون بحثاً عن رأس آخر يحطمونه...

ابتعد ضابط الميرة وساروجا من دون أن ينبسا بكلمة. كانت الشمس مائلة إلى الغروب، وبدأت تعود إلى المعسكر أولى العربات التي كانت محملة بجثث القتلى. في بعض الأحيان، كان الدم يقطر من بين الألواح الخشبية على العجلات. المعسكر هامد بلا حياة. ومر أمامهما أفراد من الهندسة العسكرية يحملون المجارف والمعاول، في طريقهم ربما إلى حفر القبور. فجأة حيَّاهما صوت من ورائهما، لكنهما لم ينتبها إليه بادئ الأمر.

كرر سيري سالم، وكان يخطو خطوات سريعة إلى الأمام:

- مرحباً أيها الأفنديَّان.

فأجاب ضابط الميرة:

- مرحباً بك.

فسأل الطبيب:

- ماذا جرى؟

لا جواب.

ثم قال الطبيب من دون أن يسأله أحد:

- إنني ماضٍ في طريقي إلى الباشا، فقد فكّرت في طريقة أخرى نحرمهم بها من مائهم.

لم يردَّا على تلك الملاحظة أيضاً. أصبح الطبيب الآن يسير إلى جانبهما، فيما بدا ظله المشوه بفعل ضوء المساء أكبر من حجمه الاعتيادي. أما وجهه ورقبته الطويلة فقد باتا أرجوانيين.

قال بمرارة وهو يزيد من سرعة خطواته:

- أتظنان الحرب لا يصنعها سوى المدفع والحسابات؟

بعد أن سبقهما ببضع خطوات التفت إليهما ليطرح سؤالاً:

- ما رأيكما بالجرذان أيها الأفنديّان؟ هل خطرت ببالكما الجرذان؟

فغمغم ضابط الميرة:

- لا بد من أنه تعرض للشمس طويلاً.

لم يقل ساروجا شيئاً.

أصبحا الآن في قلب المعسكر الذي لم يسبق لهما أن شاهداه خالياً كما يشاهدانه الآن. شاهدا فريقاً من الأطباء يخرجون من خيمة كورديسجي الكبيرة، ومجموعة أخرى من جنود الهندسة العسكرية في طريقهما إلى حفر قبر جماعي.

* * *

شنّوا هجوماً ضارياً علينا يشبه الهجوم الأول، وصددناهم كما في الهجوم الأول. لقد أوشكنا أن نفقد صوابنا بسبب الحرارة الشديدة وكنا نموت عطشاً. لكننا بالرغم من ذلك صمدنا.

في أسوأ لحظات المعركة قرر القدر أن يخفق أحد مدافعهم – وهو المدفع الأشد إثارة للهلع في النفس – في تحطيم البوابة الداخلية، والأكثر من هذا، سقط وسط رجالهم، وبهذا توقف الهجوم.

في إمكاننا أن نرى من مواقعنا ساحات تدريبهم حيث يجرب رجالهم الآن ضرباً جديداً من السلالم. وكانوا يركضون إلى الأمام والخلف، يلوحون بأذرعهم ويتشبثون بدرجات السلالم بنمط شيطاني من الكلاليب المعدنية. في بعض الأحيان، يحملون في أثناء التدريب مشعلاً، وكأنهم يعدُّون العدَّة لهجوم ليلي.

أما نحن، ففكّرنا في كل الاحتمالات الممكنة. وقمنا بحرق جثث جنودنا الذين لقوا حتفهم ووضعنا رمادهم في جرار ودفناها تحت الأرض، كي لا يتمكن أعداؤنا، إذا ما حدث أي شيء، من العثور عليها وتدنيسها كعادتهم.

هم يدرون أننا في أمس الحاجة إلى الماء، لكنهم أرادوا زيادة معاناتنا بأن نصبوا ما يشبه النافورة في القلعة التي قطعوا فيها مياه القناة، فكان جنودهم يعبثون ويرشون الماء وهم عراة ولا يخجلون على امتداد ساعات النهار الحارقة.

ولأجل تقويض معنوياتنا، أو لرفع معنوياتهم، كانوا يلجأون في بعض الأحيان إلى حيل صبيانية. فعلى سبيل المثال تقدموا يوم أمس إلى البقعة التي أصبحت الآن ساحة مكشوفة أمام بوابتنا الرئيسة رافعين راية بيضاء. ثمّ توقفوا وكأن البوابة لا تزال قائمة حقاً أمامهم، وتظاهروا بأنهم يطرقون عليها، لكنهم كانوا يطرقون على الهواء الرقيق على ما يبدو. وعندما جذب حراسنا أوتار أقواسهم، غطوا وجوههم بمقدّم خوذهم، ولما انتفضت السهام بعيداً عنهم علمنا أنهم كانوا يرتدون تحت ثيابهم الحريرية دروعاً مرنة، مزرودة يتداخل بعضها في بعض.

الفصل الثالث عشر

لم يولِ الباشا اهتمامه لما كانوا يقولونه. وتكلم كل واحد بدوره عن الخسائر التي تكبدتها وحداتهم، وعبَّروا عن رأيهم في الوسائل المناسبة التي يمكن اللجوء إليها للاستمرار في القتال، وعن الاقتراح الأخير الذي طرحه سيري سالم الذي يحضر اجتماع مجلس الحرب للمرة الأولى. غير أن ذهن الباشا كان منشغلاً تماماً بتقرير علي بيه الأخير الذي وصله في صباح ذلك اليوم. في حين كان يقرأ الأسطر المكتظة التي سطرتها يد الكاتب الصغيرة والدقيقة، فكّر إن كان في إمكانه أن يسمع من بينها ذلك الصوت الأجش والتبجح الظاهر الذي لازم جيشه، ولكنه بات الآن صوتاً أكثر خشونة وأكثر امتعاضاً، وتمكن من أن يتبين من تحت الابتهاج والتهليل وبوضوح أكبر ما تخيله على نحو غامض في تلك المرحلة المبكرة، ألا وهو صوتٌ قال الناس إنه السأم من الحرب. لقد علمته تجربته العريقة في الحملات العسكرية أن يصيخ السمع لذلك العزف. ففي كل الحملات التي قادها انتظر ذلك العزف كي يظهر مثل ظهور أحد معارفه القدامى، وإن كان مثيراً للهلع. لم يكن هناك ما يخفيه أكثر منه: ليس الإخفاق في هجماته، ولا التصرفات الانضباطية، ولا التمرد، ولا الشجار الداخلي بين قادته، ولا الشتائم التي تُكال إلى شخصه، ولا الخوف نفسه، ولا حتى أعراض الوباء الأولى؛ لا شيء أثار خوفه أكثر من هذه الغمامة السوداء التي تُطبق بكل صمت على وجوه رجاله وعيونهم وأيديهم وأصواتهم وأسلحتهم وتمطر عليها. هو يعرف أنها قادمة، في هذه الحملة، كما في كل الحملات، بالرغم من أنه بذل قصارى جهده لإبعادها أطول مدة ممكنة. فقد لاحت قبل ستة أسابيع، بعد إخفاق الهجوم الأول، إلاّ أنها سرعان ما تبددت. مما

لا شك فيه أنَّ هناك أموراً ساعدت على تبديد الغمامة السوداء: الأحكام الصورية، والشائعات حول تحقيقات سرية، واكتشاف الجواسيس الذين راقبوا المدفع الجديد، وإصدار الحكم عليهم، والمشاحنات حول النساء الأسيرات، والشبح الذي تردد أنه يجول في وقت متأخر من الليل عند ضفة النهر، ووصول الممثلين من العاصمة (وغرام نجمة الرقص بجندي من الاستشهاديين وإحباطهما بسبب عدم إمكانية زواجهما) والبحث عن قناة الماء، واكتشافها في نهاية المطاف. لكن الباشا كان يعلم أن الإعياء المقصود لا يمكن إبعاده إلى ما لانهاية، إذ يلوح في الأفق دائماً، قريباً في مكان ما، في كل مكان. لم يخشَ أبداً وجوده كما يخشاه الآن، وهو مسلط عليهم الآن، ولم يلاحظ من قبل علامات تنذر به كالتي لاحظها قبل ستة أسابيع. في وسعه الآن أن يشاهد الإعياء والسأم من الحرب أمام عينيه مثل غبار يلف المكان برمته، قديم قدم الحرب نفسها.

كانوا يتحدثون عن الهجوم المقبل. وأعلن ضابط الميرة أنه يؤيد بحزم هجمات متتالية كي لا يمنح الألبان المنهكين الظمئين أي فرصة لاسترداد عافيتهم ونشاطهم. كان الباشا يدرك إدراكاً تاماً أن قلق ضابط الميرة الأكبر يتمثل في أن مخزونهم من المواد الغذائية آخذ بالتناقص. فقد أفسدت غارة إسكندر بِك الليلية قسماً من مخزونهم، وبخاصة دِنان العسل والأرز. وتكلم ضابط الميرة بمرارة عن أولئك الموجودين معهم الذين بالرغم من تفكيرهم الصائب في أهمية حماية ذلك الجزء من المعسكر الذي توجد فيه المدفعية وجنود النخبة وخيام القادة العسكريين (مشيراً إلى "بما فيها خيمتي")، إلاَّ أنهم كانوا غير مبالين على نحو يدعو للشجب والإدانة بمصير مخازن الغذاء، كأنها لا تخصّ أي طرف. ومضى في كلامه قائلاً إنه في ليلة الغارة انسكب العسل فوق الأرض وانفطر قلبه لمرأى حوافر الجياد وهي تتوغل فيه.

ثم سأل بنبرة ساخرة واضحة:

- أيمكنني أن أفترض أن هذا العمل كان حيلة ماكرة من ابتكار أحد قادتنا لعرقلة تقدم العدو؟

هنا امتقع وجه الضابط المسؤول عن أمن المعسكر، وصرَّح في محاولة مرتبكة ومريرة لتبرير ذاته أنه مندهش إذ يضع أعضاء مجلس الحرب ثمناً لمادة غذائية كالعسل مساوياً للثمن الذي يضعونه على دماء الجنود الأتراك. فبانت على وجه ضابط الميرة أمارات الاستياء، وأخبر الرجل أنهم في اجتماع مجلس الحرب وليس في مسابقة تجري في ظل أجواء شديدة الحرارة. كما بدا أن علي بيه يوشك أن يقول شيئاً أشد قسوة إذ تدخل وقال إن مثل هذه المقارنة لم تعقد من قبل في مجلس الحرب، وإنّ قوانين السلطنة تقتضي تخصيص حصة من العسل لكل جندي قبل شن الهجوم مباشرة لمنحهم القوة والنشاط، لهذا السبب، فإن هذه المادة الغذائية ذات قيمة عسكرية، وأراد ضابط الميرة أن يوضح هذه النقطة.

حثهم طُرسُن باشا على العودة إلى موضوع الهجوم، فأتى أحدهم على ذكر الفلكي. فسأل الباشا بنبرة ساخرة لا تخفى:

- وما الذي يقوله هذا الفلكي؟

لم يجب أحد. فكرر الباشا سؤاله ملتفتاً إلى المفتي الذي يرتبط عادة بالفلكيين ارتباطاً وثيقاً.

صمت.

وقال الباشا بصوت بدأ يغلظ:

- إنَّ جنودنا يُقطَّعون إرباً إرباً فوق الاستحكامات، في حين لا يهتم ذلك الرجل بطرح أي توقُّعات! اجلدوه أمام الملأ، ثم أرسلوه للعمل في المقابر الجماعية كسلفه.

لم يندهش الحاضرون بمثل هذا الجيشان والهيجان. فقد كان الباشا واضحاً في امتعاضه من كل المفتشين والمبعوثين الذين ترسلهم

العاصمة، واعتقد أن معظمهم كانوا يأتون لمشاهدة سقوطه، ولهذا انتهز فرصة الاستناد إليهم والاعتماد عليهم.

بعد توقف قصير يسمح للمساعد بتدوين الحكم الصادر بحق الفلكي، استأنف أعضاء مجلس الحرب محاولاتهم، فعبَّر البعض منهم عن اعتراضه على الهجمات على القلعة، وقالوا إنهم يفضلون الانتظار حتى تُحدِث خطة سيري سالم أثرها الكامل وتتلوث آبار المياه. وتابع الباشا الحديث مدة من الزمن، لكن انتباهه تشتت مرة أخرى.

أشار أحدهم إلى الغيوم.

قال ضابط الميرة:

- واأسفاه! لا يمكن لملك الملوك أن يصدر الأوامر بالانسحاب.

ثم استطرد في محاولة لمواجهة قره مقبل الذي اعترض على شن الهجوم مرة أخرى:

- يوماً ما ستظهر الغيوم في الأفق وستمطر فجأة وتطفئ ظمأ المدافعين بالرغم من كل جهودنا التي استغرقت وقتاً طويلاً لجعل عطشهم غير قابل للاحتمال.

مطر! لم يكن المطر ليخطر ببال الباشا باستمرار كما هي الحال خلال الأسبوعين الماضيين، فشجب الفكرة، وحاول أن يطردها من ذهنه، لكن بلا طائل. وتذكر وهو ينظر إلى السماء الزرقاء الصافية البهية مستشعراً أشعة الشمس الحارقة أن المطر اختفى إلى الأبد عن سطح الأرض. لكنه بالرغم من ذلك كان يعلم أنهم في تلك اللحظة التي يختنقون فيها من شدة الحر، فإن النظر في مكان آخر، وفي بلاد أخرى، كان ينزل بهدوء وباطراد وعلى نحو محبط كالموت نفسه. المطر بعيد جداً في الوقت الراهن، لكن الغيوم الغادرة لا تحتاج إلى ساعات طوال كي تأتي إليهم وتغرق جهودهم ببصقة كريهة.

واصل ضابط الميرة كلامه:

- إنهم يأملون في المطر. فقد وضعوا فوق أبراجهم أطباقاً معدنية تدور على محورها وبها يمكنهم توقع الطقس، مما يعني أنهم يقتربون من نهايتهم، ولا بد لنا من أن نسرع.

بهذه الكلمات انهار الاجتماع وسادته الفوضى والارتباك فتشوشت الأذهان وجدَّ الاختلاف في الرأي، وصار أمراء الأَلوِية هدفاً أولياً للهجوم قبل أن تتحول الأنظار بعد ذلك إلى المفتي الذي بدا مرتبكاً مغلوباً على أمره، فهو جعل العقوبة التي صدرت على الفلكي مواجهة شخصية وكان يختنق غيظاً. وفجأة طلب الإذن بالكلام.

وقال بجد:

- هناك سبب واحد لا أكثر لكل ما حدث: عدم الالتزام بالأوامر الصارمة! لقد وقع الجيش ضحية لعدم الالتزام بالأوامر، ولا بد من أنَّ رمز النصارى الديني يمارس عمله. لقد ضعفت روحنا الدينية، وانتشر الإلحاد. وفي الهجوم الأخير، كان عدد كبير من جنود الخيالة ثملين. ويمكن ملاحظة حالة الانحلال في كل مكان، لكن ضباطنا يغضُّون أبصارهم عن ذلك.

حضَّهم المفتي على أن يحكموا قبضتهم على مجريات الأمور وإلاَّ فات الأوان. والتمس أن تكون قراءة القرآن إجبارية وأن تُحظر المشروبات، وأن يُمنع بيع النساء الأسيرات وتواجد بنات الهوى، وطالب بعدم إرسال أي ممثلين بعد الآن من العاصمة، لأن الجنود العثمانيين ليسوا بحاجة إلى بنات هوى يهززن خصورهن أو إلى منحرفات شابات يتبخترن ويعرضن أحدث تصاميم الأزياء.

واصل كلامه وهو ينظر مباشرة إلى عيني طُرسُن باشا:

- ثمة شيء واحد وأخير. ففي مصلحة الجيش وفي مصلحتك أيضاً التخلي عن زوجاتك اللواتي أحضرتهن معك إلى هنا. هذا كل ما لدي.

ران صمت مطبق حتى المساعد نفسه لم يعد يجرؤ على كسره بخربشة ريشته.

قال الباشا لنفسه: حيَّة تحت تبن!

شعَّت عيناه إشعاعاً يفوق إشعاع قطعة الياقوت في خاتمه. وحبس الجميع أنفاسهم، فقد كانوا يعلمون تماماً أن النزاع بين الزعماء الدينيين والزعماء العسكريين هو الذي يمكن أن يتسبب في آثار مباشرة أكثر من أي نزاعات أخرى محتملة بين أعضاء مجلس الحرب. وبدا الأمر وكأن ملك الملوك الذي يتمتع بالسلطتين الدينية والدنيوية يقطع أوصاله.

غمغم طُرسُن باشا إلى نفسه: أفعى سامة وعقرب اجتمعتا معاً! لا بد أن المفتي يعلم أنه لم يعد في مقدمة المحظوظين عند الباب العالي، وإلاَّ كيف يتجرأ على الهزء بالسلطة. لكنّ هناك شيئاً واحداً لا يعرفه المسؤول الديني: لو سجل القائد العام نصراً، فسيكون كل مفتٍ وكل إمامٍ في جميع أنحاء السلطنة عاجزين عن فعل أي شيء تجاهه. من ناحيةٍ أخرى، كان الباشا يدرك إدراكاً جيداً أنه إذا ما هُزِمَ، عندئذٍ يمكن لنملة أن تقضي عليه.

مرة أخرى قال في نفسه متلعثماً: أيها الطفيلي المؤذي!

تمنى لو كان في وسعه أن ينهال على رأس المفتي بكل الشتائم التي شتم بها ساروجا تافجا قبل بضعة أيام وأخبره بها كابدوك آغا في تقرير سري. لكن بما أنه غير معتاد على استخدام لغة نابية، لهذا لم يستطع تذكر الكلمات. لكن سبق أن قال ساروجا ذات مرة:

- أيها التافه!

ثم في مناسبة أخرى:

- سأقتلع لحيتك، وأمسح مؤخرتي بها!

لكن حتى قبل أن يفتح فاه ليرد عليه، أدرك جميع الحاضرين أنه

يظـن نفسـه وقـد انعقـد لـه لـواء النصـر، وأن هذا يكفـي ليقف معظمهم إلى جانبه.

قال وهو يتلفظ كل كلمة لوحدها:

- آه يا مفتي! لقد سـمعت ما قلته. لقد سـمعتك تتكلم بسـوء عن ضباطنا وجنودنا البواسل وهم في المعركة. والآن حان دورك كي تصغي إليَّ: النسـاء الأسـيرات مسـموح بهن، والممثلون من العاصمة مسـموح بهم، وسيُقرأ القرآن كما يُقرأ الآن، من دون زيادة أو نقصان. وسيسمح للجنود، مثلما يُسمح لي، بالاستمتاع خارج أوقات الواجب حسبما يرون ذلك ملائماً. وإذا لم يعجبك ذلك، فيمكنك أن تخرج الآن إن شئت!

صدر عن تاهانكا صوت كأنه خارج عن رقبة مقطوعة. وفي حين بقيت نتيجة النزاع غير مؤكدة، أثار ذلك الصوت حسد جميع الحاضرين لأن معناه لا يسبر غوره. على كل حال، كانوا يعرفون أن ما يقوله تاهانكا فـي الاجتماعـات إنمـا يكتبـه المسـاعد علـى أنه «أصوات مـن تاهانكا». بالإضافة إلى ذلك، على الأرجح أنه سيؤيد رأي الباشا لأن الباشا دافع عن خيَّالته.

هتف المفتي من دون أن ينهض من مكانه:

- زِن كلماتك بعناية يا مولاي الباشـا! فإنك لسـت من عينني في الوظيفة التي أقوم بها.

فردَّ عليه طُرسُن باشا:

- لكننـي أنـا القائـد هنـا. ومـن هـذه اللحظـة أحرمـك مـن حـق الكلام.

بدا الصمت الذي تلا ذلك مشحوناً بمغزىً جديد على نحو أصبح معه صوت ريشـة المسـاعد النفاذ هو الأسـلوب الأمثل لتسـجيل حرمان المفتي من فتح فمه.

- والآن دعنـي أحـذرك. إن أي تمـرد، ومـن أي جهـة، بمـن فيهـا

أنت، سيؤدي إلى وضع أي محرّض في الحبس. وسأكون مسؤولاً أمام السلطان نفسه عن مثل هذه الأعمال جميعاً.

طلب ضابط الميرة الإذن بالكلام.

- بعد كل الذي سمعناه، ينبغي لنا أن نفترض أن حالة الطوارئ قد أُعلنت.

فأجاب الباشا:

- نعم. هذا هو ما حدث تماماً.

فقال ضابط الميرة قبل أن يجلس:

- إذاً، فهمت مرادك يا مولاي!

واستأنف القائد العام حديثه:

- يمكن الآن مناقشة تقرير الطبيب، باختصار.

عزم علي بيه على تصفية الأجواء عزماً واضحاً، فخاطب سيري سالم بنبرة صوت مريحة تماماً كأن شيئاً لم يحدث وسأله عن عدد الأيام المطلوبة لانتشار الوباء.

فأجاب الطبيب:

- عند حصار مدينة حلب للمرة الثانية، بدأ الوباء بالانتشار بعد إدخال الحيوانات المصابة بخمسة عشر يوماً، ولكن ينبغي ألاّ ننسى أن الجرذان الميتة وحدها هي التي استخدمت في حلب. أما الحيوانات الحية فتتحرك هنا وهناك وتنقل المرض بسرعة أكبر.

سأل ساروجا:

- هل نحتاج إلى موافقة من القيادة العليا للجوء إلى هذه الوسيلة؟

غمغم صوتان أو ثلاثة أصوات: ماذا يعني بهذا الكلام؟

استطرد ساروجا بنبرة أكثر حدَّة:

- لا أفهم لماذا يثير سؤالي دهشتكم؟ إن موافقة القيادة العليا مطلوبة لاستعمال أي سلاح جديد. إنني أعلم أن استخدام الجرذان الميتة مسموح به، لكنني لست متأكداً من السماح باستخدام الحيوانات الحية.

فردَّ الطبيب:

- كان استخدام الحيوانات الحية ممنوعاً في السابق لأسباب ذات صلة بالأمان، لكن رئيس الوزراء أرسل لنا تخويلاً قبل ثلاثة أشهر.

فسأل ساروجا:

- هل ثمة شروط؟

تابع الحاضرون هذه المناقشة باهتمام، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يتناقش فيها أهل الخبرة مثل هذا النقاش.

وردَّ الطبيب:

- نعم، ثمة شروط، إذ لا يُسمح باستخدام المنجنيق لإيصالها داخل القلعة خشية أن تُفتح أقفاص الحيوانات قبل أن يكتمل وصولها بعد.

ثم طرح سيري سالم المفارقة التي واجهتهم. فإذا كانت الأقفاص متينة بما يكفي للبقاء سليمة في أثناء الاندفاع، فإنها لن تكون هشة بما يكفي لتحطيمها في أثناء سقوطها. من جهة أخرى، إذا كانت مصممة كي تنفتح عند السقوط، عندئذٍ ربما... هذا هو السبب الذي جعلهم يخططون كي يحملها الجنود معهم إلى أعلى الأسوار ورميها فوق المتاريس.

فقاطعه قره مقبل:

- هل فكّرت في الجنود؟

فأجاب الطبيب:

- حتماً، وسيُزودون بقفازات وقبعات جلدية.

فلاحظ أحدهم:

- مثل الجلادين.

- مثل الجلادين أو مثل الأشباح.

فأجاب الطبيب إجابة لاذعة:

- جلادون أم أشباح، ما الفرق؟ المهم هو أن يكونوا محميين من العضّ عندما يفتحون الأقفاص.

ارتاحوا كلهم لهذا الفاصل الاعتيادي نسبياً بعد أن ظلوا يعانون التوتر الشديد بسبب المناقشات السابقة. كما أن القائد العام بدا معجباً بهذا الفاصل.

غير أن تافجا العجوز تدخل قائلاً:

- على كل حال، إنها أفضل من فكرة استعمال المنجنيق. إنني أتذكر أننا عندما حاصرنا سميندرا للمرة الأولى أمضينا أُسبوعاً في قذف الجرذان والكلاب وحتى الحمير النافقة داخل القلعة. ثم بدأوا يقذفون بالمنجنيق جثث السجناء، وبلغ انغماس القائمين على الآلة حدّاً جعلهم يبدأون بقذف دِنان الماء القذر والغائط من فوق الجدران. ومما لا شك فيه أن المدافعين أصيبوا بأمراض وبالتالي استسلموا، لكن ما الفائدة؟ فقد كانت الرائحة مثيرة للغثيان حتى إن جنودنا لم يدخلوا ذلك المكان بعد أن استولينا عليه. فقد أضعف خطر العدوى من حماستهم! لهذا لم تكن ثمة غنائم، ولا أسيرات، وكان النصر نصراً بائساً. أعتقد أنني محق إذ إننا منذ تلك الحادثة لم يُسمح لنا بقذف القاذورات بالمنجنيق. أما بخصوص الحيوانات الحية فتلك قضية أخرى، وأنا لست ضدها.

ثم تكلم كل واحد بدوره ليعبر عن وجهة نظره، وبعد ذلك شعر الجميع بالراحة والاطمئنان باستثناء المفتي الذي بقي في عزلة وبلا حظوة، وبدا أن استئناف الحديث استئنافاً طبيعياً زاد من احتدام غضبه وعمّق من عزلته.

وافقوا بالإجماع على خطة الطبيب باستثناء ساروجا الذي عارضها لأسباب لم يفهمها أحد.

أخيراً، استعد الباشا لإلقاء كلمته، وتكلم ببطء واستغرق وقتاً أطول مما اعتاد عليه، بصوت ازداد غلظة بسبب البرد الذي أصابه. قرر أن يحاولوا تلويث المحاصَرين باستخدام حيوانات مصابة بأمراض على امتداد الخطوط التي اقترحها سيري سالم. وهنا تورد وجه الطبيب سروراً حتى الجزء الخلفي من عنقه. سيُستأنف الهجوم، وسيشنون هجمات متتالية حتى يمنعوا العدو من التقاط أنفاسه.

قال:

- نحن هنا لأجل الاستيلاء على القلعة لا للاستغراق في أفكار عميقة، وستكون الهجمات يومية، أو نحو ذلك، ولن نأبه بالخسائر أو العقبات.

كان كلامه ينم عن اعتقاد راسخ لأنه كان يعرف من خلال التجربة أن الهجمات المتواصلة التي لا تترك للجنود وقتاً للتفكير، أو مجالاً للنجاة بأنفسهم هي العلاج الناجع للسأم من الحرب. ثم أضاف، مؤكداً كل كلمة، بأنه يتوقع من الجميع جهداً إضافياً لإعداد الجنود للمعركة. كما أراد منهم - وهذا هو الأمر المهم - أن يشاركوا في القتال بأنفسهم. ثم حدج كل واحد منهم بنظرة قاسية كأنما يريد أن يختار أُولئك الذين لا يتعين عليهم حضور الاجتماع لأنهم يتكئون على مجموعة كبيرة من الوسائد بدلاً من أن يكونوا في أجداثهم على عمق ستّ أقدام، أو في الأقل على أسرّتهم بعد أن أقعدتهم جروح المعارك مثلما أقعدت كورديسجي.

كان صوت الريشة وسط الصمت الذي آل إليه الجميع أشبه برأس خنجر مدبب يحزُّ جلودهم. وأدركوا أن القائد العام يزداد توتراً بمرور الأيام ولا يدري أحد ما الذي يمكن أن يفعله مثل هذا الرجل المهتاج

وهو في هذه الحالة العصبية. وأخيراً أمرهم طُرسُن باشا أن ينفذوا خطة تلويث العدو بمنتهى السرية كي لا يبقى الجنود الذين ستوكل إليهم مهنة الحيوانـات غيـر مدركيـن لطبيعـة مهامهم، وهـو أمر ضروري جداً إذا ما أرادوا تفادي انتشار الهلع بسبب الوباء.

اختتـم الاجتمـاع، وكمـا اقتـرح القائـد العام، رافق كل من علي بيه وقره مقبل وضابط الميرة سـيري سـالم إلى الفسـطاط الذي يحتفظ فيه الطبيب بحيواناته المريضة. وصادفوا في سيرهم جنوداً يتدفقون صوب الساحة الوسطى المقرر أن يتم فيها جلد الفلكي.

لم تعد محاكمة الفلكي تثير اهتمام أحد لأنها استغرقت وقتاً طويلاً جـداً وفـي مـكان أبعـد قليلاً من السـاحة وتحت إحـدى المظلات. بقي النـاس لا ينتظـرون إلاّ موعـد تنفيـذ الحكـم القاضـي بقطـع يدي الرجل أو - فـي أفضـل الأحـوال - اليـد التـي ارتكبـت ذلـك الخطـأ القاتل في عملية رمي السحر.

كان المكان الذي احتفظ فيه الطبيب بحيواناته المصابة - (طريق الموت) على حدّ تعبيره - يقع في الهضبة نفسها التي يوجد فيها معمل سباكة المدافع، ووراء أنقاض ونفايات ارتفعت عالياً مع غيرها من الرماد والمواد الأخرى غير المسـتعملة الخاصة بالمعمل. منظرها بشـع بشـاعة أي ورشـة، يحيط بها سـياج من ألواح خشـبية كما برزت يافطة تحظر الدخول. لكن بخلاف المعمل، ثمة مكان ثانٍ محاط وراء السياج تستند فوقه سقيفة تغطي المساحة بأكملها.

أخرج الحارس المرتبط بسـيري سـالم مفتاحاً وفتح البوابة المثبتة بالسـياج، على حين نادى سـيد هذا المأوى الغريب الكل بلا اسـتثناء قائلاً:

- مرحباً بكم في طريق الموت!

ثم بابتسامة وإشارة من ذراعه الطويلة صوب صفوف من أقفاص

بعضها أكثر ارتفاعاً من بعضها الآخر بمرتين على امتداد المنطقة المسيَّجة:

- هذه هي مملكتي! لا تخافوا، فلا خطر من العدوى في هذا الوقت!

كانت الحيوانات ترتعد وتئن أو تستلقي بلا حراك على الأرض.

أخبرهم أنه اشترك في الحصارات بصفته طبيب الجيش وأنه اعتاد نصب مثل هذه الأقفاص وجمع مختلف أنواع الحيوانات التي اختبر عليها آثار مختلف الأدوية والجراثيم.

رمق قره مقبل بازدراء الأقفاص الصغيرة التي كانت معظمها تحتوي على الجرذان، وكانت هناك أقفاص أخرى تحتوي على كلاب صغيرة وقطط وأرانب وبعض الحيوانات المتوحشة رمادية اللون لم يسبق له أن شاهدها، علاوة على القنافذ والجراد، بل والضفادع أيضاً التي كانت في جرة مملوءة بالماء عند أسفل أحد الأقفاص.

أصغى علي بيه إصغاءً جاداً لشروحات الطبيب، في حين بدا ضابط الميرة منشغل البال بشيء آخر.

وقال سيري سالم:

- ليس استخدام الحيوانات المريضة في الحرب فكرة جديدة. فقد عرف القرطاجيون في العصور الغابرة والجيوش النصرانية في القرون المتأخرة والمغول في حقب زمنية لاحقة مدى فائدتها. لكن تطبيقها لم يكن واسع الانتشار كما ينبغي. وفي أوقات سابقة قُذفت الجثث بالمنجنيق نحو القلاع المحاصرة، لكن استخدام الحيوانات الحيَّة يبدو اليوم وقد أصبح أمراً مألوفاً.

واصل وهو مدرك لنظرة قره مقبل الازدرائية:

- لعل بعض الناس يرون أن هذا الأسلوب غير جدير بجيش عظيم مثل جيشنا، لكن لا يمكن الحيلولة دون ذلك. ففي بعض الأحيان يمكن

أن يكون مبدأ العدوى أشد فعالية من السيف أو المدفع.

لم يقل قره مقبل شيئاً، بل ظل يرنو إلى أقفاص الجرذان باشمئزاز. أما الطبيب، فاستطرد مشيراً إلى أحد الأقفاص:

- انظروا إلى هذه الجرادة الخضراء هناك. إنها جوهرة صغيرة إذا أردتم أن تعطوها حقها، والناس هنا يسمونها جواد الساحرات، ويبدو أن هناك سبباً وراء هذه التسمية، إذ في وسعها أن تنشر الخراب في حقول كاملة من المحاصيل الزراعية، أما إذا أصيبت بعدوى، فإن تأثيرها المدمر يتضاعف عشر مرات. إنها جواد العفريت!

نظر علي بيه إلى كل قفص نظرة متأملة ثم طرح على الطبيب سلسلة من الأسئلة، فأوضح له الأخير كل ما كان يبغي معرفته بدءاً من تفاصيل عن مختلف الأمراض التي تصيب الحيوانات وصولاً إلى الوسائل التي يقذفون بها إلى داخل القلعة. وقال إنه سيترك الحيوانات المريضة بلا طعام أو ماء لبضعة أيام ثم يضعها قبل الهجوم مباشرة في سلال مصنوعة من أغصان صغيرة يشدها الجنود وراء ظهورهم عندما يتسلقون الأسوار. وعندما يصل المهاجمون إلى الثغرات المفتوحة في السور أو إلى المتاريس العالية، فإنهم يقطعون الأربطة بسكاكينهم ويطلقون الحيوانات كي تهرب. ولن يتمكن المدافعون وهم في حمى المعركة من ملاحظة الحيلة بسهولة. وعلى كل حال، حتى لو لاحظوها، فإنهم لن يتمكنوا من اقتفاء أثر الحيوانات وبخاصة الجرذان الجائعة والظمآنة والتي ستنطلق بسرعة صوب مخازن الغذاء أو بئر الماء.

قدَّم سيري سالم تفاصيل أخرى كثيرة عن قدرة الجرذان الاستثنائية على نشر المرض، والمستقبل العظيم الذي ينتظر هذه الأداة الحربية الجديدة.

كادوا يمضون في طريقهم عندما تحمس سيري سالم فجأة وهو يشير إلى المتاريس وقال بجدٍّ:

- إنَّ هؤلاء البشر الذين يقولون إنهم ولدوا من رحم النسور ربما سيقتلهم جرذ!

كان الطبيب قد نحت تلك الجملة منذ أشهر وقد صمم على النطق بها في اجتماع مجلس الحرب، لكن الفرصة لم تسنح له.

أما ضابط الميرة فخَّمن بكل يسر وسهولة أن الطبيب كان يعرف مولى جلبي معرفة جيدة.

سار سيري سالم وإياهم مسافة قصيرة وهم في طريق العودة، ثم استأذنوا بعضهم بعضاً ومضى كلٌّ منهم في طريقه إلى خيمته. وشاهد ضابط الميرة موثِّق الحملة سائراً في الاتجاه المعاكس وهو ما أكد أحاسيسه بشأن العلاقة بينه وبين الطبيب.

سأله:

- أأنت ذاهب لزيارة الطبيب؟

فكّر جلبي في أنه.تنبه إلى مسحة من السخرية في صوت صديقه.

فأجاب:

- نعم.

ثم غمغم في نفسه:

- لتضعف ساقاك على الفور.

واصل ضابط الميرة:

- كنت هناك قبل قليل. سِر معي قليلاً، فأنا أشعر بالسأم.

قطّب موثِّق الحملة حاجبيه:

- أأنت مريض؟

أجاب ضابط الميرة مبتسماً ابتسامة رقيقة:

- لا. كنت معه لسبب مختلف تماماً. كيف حال كتابك؟

حان الآن دور جلبي ليبتسم:

- جيد جداً.

كانت الطرقات التي سارا فيها تكتظ بالجنود العائدين من التدريب أو من مشاهدة الفلكي وهو يتلقى العقوبة. وأفسحوا الطريق أمام ضابط الميرة. وكان العديد من الرجال مستلقين على الأرض بجانب خيامهم.

قال ضابط الميرة:

- إنهم مجهدون، وقد استنزفهم الهجوم الأخير.

فقال جلبي:

- لا بد من أنهم في حيرة من أمرهم هناك أيضاً.

ثم أشار صوب سور القلعة المهجور على ما يبدو الذي انتشرت فيه الثغرات وبات مجللاً بخطوط القار التي امتدت إلى الأسفل تقريباً نحو الأرض.

لكن ضابط الميرة لم يجب.

فقال جلبي:

- يقولون إن بياض عيونهم اسودَّ من شدة التحديق ليلاً ونهاراً من فتحات الاستحكامات في كل الطرقات التي قد يأتي منها المدد.

بدا ضابط الميرة مفكراً في شأن آخر.

قال ساخراً وهو يشير إلى سعد الدين:

- انظر! ها هو شاعرنا الضرير قد أتى. أليس هو أحد أصدقائك؟

لم ينبس جلبي بكلمة هذه المرة.

كان سعد الدين بمفرده ينقر الأرض بعصاه. ولو كان الظرف غير هذا الظرف لشعر موثِّق الحملة بالشفقة على صديقه سيئ الحظ. لكنه

شعر هذه المرة وكأن الرجل جاء عن سابق قصد كي يشوه سمعته فغضب. وحيًّا ضباط آخرون الشاعر خلال مروره بهم، ولما التفت الضرير كي يرد تحيتهم، خفَّض ضابط الميرة من سرعة خطواته ليسمع ما الذي سيقوله الشاعر.

هتف سعد الدين بصوت أجش وهو يدير نحوهم محجري عينيه الفارغين:

- ما الذي أراه من هذا العالم؟ لو كانت لدي عينان لاقتلعتهما كي لا أشاهد مثل هذا العار.

عندما شاهد الضباط ضابط الميرة انحنوا بخنوع متمنين لو أنهم لم يستفزوا الشاعر، لكنَّ الأوان قد فات الآن.

- أتمنى أن تختنق بخبر ملك الملوك.

التفت سعد الدين صوب كل الاتجاهات مندهشاً، على ما يظهر، من الافتقار إلى الردِّ المفاجئ.

وصاح مرة أخرى:

- ما الذي أراه من هذا العالم؟ ميتماً للنجوم الساقطة ولا شيء غيره!

استدار، وعاد أدراجه ينقر الأرض بعصاه وكأنه يهاب هاوية مفتوحة أمامه في كل خطوة يخطوها.

التزم الضباط الهدوء والصمت. ولم يسترق ضابط الميرة النظر إليهم قدر ما مضى في دربه وإلى جانبه موثِّق الحملة.

فقال:

- الطقس حار. جميل أن يكون المرء عند ساحل البحر.

- يبدو أن الساحل ليس ببعيد من هذا المكان.

- نعم، ثمة بحر جميل على مقربة من هذا المكان بالرغم من

غرابة اسمه.

قال جلبي وهو يُهجِّئ اسم البحر:

- كا - دري - آ - تيك، أعتقد أن هذا هو اسمه.

هنا انفجر ضابط الميرة ضاحكاً:

- على الأقل لم تقل كا - دري - بيه! والآن، أصغِ إليَّ بانتباه: إنه أ - دري - ا - تيك، الأدرياتيك!

فشعر جلبي بالخزي.

مضى ضابط الميرة يقول:

- نعم، حقاً إنه لشيء جميل أن يكون المرء قرب ساحل البحر الآن. يُقال إن ملك الملوك ذهب للاستجمام في ماغنيسيا في الأناضول.

لم يعرف جلبي ماذا يقول، فقد كان صديقه يتكلم من دون تكلف عن أناس وعن أشياء ما كان ليجرؤ هو نفسه على التفكير فيها.

- يبدو أنه يمضي وقته في الشؤون الدينية وفي موضوعات مهمة تخص العقيدة.

فقال جلبي نادماً على التفوه بهذه العبارة الوحيدة التي احتفظ بها لمثل هذه الظروف:

- أطال الله في عمره!

انشرحت أساريره وهو يرى خيمة ضابط الميرة غير بعيدة، إذ كان يأمل أن يتخلى صديقه عند الوصول إلى هناك، حيث الإحساس بوجوده في البيت، عن نبرته الساخرة التي وجدها مزعجة.

عند دخولهما الخيمة قال ضابط الميرة:

- تفضل بالجلوس. والآن سأفشي لك سراً.

ثم كشف لموثِّق الحملة عن الحيوانات المريضة التي ستطلق في

القلعة خلال الهجوم المقبل. أصغى جلبي مندهشاً، لكنه اطمأن أيضاً إلى أنه عومل مرة أخرى معاملة الموثوق به. تذكر على نحو غير إرادي كلمات التخوين التي تفوه بها الناس الذين قال إنه سيشعر بالسعادة لو وطأ عليهم حتى يموتوا كالثعابين.

الآن ستثور أسودهم ونمورهم التي زادت الحرب من قسوتها ضد القلعة وسترافقها البراغيث والجراد والضفادع والجرذان... ثم قال لنفسه: آه أيها الكلب الأجرب، لا تتذمر إن تعرضت للتعذيب في ما بعد!

وقال ضابط الميرة:

- إنها محاولتنا الأخيرة يا مولى. لقد بذلنا قصارى جهدنا، لكن القدر لم يبتسم لنا إلا نادراً. وهذه هي فرصتنا الأخيرة.

لم يستطع جلبي أن يتبين أي سخرية في عبارات ضابط الميرة، وبدا أن تصريحه كان جاداً تماماً.

وغمغم ضابط الميرة غمغمة حزينة إلى حدٍّ كبير:

- موسم الحرب يقترب من نهايته. وكما هي الحال في كتابك، لم تعد هناك صفحات كثيرة للكتابة.

- ثم ماذا؟ ما الذي سيحدث لو...

هنا لم يتجرأ جلبي على أن يستطرد قائلاً: إننا لم نستولِ على القلعة؟

فرمقه ضابط الميرة بنظرة هادئة لم يستطع موثِّق الحملة أن يتبين فيها مقدار النزاهة والبرود.

وعادت إلى ذهنه عبارة سعد الدين: ميتم للنجوم الساقطة كأنه في حلم.

أجاب ضابط الميرة بصوت غريب:

- عندئذٍ ستنطلق حملة أخرى في الربيع المقبل، وستتقدم أفواج لا تعد ولا تحصى وستقرع الطبول وترفع البيارق مرفرفة وسط النسيم

كما في السابق.

ثم بالنبرة الغريبة نفسها:

- ستتقدم الأفواج ليلاً ونهاراً، على الأرجل، وعلى صهوات الجياد، وعلى الجمال، وفي العربات إلى أن يصلوا المتاريس. في هذا المكان - وهنا أشار ضابط الميرة إلى الأرض - سيشاهدون الآثار التي خلَّفها معسكرنا، وقد عبث بها الشتاء ولوثها بالطين، لكنها ستكون مرئية بالرغم من ذلك. وسيخيمون في الأماكن نفسها، وستبدأ القصة نفسها من جديد.

شعَّت عينا ضابط الميرة بشعاع شرير وهو يحدج موثِّق الحملة:

- ألا تريد أن تعرف ما الذي سيحدث إذا لم تستسلم القلعة في السنة المقبلة أيضاً؟

تصبب موثِّق الحملة عرقاً بارداً، فهو ليس من الحمق كي يسأل مثل هذا السؤال المخزي، لكنه لم يجرؤ أيضاً على معارضة صديقه المشهور.

واصل ضابط الميرة:

- وإذا لم تسقط القلعة في الربيع المقبل، فستنطلق حملة أخرى في ربيع السنة التي تعقبها.

لم يعرف جلبي إلى أين ينظر. قد يمضي سعد الدين - وليذهب المسكين إلى جهنم! - وقتاً أسهل بمحجريه الصقيلين!

- في تلك المرة سيكون الجيش أكبر بكثير، وربما سيقوده ملك الملوك نفسه.

شعر موثِّق الحملة بالعرق يتصبب من حاجبيه.

واستطرد ضابط الميرة:

- ستكون الحملة ذات مظهر مهيب يليق بمقام السلطان الذي سيقودها، وستحتوي على وحدات أكثر عدداً مرتبطة بها، وسيكون

قادتها من ذوي الرتب الرفيعة جداً. وسيحل محل مجلس الحرب مجلس من الوزراء والباشوات والأمراء، وسيتوارى عن الأنظار قره مقبل وكورديسجي وسيحل محلهما حاكما الرُّوملِّي والأناضول. أما مقعد تافجا العجوز فسوف يشغله القائد العام لقوات الانكشارية، ويتبوأ شيخ الإسلام مقعد المفتي، على حين يحل فلكي الباب العالي محل الفلكي الذي جُلد هذا اليوم. أما أنت يا مولى جلبي فسيحل ابن سليمان المشهور نفسه محلك.

بعد توقف قصير استرسل ضابط الميرة في كلامه:

- القضية هي أن الرجال لن يتغيروا، وكذلك هذه الأسوار، وسيكون للموت اللون نفسه والرائحة نفسها.

تجمد الدم في عروق جلبي. ما الذي سيحدث لو أن ضابط الميرة أجاب عن سؤال آخر من أسئلته التي لم تكن لدى جلبي أي نية في طرحها؟ انتظر فزعاً للحظة، ولما لم يبدُ على مُضيفه ما يشير إلى أنه سيستأنف حديثه، استنتج أن المسؤولين الكبار أنفسهم، وبغض النظر عن مدى قوتهم، يدركون أن هناك حدوداً لا يمكن عبورها.

ورويداً رويداً، بدأت نظرة عيني ضابط الميرة القاسية والصريحة تهدأ وتبهت، وعادت أساريره إلى وضعها الطبيعي باستثناء أنها بدت مرهقة الآن قليلاً.

أحضر الحاجب كأسين من العصير.

قال ضابط الميرة:

- ستستمر هذه الحرب زمناً طويلاً، وستنفد كل طاقات ألبانيا، وليست هذه سوى البداية.

ثم رشف رشفة وتنهد بعمق.

وأضاف:

- سنرجع إلى هذه الأصقاع في كل ربيع عند ظهور البراعم

الخضراء. وستميد الأرض تحت أقدام جنودنا، وسنحرق الوديان ونحيل كل ما ينمو فيها إلى رماد، وسيتحطم اقتصاد البلاد المزدهر. عندئذٍ سيستعمل السكان في هذه المناطق كلمة تركي لإثارة رعب أطفالهم. مع هذا، وكما أخبرتك يا جلبي، فإننا إن لم نقهرهم في هذه الحملة الأولى، فإننا سنحتاج إلى عدد كبير من الجنود يفوق العدد الحالي بمرتين كي ننتصر في الحملة الثانية، وبثلاث مرات في الحملة الثالثة، وهكذا. وإذا هربوا من هذا الجحيم، فسيصعب تدميرهم في ما بعد، إذ سيعتادون على الحصار والجوع والظمأ والمذابح وحالات الإنذار. في غضون ذلك، سيكون أوائل المولودين أطفال حرب. أما أسوأ ما في الأمر، فهو تعودهم على الموت؛ سيعتادون على الموت على النحو الذي لا يسبب فيه الحيوان الأليف أي أذىً. وهكذا. فإننا لو هزمناهم في المعركة، فإننا لن نقضي عليهم. إننا نخدم الألبان خدمة عظيمة من حيث لا ندري بالهجوم عليهم وضربهم بلا هوادة، والهجوم عليهم بأعداد غفيرة من جنودنا من دون أن نتمكن من سحقهم!

هزَّ ضابط الميرة رأسه بمرارة:

- كنا نتخيل أننا نقتلهم، لكننا في حقيقة الأمر نجعلهم خالدين وبأيدينا لا أكثر.

ذُهل جلبي.

واسترسل ضابط الميرة:

- لقد أخبرتك مرَّة عن إسكندر بِك إن لم أكن مخطئاً. كان هذا الرجل حديث الناس حتى قيل إنه أعظم محارب في عصرنا، وإنه لُقّب في الوقت نفسه بقلب الأسد، والمرتد، وخائن الإسلام، ومن يدري ببقية الألقاب؟ أما أنا، فأعتقد أن كل هذه الألقاب تنطبق عليه، إلا أنني أود أن أصفه وصفاً مغايراً. فهو في نظري رجل سبق عصره، ونحن نوجه ضرباتنا إلى جانبه المرئي، إلاّ أن هناك جانباً آخر لا نستطيع فعل أي

شيء حياله، لا شيء تماماً، لأنه فاتنا، وهو الآن يجر ألبانيا إلى الهاوية معتقداً أنه يجعل من أُمته أمةً يتعذر الوصول إليها، بحسب رأيه، بجعلها تتجاوز زمانها نحو بعد جديد. قد يكون مُصيباً، ومما لا جدوى فيه أن نحاول فصل إسكندر بِك عن ألبانيا. وحتى لو أردنا ذلك لما أفلحنا.

بـذل موثِّـق الحملـة قصـارى جهـده وهو يصغـي كي يتريث ضابط الميـرة أو يتنهـد تنهـداً طويـلاً يسـمح له بتغييـر دفة الحديث، إلاَّ أن هذا ترك العنان لنفسه ليحلِّق على أجنحة كلماته - وهو أسلوب اعتاده جلبي الآن - ولم يجد موثِّق الحملة الفرصة ليقول كلمته.

واستطرد ضابط الميرة:

- إنّ الهدف الذي يسـعى إلى تحقيقه هو منح ألبانيا غطاءً يتعذر النفاذ منه، وإعطاؤها شكلاً يجعلها خارج تقلبات الوقت الراهن؛ شكلاً آخر إذا جاز لي التعبير يمكِّنها من أن تحيا وتنتعش من جديد، أو، إذا مـا أردنـا التعبيـر عـن هـذا بكلمـات أخرى، إنه يحاول أن يُعدَّ أمته لعالم جديد. إنني لا أعرف إن كنت تتابع انسياقي في الكلام. إنه يحاول صلب ألبانيـا كـي تتمكـن مـن الانبعاث حسـب معتقداتهم. ولا يهم إن نهضت ألبانيا في اليوم الثالث أو القرن الثالث أو الألفية الثالثة بعد موته، المهم هو رؤيته للمستقبل...

تنهد ضابط الميرة تنهيدة عميقة، وأسـبل جفنيه كأنه في حالة من التجلي، واستأنف كلامه:

- سيكون كتابك يا مولى كتاباً طويلاً وكئيباً.

ثم رمق شعر الموثِّق الرمادي، فأدخلت نظراته الطمأنينة في نفس موثِّق الحملة إذ بدت له مفعمة بالحنان، وأضاف:

- لقد استغرق هذا الحصار زمناً طويلاً، والخريف يوشك أن يحل علينا، والهجمات ستكون أعنف.

ثم تحدثا مدة قصيرة عن تغير الفصول، ولا يوجد في الوقت الحالي

أي علاقة تشير إلى الخريف الذي لا يسكن إلا مخيلتهما. لكن السهل سيستيقظ ذات صباح خلال الأسابيع القليلة المقبلة ليجد نفسه وقد انتشرت فوقه آلاف البرك، صغيرة وكبيرة، تغمز السماء مثل العديد من العيون القلقة.

سأل جلبي منتهزاً ما بدا له فرصة سانحة لتغيير دفة الحديث:

- ماذا يفعل ساروجا؟

حدجه ضابط الميرة بنظرة تشي بأنه استغرق وقتاً كي يتذكر من يكون ساروجا، وقال:

- لا يزال منزعجاً، ويمضي أيامه في معمل السباكة.

- كان يحب مساعده حباً جماً.

- نعم، لقد تأثر تأثراً شديداً لموت الرجل، وهو يمضي وقته منفرداً في هذه الأيام.

- وهل يعمل؟

- نعم، ويبغض الجنس البشري بغضاً لا يعرف الصفح، ما يجعله مشدوداً إلى عمله، ويخطط لمدفع عملاق ورهيب.

- حقاً؟

- نعم، لكنني أعتقد أن هذه الحملة ستنتهي قبل أن تسنح له الفرصة كي يجربه.

- لعله يجربه في الحملة المقبلة...

لم يكمل موثِّق الحملة عبارته، إذ وافقه ضابط الميرة على رأيه:

- حتماً. في المرة المقبلة، والتي تليها، وستغدو مواسير المدافع أكبر وأكبر.

وعاد الإشعاع الخبيث والمباشر إلى عينيه، وأردف:

- فكرة. يبدو أن المعماري جاور استُدعِي إلى العاصمة، وعُيِّن

في وظيفة أخرى. أتعرف ما هي؟

ثم مُصفِّراً:

- لقد عُيِّن معمارياً لحصار القسطنطينية!

- لماذا؟ أترانا نعد العدة لحصار آخر؟

- نعم، وهو كذلك، ويبدو أنه سيكون الحصار الأخير، وستسقط بيزنطة.

- أتمنى أن يستجيب الله لكلماتك!

- وصلتنا بالأمس صيحات الحرب الجديدة التي ستطلق خلال الهجوم. ما سبب دهشتك؟ آه، حقاً، إنك لم تعرف أن كلمات الشعارات الرئيسة التي تطلق خلال الهجوم تكتب على مستوىً عالٍ...

اعترف موثِّق الحملة:

- تلك هي المرة الأولى حقاً التي أسمع فيها مثل هذا الكلام.

- حسناً. الشعارات مركزية في المعارك الفاصلة، وإن إحدى الصيحات التي ستكون الأهم على وجه الإطلاق في هذا الهجوم هي صيحة غريبة إلى حدّ ما. إذ يتعين على المهاجمين أن يهجموا إلى الأمام وهم يصيحون: «روما! روما!».

- حقاً؟

- أعتقد أنك أدركت أهمية تلك الكلمة، ومعناها أن السلطنة إذ تُهيِّئ نفسها أخيراً لتدمير روما الشرقية، القسطنطينية، فإنها تنقح هنا التفاصيل وتجري التدريبات على هجومها على روما الغربية، أي، أوروبا... وعندما يحدث هذا الهجوم، فإن هذا الحقل سيتحول إلى حمام مشبع بالدماء.

عندمــا ظهــرت السحــب للمرة الأولى فــي السماء وكأنهــا استيقظت من نوم طويــل، هاجمنــا العدو هجوماً أشد ضراوة مــن ذي قبل. كنا ننتظر بنفاد صبر تلك السحــب، وعندمــا بدأت تواجه سلسلــة الجبال المحيطة بنا اندفعنــا إلى دار عبادتنا والفــرح يغمرنــا وقرعنا الأجراس. غير أن السحب رحلت مثلما جاءت، من دون أن تأتينا بالمطر أو البرَد أو أي شيء آخر. ولم تفد تلك السحب الساخرة المتقطعة إلاّ في إيقاظ التنين.

كنا نعرف أن أكثر الجيوش إثارة للرعب في العالم مخيّم تحت أسوارنا، لكن لم يتخيل أحدٌ منا أن قدرته على مهاجمتنا لا تستنفد.

كانت وطأة جيشهم ثقيلة علينا، تكاد تفتتنا وتحولنا إلى تراب مثل جبل جليدي أو هزيم رعد لا يأتي من فوقنا بل من تحتنا.

كانوا يستخدمون في كل هجوم آلات مريبة لم نشاهدها من قبل؛ أنماط جديدة مــن السلالم، وأبراج هجومية قائمة علــى عجلات، وكرات معدنية برؤوس ناتئة كالقنافــذ، وكل أنــواع المبتكــرات الجهنمية الأخرى. ولاحظنا فــي أثناء هجومهم الأخيــر أن بعضــ جنودهم كانوا يعتمرون قبعات جلدية واقية لرؤوسهم وظننا أنها ليست سوى استراتيجية جديدة من استراتيجياتهم تهدف، كما هدفت أخرى كثيرة، إلى بث الرعب في قلوبنا. إلا أننا سرعان ما اكتشفنا حقيقتها. فقد رمى الجنود من ذوي القبعات الجلدية بحيوانات طفيلية كريهة إلى قمة سورنا، ورُميت الجرذان في بئــر نقيــة محفورة حديثاً. وهناك بئران أُخريان، كانتا تحت حراسة مشددة، إذ ما أن تناهــى إلــى مسامع الحراس صرخة تقول: جرذان! جرذان حتى غطوا البئرين بأغطيــة معدنيــة ثقيلــة. وكان حدّادونا يعملون ليلاً ونهــاراً لصنع مصائد للجرذان وُضعــت فــي أماكن مختلفة قدر الإمكان. ضوضاؤهم لا حدود لها تحول بيننا وبين النوم.

* * *

الفصل الرابع عشر

كان الجو داخل الخيمة حاراً ورطباً وخانقاً. وبقليل من الجهد دوَّن موثِّق الحملة بضعة أسطر أخرى ثم وضع رأسه بين يديه. لم يشعر برغبة في الكتابة، فهدير المدفع شتت أفكاره مثل سرب من الغربان. للمرة العاشرة قرأ عبارته التي لم يفرغ منها: "في ظل عاصفة المعركة الهوجاء هاجمت التماسيح المتاريس مرات ومرات، لكن القدر...".

عاصفة المعركة الهوجاء... إنها صورة جميلة ومنصفة، لكنه غير متأكد من كلمة التماسيح. فالعاصفة تستدعي صورة البحر، لكن المعروف أن التماسيح تعيش في الأنهار، لهذا ينبغي له أن يكتب حصراً التماسيح في جدول المعركة. لكن صورة النهر ليست بالقوة نفسها التي تتمتع بها كلمة هوجاء التي تستحضر صورة البحر - هديره المتواصل وأمواجه المتدحرجة وعنفوانه المباغت - فتغدو ملائمة للمعركة كل الملاءمة. على كل حال، عندما بدأ بكتابة هذا المقطع وبحث عن صورة للجنود السابحين وسط الموج، تردد بين استعمال العديد من الأسماك والحيوانات البحرية، لكن لم يجد أياً منها يناسب المعركة المجيدة. فالسمكة تبدو رخوة، ملساء أكثر مما ينبغي. أما سمكة القرش فهي غادرة أكثر من اللازم ونهمة، في حين أن الموت ثقيل الوزن، والأخطبوط يثير الاشمئزاز. غير أن التماسيح التي تتمتع بالقوة والقدرة على القتل يمكن أن تُشبّه بالجنود الزاحفين صوب أسوار القلعة، وبخاصة أن جلود التماسيح ذات القشور والتي يصعب اختراقها تشبه دروع الجنود.

«في ظل عاصفة المعركة الهوجاء هاجمت التماسيح المتاريس مرات ومرات، لكن القدر...». يا لها من جملة يصعب إكمالها وهو مصاب بالصداع. وأراد أن يكتب: «... لم يبتسم لها»، لكن يبتسم غير

مناسبة في هذا السياق. إذ كيف يمكن أن تكون هناك ابتسامة وسط هذه المذبحة الرهيبة؟ وضع ريشته على المنضدة ونظر بإمعان إلى الصفحات التي دوَّنها بيد باتت واهنة اليوم لطعنه في السن. يوماً ما سيشكون من بقايا هذا الدم المسكوب تحت سماء حارقة، ومن آلاف الجروح الفظيعة، ومن هدير المدفع، ومن الغبار الأصفر الذي يثيره التقدم الاضطراري، ومن كرّ المهاجمين وفرِّهم الكابوسيين اللذين لا نهاية لهما تحت أسوار القلعة، ومن الرجال متسلقِّي السلالم تحت زخات السهام، والقار المنصهر، فيسقطون على الأرض من عَلٍ لينهضوا من جديد ويتسلقوا جنباً إلى جنب مع رفاقهم الذين لا يتعرفون إليهم بفعل التشويه الذي أحدثته الجروح فيهم. إن هذه الصفحات ستكون الأثر الوحيد على بشرة الجنود التي لوحتها الشمس، والتي لا تعد ولا تحصى، والتي رسمت رسومات مهولة ستبقى حيَّة بعد أن تضع الحرب أوزارها. بالإضافة إلى هذا كله، ستكون هذه الصفحات الشاهد الوحيد على آلاف الخيام التي عند اقتلاعها في غضون بضعة أسابيع ستترك آلاف الآثار والعلامات على مساحة شاسعة من الأرض الخالية فتبدو كما لو أن قطيعاً هائلاً من حيوانات متوحشة قد وطأها. في الربيع المقبل، سينمو العشب فوق السهل بملايين النصال غير مبالٍ بما جرى هناك، جاهلاً ما يمكن أن يحدث في العالم.

رتب جلبي صفحات كتابه في ملف ثم نهض وخرج. تلبدت السماء بالغيوم مرة أخرى وهبت ريح حارة تؤذي الحنجرة، ومن حين إلى حين تثير سحابة غبار كثيف وتلقيه على الخيام. لكن الجنود المستلقين على الأرض خارج خيامهم لم يكلفوا أنفسهم عناء حماية أنفسهم من الغبار والريح، بل جلسوا هادئين مكتئبين ينتظرون قرع الطبل الكبير وهو يدعوهم إلى التجمع في وحداتهم. لا بد من أنه الهجوم الخامس في بحر أسبوع. ولم يتذكر المحاربون المخضرمون أنفسهم مثل هذا الإيقاع

الجهنمي للهجوم، وباتوا يعرفون الآن أن تجمُّع سحب المطر الكثيفة يعني أنه لا بد لهم من أن يهجموا هجوماً أكثر ضراوة ومن دون انقطاع.

طاف موثِّق الحملة في أرجاء المعسكر بعض الوقت من دون أن يصادف أيّاً من معارفه. ولاحظ وجوه جنود وضباط لا يعرف أسماءهم يغالبون النعاس تحت حرارة رطبة خانقة، عيونهم تعبّر عن إعياء بلا حدود، وبدا الغبار الذي تطاير فوق التربة الجافة كأنه ألقى بقناع من اللامبالاة على كل شيء. ولم يعد أي شخص بعد الآن يتنبه إلى فسطاط الباشا الذي عادةً ما كان الجنود يخففون من وقع خطواتهم أمامه، كي يرنوا بكل إجلال وتقدير إلى السارية المعدنية الطويلة التي يعلوها الهلال البرونزي شعار السلطنة العثمانية القديم، تماماً مثلما لم يتنبه أحد إلى الخيمة المنصوبة بجانبه، تلك الخيمة المتفردة بين جميع الخيام بلونها الأرجواني، والتي تخيلها عشرات الآلاف من الرجال سحابةً أرجوانيةً تحوم فوق رغباتهم الحسية العاصفة.

كان هدير المدفع يمزق الهواء من حين إلى حين.

أخيراً، شاهد موثِّق الحملة شخصاً يعرفه – إنه طُز أوكشتان، وشعر جلبي بالسرور للمرة الأولى، غير أنه قد لاحظ أن وجهه كان ممتقعاً على نحو غريب، وهو يسير الهوينا برفقة حارس مسلح مما أثار دهشته.

سأل موثِّق الحملة:

– ماذا حدث لك يا طُز أوكشتان؟

– لا شيء. إنني في طريقي إلى المستشفى.

– إلى المستشفى؟ تحت حراسة مسلحة؟ انتظر دقيقة: ألم تكن موجوداً في الهجوم الأخير؟

أجاب الانكشاري بابتسامة مرَّة:

–ذلك هو بيت القصيد. عندما فتحتُ قفص الجرذان اللعينة بسكين تعرضت لخدش!

بانت على عيني موثِّق الحملة ومضة هلع، فأمسك الانكشاري بردنه، وقال له متوسلاً:

- أصغِ إليَّ يا مولى، فأنت على صلة بسيري سالم، فقل لي صراحةً ما المرض الذي تحمله الجرذان التي أطلقناها خلال الهجوم؟ لا بد من أنه يعرف!

هزَّ موثِّق الحملة كتفيه وقال:

- أقسم لك بالله إنني لا أعرف.

فسأل الانكشاري بقلق:

- أيمكن أن يكون الطاعون؟

- طاعون؟ هل جُننت؟ هيَّا، كيف يسعك أن تفكّر في مثل هذا الشيء؟

- أشعر بالهلع!

لم يعرف جلبي ماذا يقول بعد الآن، فمضى الانكشاري في طريقه مع حارسه من دون كلمة وداع. وشعر موثِّق الحملة بالحبور لأن لقاءهما كان قصيراً، وسار في الاتجاه المعاكس خشية أن يتعقب الانكشاري خطواته من جديد. وفكّر في أن وجود حارس شخصي نذير نحس. فقد تناهى إلى سمعه ما جرى لأوائل الجنود الذين أُصيبوا بالعدوى من البلاء، إذ قصدوا في بادئ الأمر سيري سالم في مختبره، وبعدها نُقلوا إلى مجموعة من السقائف الطويلة المسيجة وحُجر عليهم فيها حتى قضوا نحبهم.

قال موثِّق الحملة في نفسه: شخص آخر يسقط، مثل سعد الدين، ومثل الفلكي. وتذكر الليلة التي سبقت الهجوم عندما شرب الأربعة الشراب من القرعة نفسها. مضى وقت طويل على ذلك كما بدا له، وكأنه في عالم آخر.

قادته ساقاه إلى الساحة المكشوفة أمام خيمة الباشا. وكما هو مألوف، وقف حارسان بلا حراك برمحيهما على أهبة الاستعداد إلى

جانبي مدخل الخيمة، فيما غطت عصفة ريح وجهيهما ورمحيهما والشعار البرونزي بطبقة من الغبار. اتخذت السحابة الدوامة والحارقة ذات اللون الأصفر أشكالاً مخيفة تذكّر بأساطير الأولين. أحسَّ مولى جلبي أن عقله بدأ يقرن الأفكار على نحو خطير، فما كان منه إلاَّ أن استدار على عقبيه ليطردها. في تلك اللحظة شاهد عدداً من أعضاء مجلس الحرب يقصدون خيمة القائد العام، وتمكن من ملاحظة المفتي من بينهم وإلى جانبه أحد أمراء الأَلوِية. أما الحجّاب الذين يتعين عليهم الانتظار خارجاً فقد استلقوا على العشب على مسافة غير بعيدة.

فكّر موثِّق الحملة في نفسه: إنه اجتماع آخر. ثم توقف، فقد جاء ضابط الميرة بمفرده، وبدا قلقاً وهو يمر أمامه من دون أن يلقي له بالاً، بعد بضع لحظات مرَّ أمامه أيضاً قره مقبل وقد لاح عليه الوجوم. وتردد بين الناس أنه جُرح مرة أخرى في الهجوم الذي شُنَّ قبل يومين. وجاء أيضاً ساروجا وآمران من أمراء الأَلوِية وكورديسجي متكئاً على اثنين من حجّابه، وظهر من تحت كتلة شعره الكثيفة ما لم يظهر عليه من قبل: سقيماً، وشاحباً، ومذهولاً، كأنه نهض من نومه قبل قليل، وفي ضوء حالته الصحية الخطيرة، فإن حضوره إلى خيمة الباشا يعني أن الاجتماع على درجة بالغة من الأهمية. في غضون ذلك، كانت المدافع تهدر من دون انقطاع.

حضر علي بيه بمفرده، وجاء في أعقابه تاهانكا الأصم وقره مقبل دومان وكابدوك آغا، ومن ورائه تافجا العجوز، مقطباً حاجبيه كأنه يبغي إخفاء ألم فظيع. بدا عليهم كلهم، أو على معظمهم، الإرهاق الشديد باستثناء المعماري جاور الذي كان آخر القادمين، إذ دخل الخيمة بخطواته المعتادة رابط الجأش كعهده.

لم تصرف دوامة الغبار جلبي عن تفكيره. فالسلطنة قوية، هي سلطنة عظيمة حتى في المحن، وسيبقى هلال العثمانيين على مر القرون. فالرجال الأقوياء المقتدرون يصنعون القرارات، وسيمعنون

النظر في الأمور ولن يتخلوا عن القلعة بسهولة. الآن بدت كلماتهم الجادة تتشابك مثل أسلحة يضرب أحدها الآخر في المعركة، وكان الكاتب يدوّن هذا على الورق. وبغتة شعر بوخزة قوية تنم عن حسد، فهو يوشك أن يرحل رحيلاً لا رجعة عنه بعد أن شاهد قامة الطبيب المديدة والذي كان يقف ساكناً كالرمح على بعد خطوات قليلة من الفسطاط. لم يبدُ عليه ما يشير إلى أنه لاحظ موثِّق الحملة الذي لم يشعر بالارتياح لذلك. فهو لا يجرؤ على الانصراف من دون أن يلقي بالتحية على سيري سالم خشية أن يكون الأخير قد شاهده. من جهة ثانية، كان يتردد في أن يكون أول المتكلمين لأن وجه الطبيب النحيل والطويل وعينيه المؤرقتين المحتقنتين زادت من هول ذلك اليوم، فقرر أن يمكث حيث يقف إلى أن ينتبه إليه الطبيب الذي بدا كمن صُعق. تساءل موثِّق الحملة إن كان سالم قد استسلم للنوم واقفاً وأنه قد يهوي على الأرض في أي لحظة.

أخيراً تنبَّه الطبيب إلى وجود جلبي، فعاد الدم إلى وجهه الشاحب الكئيب. وقال مشيراً إلى خيمة الباشا:

– هم يتخذون قراراً هناك.

فأومأ موثِّق الحملة برأسه.

فواصل سيري سالم:

– لم يطلبوا مني الحضور.

تحول اللون الوردي الذي اكتسى به وجهه وعنقه إلى بقع أرجوانية اللون، وأضاف بصوت أعلى:

– إنهم غير راضين عني!

نظر جلبي حوله نظرة رعب، فيما استطرد سالم:

– يريدون أن يحدث كل شيء في ومضة، لكن لا يحدث أي شيء على هذا النحو. للأمانة، أنا لم أعلق آمالاً كبيرة على الأرانب

والضفادع. أما الجرذان...

هنا غلبت العاطفة صوته وهو يمضي قائلاً:

- فلا يمكنني أن أخفي أمرها عنك يا جلبي. لقد خذلتني الجرذان!

لم يتمالك موثِّق الحملة نفسه مما يرى أمامه. فهذا الرجل المخيف النحيف الذي قطَّع أوصال رجل آخر إرباً إرباً أمام أنظار الجميع يوشك أن يجهش بالبكاء.

- لعل الغلطة ليست غلطة الجرذان... فقد نصب العدو المصائد لها، ومن يعرف كم عانت قبل أن تنفق! ربما أصيبت بالمرض الذي أردت نقله من خلالها. لكن بالرغم من ذلك...

لملم أطراف شجاعته، وازداد صوته وضوحاً بسبب مرض اعتيادي...

- إنهم لا يطلقون لي الحرية يا جلبي. آه لو تمكنت من العمل على هواي، عندئذٍ سترى ما يمكنني عمله... دعني أخبرك بسرٍّ يا صديقي العزيز: لقد كتبت رسالة إلى ملك الملوك قلت له فيها: "دعني أُحقن بالمرض يا سيدي!" نعم، هذا ما كتبت له!

ارتعدت أوصال موثِّق الحملة، وتذكر طُز أوكشتان وقوله المأثور عن الأمرَّين، كل واحد منهما أشد هولاً من الآخر.

وواصل الطبيب:

- لكن السلطات تعرقل ذلك بشتى الاعتراضات، وترفض أن أُحقن بأي من المرضين الرئيسين؛ لا الطاعون ولا الكوليرا. أعتقد أنهم يحتفظون بهما لأنفسهم.

تدخل موثِّق الحملة بعد تنهيدة طويلة، وسأل الطبيب عن الأمراض الأخرى التي التمسها من السلطات العليا، فذكر له سالم لائحة، لكن معظم الأسماء الطبية لم تكن تعني له شيئاً. بعضها تتلف الأنسجة، اثنان

أو ثلاثة منها تصيب المرء بالعمى، ونوع آخر يدفع للجنون.

تأوه سيري سالم قائلاً:

- لكن ما الفائدة؟ كما أخبرتك، هذه أمراض عامة. أما المرضان الفعالان اللذان ذكرتهما لك، فهما بخلاف ذلك: إنهما يقتلان المرء، ولا يرفعان من درجة حرارته وحسب، بل يدفعانه للتقيّؤ أيضاً.

ثم تنهد مرة أخرى، وومضت عيناه كأن ضوءاً اشتعل في أعماقهما:

- جرذان مصابة بالطاعون... آه، لو حقنت به، فسوف... لماذا تقطب حاجبيك هكذا يا جلبي؟

- لا، لست مقطباً حاجبيّ يا سيري سالم. كيف يمكنك أن تقول مثل هذا الكلام؟

تصلَّب وجه الطبيب، وازداد احمرار وجهه قتامة وهتف بغتة بأعلى صوته:

- لا بأس. هذا ما تقوله أنت، لكنني متأكد من أنك لن تكتب شيئاً عن الجرذان في كتابك.

أطلقت المدافع قذائفها مرة أخرى على نحو سريع. فاستدار سيري سالم من دون سبب واضح مولياً ظهره لموثِّق الحملة ومضى في طريقه يخطو خطوات واسعة بساقيه الطويلتين. لكنه توقف بعد لحظة، والتفت وصاح من بعيد:

- أتدري ما سأفعله بكتبك يا جلبي؟ أتريدني حقاً أن أخبرك؟

ثم تفوّه ببضع كلمات تركت موثِّق الحملة مشدوهاً.

لم يسمع من قبل مرافقته هذه الحملة الكثير من مثل هذه العبارات المشيرة إلى مؤخرة الإنسان، وغالباً ما تظاهر بأنه لا يسمعها حتى عندما كان المجندون الجدد يطلقون عليه لقب العجيزة العجوز أو ألقاباً أخرى أشد وطأة. وكان يُطمئن نفسه بالقول إنهم لو عرفوا طبيعة عمله ورعايته

لهم من أجل مصلحتهم لشعروا بالندم على التفوه بمثل هذه الألفاظ. عزَّى نفسه أكثر لدى سماعه أن رجلاً بارزاً مثل ساروجا كان هو الآخر قد رغب في مسح مؤخرته بلحية رجل آخر. أما الآن، فإن رجلاً متعلماً وزميلاً له، بل أكثر الناس ثقافة قال له وجهاً لوجه بلا مزاح بأنه يرغب في استعمال كتبه للغرض نفسه الذي أراده ساروجا!

شعر جلبي بالألم وبعدم ثبات ساقيه وهو ينطلق في الاتجاه المعاكس.

في غضون ذلك، بدأ المجلس مناقشاته في خيمة الباشا، وشرع كل آمر من أمراء الألوِية بالإبلاغ عن حالة وحداتهم.

بغتة، وفي أثناء التوقف الذي تلا قراءة أحد التقارير، أطلق تافجا صرخة ألم قصيرة ووضع يديه على ساقيه.

كان يريد أن يتفوه بشيء ما، غير أن الصمت ازداد، وتحولت العيون كلها إلى الباشا. كانوا يعلمون أن تافجا يعاني الروماتيزم، وأن صرخته تعني أن ساقيه القصيرتين والملتويتين شعرتا بالمطر وهو يدنو. وكان للصرخة صدىً مخيف.

أما عينا الباشا فقد ازدادتا احتداماً.

وقال:

- تكلم.

نهض المفتي من مكانه ليلقي كلمته، فتحدث عن الموتى وعن أرواحهم التي تتذوق الآن رحيق الشهادة العطر.

لم يكن الباشا مُصغياً إلى ما يتفوهون به، بل تنبه إلى الأسلوب الذي كانت فيه عيون مرؤوسيه تشيح جانباً كلما التقت نظراته بنظراتهم. وأدرك أن هذا التحاشي في النظرات ليس سوى العلامة الأولى التي لا تخطئ على أنهم بدءاً من هذه اللحظة بدأوا يفصلون قدرهم عن قدره. ها هم جلوسٌ أمامه في نصف دائرة جنباً إلى جنب، مسبحاتهم

بين أصابعهم، يتقلدون شارات السلطة والأوسمة التي لا ينسون قط إبرازها. عادت أفكاره إلى ذلك اليوم من أيام الربيع الأخير عندما كان يخطط للحملة، وتأمل بعناية لائحة أسماء قادته العسكريين التي كان يزمع تقديمها لرئيس الوزراء للموافقة عليها. كانت أسماؤهم كلهم مدونة فيها، يعرف بعضهم معرفة شخصية وبعضهم الآخر بسمعتهم، وآخرين لم يسمع بهم قط، ولكن هناك من أثنى عليهم بحرارة. وكانوا كلهم موضع رضا السلطان أو موضع غضبه في أوقات مختلفة، أمضوا حياتهم في حملات عسكرية وحملات شاقة وحصارات طويلة الأمد، وأصيبوا بجروح، واستولوا على قلاع بالحيلة والمكر أو بالبسالة، وهزموا الأعداء، وأهلكوا الزرع والضرع في الولايات ولم يعد حتى الزرع ينمو فيها أبداً. راوده الأمل في أن يتكاتفوا جميعاً، وهو أمر سهل بين سُراة القوم. أولاً، كانوا يرتبطون بعلاقات عمل طيبة. أما الآن، وفي وقت أقرب مما كان يتوقع، حلّت أيام إشاحة النظرات. وبخلاف ما يمكن توقعه، أصبح يتأكّله الحسد، فالحملة توشك على نهايتها، وبغض النظر عن نتيجتها سيستمرون في حياتهم العسكرية، وسيحاربون يوماً ما، وسينصبون خيامهم أمام قلاع جديدة، وسيتسلقون درجات الهرم العسكري أو الإداري أو يهبطون عنها. أما هو فوضعه مختلف، فطريقه وصل إلى نهايته عند تخوم هذه الاستحكامات، وما ينتظره الآن إما قمة الشرف أو الهبوط إلى الحضيض. وكانوا يعرفون هذا الشيء، وهذا هو السبب الذي يدفع عيونهم للرنوّ صوب ركن الخيمة الخلفي بعيداً عن عينيه قدر المستطاع. وذلك هو السبب أيضاً الذي جعل الصمت يطبق عليهم عندما أنذرت ساقا تافجا العجوز (اللتان وجدهما الباشا مشوّهتين لقصرهما) بالمطر. وخطر بباله بغتة أن أيّاً منهم لم يعد يرهبه المطر بعد الآن، بل على العكس كانوا يتمنون لو تهطل الأمطار مدراراً. لقد أنهكت قواهم ويريدون الرجوع إلى حريمهم، ويظنون أن القائد العام

بات بمرور الأيام ضاراً بمصالحهم. هو أشبه بغريق يتشبث بأي شيء لا يزال يطفو على سطح الماء، وقد يجرهم معه إلى القبر. صاغ هذه الأفكار كلها في ذهنه رويداً رويداً. إنهم يحاولون التنصل، أن يسقطوه، لكنه لا يزال قائدهم العام ولن يتركهم يفلتون بتلك السهولة، وسيريهم ما يمكن أن يفعله القائد الحقيقي في الموقف البائس. يتوقعون منه وابلاً من الكلمات. كانوا مثل عبدة الأصنام يبجّلون ساقي تافجا العجوز الكسيحتين اللتين أنذرتا بهطول الأمطار. أصاخوا السمع لصوت طبول المطر. رائع وعظيم. سيحقق رغباتهم، وسيمنحهم المطر! سيغرقهم بالمطر! المطر الذي لا يتوقعونه.

قرع الطبل الكبير خارج الخيمة لجمع الجنود، وغطى هديره المكتوم بقية الأصوات، وشمل كل شيء مثل موج المد البحري.

بلغ الخطاب الأخير نهايته، ونظر الباشا إلى كل تلك الوجوه المتراصة، وأعلن أن الهجوم سيُشن عما قريب وأن قوات الجيش بأكملها ستنتشر بموجات متلاحقة من المهاجمين. وأضاف بأنه لا ينبغي لأي واحد منهم أن يتخيل أن المطر سيؤثر في الهجوم بأي حال من الأحوال، وأنه يعلم أن القطرة الأولى ستنهي كل شيء على نحو لا سبيل إلى معالجته، وأنه يجد صعوبة في كظم الكلمات التي لا يمكن حتى التفوه بها بسهولة أيضاً.

ثم رفع رأسه بطريقة تنم عن التهديد وأعلن:

- اليوم سأشترك في المعركة بنفسي.

لم ينبس أحد بكلمة، إذ كانوا يدركون معنى تلك العبارة وهو أنهم جميعاً وبلا استثناء، بدءاً بالمفتي وانتهاءً بالمعماري، لا بد لهم من أن يشتركوا في المعركة.

وأضاءت ابتسامة وجه تافجا العجوز.

واستطرد الباشا:

- أخبر الجنود أن أعضاء مجلس الحرب سينضمون إليهم في المعركة شخصياً.

ثم نهض.

انحنى الجميع وهم يغادرون الخيمة.

توقف الطبل الكبير الداعي لتجمع الجنود عن القرع، وأحضر أحد حجَّاب القائد العام جواده الأبيض وأمسك بلجامه.

في غضون ذلك تجمعت كل الوحدات، وامتدت على مرمى البصر في السهل الكبير حشود الجنود، ولم يكن هذا الجيش قد تجمع من قبل بمثل هذا العدد للهجوم. وبدت الريح الحارة التي جعلت البيارق التي لا عدَّ لها ولا حصر ترفرف وتخفق عازمة على تسجيل كل الصور التي تلهمها الشعارات في قصائد الشعراء وكتابات المؤلفين.

خرج الباشا من خيمته ورفع رأسه، فشاهد السحب الحبلى بالمطر تحوم منخفضة، غامضة في السماء. امتطى صهوة الجواد وإلى جانبه حجَّابه ومساعدوه وانطلق صوب النقطة المفضلة التي يراقب منها عادةً سير المعارك. وبعد بضع دقائق، وكعهده دائماً، رفع يده اليمنى، اليد التي يضع في إحدى أصابعه خاتمه، فأعطت بذلك إشارة البدء بالهجوم. على الفور امتلأ الجو بصوت آلاف الطبول، وتابع بعينيه الكليلتين اللامباليتين أول موجة من المتطوعين وهم يصعدون السور لتلحق بهم موجات متتالية من المشاة. سارت الأمور سيرها الطبيعي باستثناء أن الأفواج المتدفقة إلى الأمام كانت أكثر عدداً مما مضى. ووصلت الوحدات إلى أسفل المتاريس، ولكن ظهرت وسطها مئات السلالم كأنها أذرع خشبية طويلة وأُسندت (كما في الأحلام) إلى الأسوار. ثم اجتاح طوفان هائج من الخيالة قوات المشاة المنطلقة في إغارتها على الاستحكامات. كل شيء يسير كما كانت تسير الهجمات السابقة، ولما راودت الأفكار الباشا بأن هذا الهجوم ليس إلا تكراراً لهجمات سابقة استسلم لحالة من الإحباط،

فأصدر أمراً وألحقه بأمر آخر، ثم بأمر ثالث. وجاء الضابط الذي أبلغ الأمر الأول. وعاد الثاني، أما الضابط الثالث فقد بدا عليه الاكتئاب الشديد.

أما تحت السور، فقد كان في وسع الرجال أن يشعروا بالموت نفسه يتحرك بينهم. وكانت الرعشة التي اكتسحت أجساد الجنود دليلاً أكيداً على الضربة الأولى من ضربات منجل الحاصد. فازدادت صلابة الرجال، لكنَّ ردود فعل الجيش تباطأت وفترت بازدياد الضربات الموجهة إليه.

فهم الباشا كل هذا وهو يحترم بشكل فطري نظام الأشياء الطبيعي وتسلسلها المنطقي.

بدأ أفراد قوات الانكشارية بالتحرك بوجوههم المكفهرة المألوفة والنجوم والأهلة تخفق من فوق رؤوسهم. لكن، ألم يدفع بهم إلى الأمام مبكراً؟

هزَّ رأسه بالنفي كأنه يحاول أن يطرد شيئاً بدا أشبه بنوبة نعاس. كل شيء يحدث بإيقاع ملائم، لكن عدداً معيناً من الأمور برز في ذهنه مما سمح له بقياس سرعة الزمان.

اعترته الدهشة التامة إلى حدّ ما عندما شاهد حملة السيوف وهم يندفعون إلى الأمام وكأنما هذه ليست أوامره التي دفعتهم إلى الخط الأمامي من الهجوم.

فرك جبينه وكاد أن يصرخ بصوت عالٍ: لا ضرورة للاستعجال!

هذا الانطباع بالعجالة حفزه نوع من النوم المخيم في الهواء.

الاستشهاديون هم أفراد لا يزالون في ذهنه، وهم نقطة البداية لكل شيء. كانت الفرقة، أو على وجه الدقة، شعارها: نحن العرائس الذين تزوجوا الموت! هو الذي جعله يشعر في ذلك اليوم، مثلما لم يشعر من قبل، أن قدره يشبه قدرهم. وفكّر:

لقد وقّعنا عقداً مع الموت، ثم صاح بصوت عالٍ:

- الاستشهاديون!

لـم يعـد هنـاك أحـد مـن بعدهـم كي يرمي به في النزاع، سـوى قبة المعبد؛ أي هو نفسه.

أشـار بحركـة إلـى حاجبـه كـي يناولـه درعه وسـيفه، وأنزل مقدمة الخـوذة علـى وجهـه، وتقـدم صـوب المتاريس ووراءه مسـاعدوه وكتيبة من مقاتلي الصحراء المغاربة.

كانت كل خطوة من خطوات جواده تقصر المسافة بينه وبين السور. لم يخف، بل شعر بريقه ناشفاً ومُرّاً.

ازداد السور اقتراباً، لكن كلما ازداد اقتراباً بدا أكثر علواً، وبدا منظر الثغرات أكثر إثارة للهلع. بدأت المتاريس تطحن الأجسـاد كأنها أنياب وحش. أدرك أن قدره لا يزال يقاوم هذه الأسنان العنيدة ويتشبث بها.

اقتربـت القلعـة أكثـر فأكثـر. هـذه هي المرة الأولى التي يشـاهدها بهذه الدرجة من القرب، وخفقت أمام عينيه حجب سوداء كالقار، مغطية أجزاء واسـعة من السـور وكتلاً كبيرة من الحجارة، إلا أنها لم تسـتطع أن تحجـب مجمـل القلعـة. تذكـر أنـه رآهـا في الربيـع الماضي في أثناء التقدم الطويل نحوها في أحلامه وحسب، جاءت إليه بصورة امرأة، ربما لأن كتـب الحـرب القديمـة حاولـت فـي أغلب الأحيان أن تجعل عطش قادتهـم العظمـاء مـن أجـل تحقيـق النصر أكثر إقناعـاً بتصوير القلاع في ضـوء كلمـات وصـور خاصة بالنسـاء. لهذا، فـإن القلعة تأتي إليه وكأنها امرأة عصيَّة صعبة. طوَّقها وهو يتصبّب عرقاً من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، لكنها لا تزال ترفض الإذعان له. ملكته أسوارها وأبراجها وبواباتها وأطرافها وعيونها، إلا أنها انسلّت من بين أصابعه وجعلته أسيرها حتى النهاية، كي تطبق على أنفاسه.

أيقظتـه مـن سـباته صيحـات آلاف المقاتليـن الذين رحبوا بوصوله عند أسـفل المتاريس. انضم إلى القوة المهاجمة محاطاً بحراسـه وكتيبة

مـن المغاربـة. أصبـح السـور قريبـاً جداً الآن، وتأرجحـت قطع القماش السوداء الملطخة بالقار فوق رأسه. وتزاحم فوق السلالم الملتهبة مئات من الانكشارية والخيَّالة والمشاة والمتطوعين وحملة السيوف.

هتف الباشا:

- مرحى! إلى الأمام!

لم يسـتطع أحد سـماع صوته، لكنهم شـاهدوه يلوح بيده، وتدافع الجنود تحت مئات السلالم، كل واحد يريد أن يكون أول من يصل قمة السور. كانوا يدركون أنهم يرتقون الدرجات الأولى في حياتهم على هذه السلالم الملطخة بالدماء والتي التهمت النيران أكثر من نصفها. في القمة يكمن الطريق إلى الرقي، وإلى الثروة، وإلى المرأة.

راود الباشـا الإحسـاس بنشـوة المعركة، فالطبول والرايات ورائحة الزيـت المحتـرق والقـار المنصهـر والسـلالم الملتهبـة وسـحب الغبـار والهتافـات وكل هـذه الفوضـى الدمويـة وسـط الدخـان، اسـتولت عليـه ولعبت برأسه مثل شراب مسكر.

انطلق على صهوة جواده بمحاذاة السـور برفقة حراسـه ومعاونيه. ويبـدو أن المدافعيـن تمكنـوا مـن معرفتـه لأنهم بدأوا يسـددون السـهام وكرات القماش الملتهبة نحوه لكنها تساقطت حوله بصفير حاد. عرَّض الحراس أنفسـهم للخطر إذ شـكلوا سـاتراً حوله بدروعهم. وتضرجت بالدمـاء ياقـة أحـد معاونيـه القريبيـن منه، لكن القائـد العام واصل عدوه معتلياً صهوة جواده وسـط هتافات: يعيش الباشـا! وتضرعات إلى النبي وإلى ملك الملوك! ومن حين إلى حين تناهت إلى سمعه أصوات جنوده وهـم يصيحـون بصـوت عـالٍ صيحـة الحرب: «روما يـا روما!»، وبلمح البصر، عاد إلى ذهنه منصب جاور الجديد، أو بالأحرى، الشـائعة التي أفادت بأنه إذا انتصر في هذه الموقعة، فإنه سـتوكل إليه (طُرسُـن باشـا) مهمة فتح القسطنطينية.

فصاح مرة أخرى.

- إلى الأمام! إلى النصر!

ازداد تدافع الجنود عند أسفل السلالم في محاولة للوصول إلى أعلى السور. وعندما يرمق المرء الرجال الصاعدين يرى في بعض الأحيان الدروع والسيوف وأحياناً أطراف البشر وهي تتطاير في الهواء لتسقط على الأرض، وكلها على ما يبدو رماها المهاجمون كي يخففوا من حملهم.

بغتة، بدأ السور يتمايل وانهارت الأبراج فوق رأس طُرسُن باشا انهياراً مرعباً وخفقت أكفان الجنائز الملطخة بالقار وحوافّها الملطخة بالدماء تحت عصف ريح شديدة بدت وكأنها ستطبق عليه. وهوى. واسودَّت السماء وشكَّل الحرَّاس طبقة من الدروع فوقه.

وصاح أحدهم:

- مات الباشا.

فانحنى فوقه أحد مساعديه الذي كانت ياقته ملطخة بالدماء.

فقال الباشا:

- ساعدني كي أنهض! فأنا لم أُصب!

فصاح الضابط الآخر:

- إن جواده هو الذي مات!

وقف طُرسُن باشا على قدميه، وشعر كأنه في حفرة.

صاح الصوت مرة أخرى:

- مات الباشا.

لكن الباشا امتطى صهوة جوادٍ آخر أحضره له أحد الرجال على الفور ولكزه كي يعدو، وتبعه حراسه.

وصاح أحد معاونيه به:

- ابتعد عن السور يا مولاي الباشا. لقد تنبه النصارى إلى وجودك.

أمطرت السماء وابلاً أشد كثافة من السهام، لكن الباشا لم يبتعد عن السور، بل اندفع على امتداده وكان الجنود يرددون أن الحرب اندلعت. اتخذت الحرب هذه المرة شكل كتلة بشرية تنهض من الأسفل لتتجه نحو كتلة أخرى من البشر في الأعلى. حاولت الكتلة الموجودة في الأعلى بذل قصارى جهدها للحيلولة دون تسلق الكتلة الموجودة في الأسفل وراء ستار من الدخان الذي ينفثه القار. كانت الضربات موجعة، وحارقة، بُتِرت فيها مئات الأذرع والسيقان، لكن الكتلة الصاعدة الموجودة في الأسفل لم تتردد أو تتقهقر، بل واصلت ارتقاء السلالم، درجة فدرجة، منزلقة على الدماء ومتشبثة بالمسامير المثبتة بالحجارة. وإذا ما تعرضت أطرافها للبتر فإن مئات الأذرع والسيقان الجديدة تنمو على الفور، لا تبغي إلا الصعود إلى الأعلى، فالأعلى...

استمر الكابوس حتى الشفق. ثم دق نفير التراجع. وسرعان ما تراجعت إلى الخلف وحدات لا تعد واتجهت صوب المعسكر المهجور، وانتظر الباشا تقديرات الخسائر لذلك النهار. لكن بالرغم من أن المعركة لم تحقق النصر، إلا أنها لا يمكن أن تعد خاسرة، إذ لم يسبق لمثل هذا العدد الهائل من الرجال أن وصل إلى أعلى السور وعاد سالماً، إذ كان مألوفاً أن تعود قوة صغيرة من الرجال ممن يصلون إلى أعلى السور وهي على قيد الحياة، لكن الذين بقوا هناك لم يضحوا بحياتهم لقاء ثمن بخس. ولا بد من أن هجوم اليوم كلَّف المدافعين عدداً كبيراً من القتلى. لقد بدأ الظمأ يفعل فعله، وما هي إلا بضع هجمات أخرى تماثلها في العنف ويعجز فيها المدافعون - الذين لقي الكثيرون منهم مصرعهم - الذين يعذبهم العطش عن صد الهجوم الذي سيمتد على طول سورهم. كان الباشا بحاجة إلى بضعة أيام أخرى من الجفاف،

بضعة أيام لا أكثر. هكذا قال في نفسه، لكنه في أعماق نفسه كان يعتقد أن بضعة أيام بلا مطر لن تكون كافية. ولما بلغ به الإعياء مبلغاً كبيراً بسبب هذا التوتر الطويل، أخذت تنتابه أحلام يقظة، وتصور لو أن شهر أيلول لا يعقبه شهر تشرين الأول وتشرين الثاني بل شهر تموز وآب. تخيَّل ريحاً عاتية تهب على حين غرة فتنقلب الفصول كأوراق الخريف. فكّر في أوقات أخرى أن وقتاً طويلاً قد انصرم منذ بداية الحملة، حتى أشياء كثيرة باتت في طي النسيان، وفترت العواطف، ومُحيَت من الذاكرة تلك التوقعات بالنصر ونظام جدول الوقت. راودته تلك المشاعر في الليل خاصة عندما خرج من خيمته ورنا إلى المعسكر الكبير بما فيه من خيام ونجوم وأهلّة نحاسية وبرونزية وذهبية محاكياً بذلك سماء الليل محاكاة حزينة. وتخيل أن قطعة كاملة من السماء سقطت على الأرض وانهمكت في شؤون البشر. حملق طويلاً في الأفق البعيد، إلى ما وراء الدروب والسحب، وفكّر في البلدات الموجودة على أرض الواقع بما في ذلك مكاتب مكدسة فيها أوراق بغير نظام توضح شوارد الأمور ومزايا المسؤولين ونقاط ضعفهم، وهو واحد منهم. في مثل هذه الأوقات، عندما يقف في مواجهة الليل بمفرده، تصبح الحقائق مجردة من عواقبها، فتضعف العلاقة بين العلة والمعلول، ويغدو كل شيء مقبولاً. غير أن الفجر انبلج بفجاجته القاسية واستعاد كل شيء منطقه: الأشياء والحقائق والنظام اليومي.

أحضر له معاونوه التقارير الأولية: قُتل ثلاثمئة وعشرة ضابطاً من جميع الرتب العسكرية. أما عدد الجنود الذين لا يحملون رتبة معينة والذين فُقدوا في المعركة فلم يعرف بعد. وسأل عن أعضاء مجلس الحرب: كلهم في مأمن. وهنا انتابه الوجوم مرة أخرى عند تفكيره بأنهم اهتموا اهتماماً شديداً جداً بسلامتهم الشخصية.

لكنه قرر أن يختبرهم في الأيام المقبلة في كيفية حفظ الذات.

ولم يكن بحاجة إلاّ إلى بضعة أيام بلا مطر لا أكثر، ولكنه ظل يخشى شيئاً واحداً: طبول المطر التي لم يسمع دويها منذ بضعة أشهر، وإذا ما قُرعت الآن مرة أخرى فذلك يعني نهاية كل شيء.

أرسل سيري سالم تقريراً مقتضباً إليه أشار فيه إلى أنه تفحص أحشاء أربعة ألبانيين سقطوا من فوق الاستحكامات وأنه يستطيع أن يجزم أنهم كانوا يعانون نقصاً في المياه بأكثر مما كان يعانيه الرجل الذي قُبض عليه في الهجوم السابق، لكن لم تكن هناك أي آثار تدل على المرض. من الواضح أنهم لا يشربون الماء الملوث، وبهذا فإن ظمأهم تضاعف مرتين أو ثلاث مرات. تضرع إلى الله أن تستمر الحال على ما هي عليه مدة أطول قليلاً. لا أرقام عن عدد القتلى بين الجنود حتى الآن. فأمر طُرسُن باشا بزيادة عدد الحراس ووضع بعض الأفواج في حالة إنذار. بدأ الليل يرخي سدوله، ويُتوقع أن يشن إسكندر بِك غارة، فهذا هو وقته المعتاد.

جلس الباشا كي يرتاح ولاحظ أن مرفقه ملطخ ببعض القاذورات، ولم يكن يتنبه من قبل إلى التربة في هذه المنطقة. نظر مليّاً فيها كأنه في غيبوبة، حتى دخل مساعد آمر المعسكر ووجده يحملق في ردنه عند المرفق.

قال وقد خشي أن يُلام على تقصيره في واجبه:

- معذرة يا مولاي. لقد لاحظتها تواً بنفسي، لا بد من أنك لوَّثت رداءك عند سقوطك.

غير أن عقل الباشا كان سارحاً في مكان آخر، يفكّر في أن التربة واحدة في أي بلد على وجه الأرض، ولا تختلف تربة عن أخرى إلا بالمحصول الذي ينمو فيها. تهدلت عيناه، فخفّف المساعد القائم على خدمته صوته حتى بات همساً، لكن القائد العام أومأ برأسه مغالباً النعاس. وهنا وضع المساعد بطانية خفيفة فوق سيده، وسار على أطراف أصابع

قدميه، وخرج من الخيمة.

أخيراً، خَلد الباشا إلى نوم عميق بعد الليالي المضطربة التي مرَّ بها. وجاء إليه حاجبه يحمل عشاءه، وحضر من بعده معاونوه لإعطائه الأرقام عن خسائر اليوم، لكنهم وجدوه قد غرق في نوم عميق، فلم يوقظوه. بعد أن جذب أحدهم البطانية فوق كتفي سيده، أغلقوا باب الخيمة بعناية، ومضوا في طريقهم بهدوء.

أمضى ساعات وهو نائم نوماً هادئاً بلا أحلام، لكنه رأى حلماً بعد ذلك، رأى طبول المطر وقد تراصفت للاستعراض، ثم بدأت الطبول تقرع وحدها، فأمرها بالكف، لكنها لم تطع أوامره، واستمرت تقرع قرعاً مكتوماً. ثم أمر بمعاقبتها. فما كان من حرَّاسه إلاَّ أن انقضوا عليها وحطموها بالكامل، لكنها واصلت القرع حتى استيقظ الباشا. كان الظلام حالكاً داخل الخيمة، فحرَّك ذراعه المتيبسة، وأدرك أنه خلد إلى النوم وهو في ثياب المعركة. وشعر أنه لم يستيقظ تماماً بعد، أُذناه لا تزالان تطنان بقرع الطبول التي رآها في حلمه. رمى البطانية جانباً، ونهض، واعتدل في وقفته. ما هذا؟ الصوت الهادر لم يتوقف بعد. إذاً، ليس هذا انعكاساً لحلمه. فثمة شخص ما، على مسافة بعيدة داخل المعسكر يقرع طبلاً. وسمع صوتاً رقيقاً على جوانب خيمته المائلة. وبغتة اتضح له كل شيء. مطر!

وقف وظل ساكناً للحظة عند الأرائك، ثم وطأ على جلود الحيوانات المفروشة على الأرض، واتجه صوب المدخل، وجذب الستارة وخرج. كانت خيوط الفجر الأولى قد ألقت سديماً أبيض على الأفق. وما إن شاهد الحارسان الرابضان على أحد جانبي الخيمة ليتقيا المطر الباشا حتى استعدا وأدّيا التحية بالسلاح، لكنه لم يلقِ لهما بالاً.

انبعثت من الأرض رائحة قوية نفاذة بعد أن بللها ماء المطر إثر جفاف طويل، وكانت السماء ملبدة بغيوم ثقيلة متنقلة يميل لونها إلى

الرمادي الضارب إلى السواد، ترسل المطر فينهمر انهماراً. طقس خريفي نموذجي.

الفجر آخذ بالانبلاج.

رنا إلى السماء الحالكة وإلى المعسكر الهائل بآلاف الخيام مثلثة الشكل التي تبدو مثل هضاب جنائزية أقيمت فوق ما يزيد على ثلاثين ألف جندي نائم. أولى ظهره لذلك كله، ودخل الخيمة، وأيقظ أحد حُجّابه، وكان هذا الأخير يرتعش.

قال له الباشا:

- أحضر حسناً!

بعد لحظة واحدة مَثُلَ حسنٌ بين يديه وكان يرتعش بدوره.

- أحضر لي أزهار.

انحنى المخصيُّ وانصرف، وعاد بعد لحظة ممسكاً بيد زوجة الباشا الشابة. كانت منتفخة العينين نتأ تحتهما كيسان أسودان فظيعان.

- أصغي إليَّ!

لم تكن قد استيقظت تماماً، فاضطر إلى أن يهزها بقوة من كتفيها. وقال مرة أخرى:

- أصغي!

ثم جذبها بقوة من إحدى ضفيرتيها كي يقرِّب وجهها الممتلئ رعباً من وجهه.

قال وهو يضع أصبعه على بطنها من تحت ثوبها الناعم:

- إذا كان المولود ذكراً، إذا كان ذكراً، فسمّيه باسمي.

حملقت أزهار فيه وهي في حالة من الرعب. فقال:

- أتفهمين؟

- نعم يا مولاي.

- انصرفي الآن.

جاء المخصيُّ، ورافق أزهار إلى الخارج.

وقف الباشا ساكناً لحظة تحت النور الخافت، ثم طلب من حاجبه أن يأتي له بكأس ماء، فامتثل لطلبه.

ثمّ قال:

- سأعود إلى فراشي.

أخذ قارورة صغيرة فيها جرعة منوِّمة من صندوق بالقرب من وسادة رأسه، وأفرغ محتوياتها في كأس ذي قاعدة.

وفكّر في المسحوق الذي يجعل الماء عند ذوبانه غائماً مثل جزء من السماء. المسحوق يحتوي على المنوِّم وسيستغرق يوماً أو يومين. وأفرغ قارورة أخرى وفكّر في نفسه:

- ألف ليلة! ألف سنة!

ثم قرَّب الكأس من شفتيه، وجرع محتوياته جرعة واحدة.

كان لا يزال معتدلاً في وقفته. وعلى مساحة بعيدة خارج الخيمة واصلت طبول المطر قرعها القاتل. ولما بدأ يشعر بالدوار، اتكأ على وسادته، وأغمض عينيه، وتجمعت الأفكار مضطربة في ذهنه. كان يود أن تراوده فكرة سامية، لكن لم يستطع. وقال في نفسه: إذاً، هذا هو المطلوب يا أُوغورلو طُرسُن توبخ أصلان سرت أُولغن باشا!

قبل أن يطلب من الله الرحمة، فكّر في حياته، وتساءل إن كان ضرورياً حقاً اختراع مثل هذا الاسم الطويل لحياة قصيرة جداً. ثم فكّر في الرجل الذي بذل قصارى جهده من أجل مجده - لكن عبثاً، واأسفاه، عبثاً! - ثم فكّر وكأنه في حالة هذيان بسبب الحمى، في هذا العالم الصاخب الجميل خلفه، في حين حلقت روحه في المطر.

* * *

بدأت تمطر وقت الفجر في اليوم الأول من شهر سانت **شانمايتر ، و كنت** أوشك أن أُعفي الحراس من واجبهم عندما بدأت أولى قطرات **المطر تهطل ثقيلة** ثقل الدموع.

الصبح ينبلج، وأردت أن أصيح بأعلى صوتي: اقرعوا **جميع الأجراس ،** أيقظوا **كل** رجالنا، لكنني فكّرت فقط في القيام بهذه الأشياء لا أكثر. **كل ما فعلته** هو أنني أسندت رأسي إلى السور الحجري ومكثت على تلك الحالة برهة من **الزمن.** ونضحت الكتل الحجرية بعد تبللها بكل الحرارة التي خزنتها خلال الصيف، **وبدت** وكأنها تحرر، إن جاز التعبير، **كل** آلام ذلك الفصل الطويل. بدت وكأنها **تُبعث** إلى الحياة، واعترتني الدهشة عندما فكّرت في أنها قد تبدأ بالتنفس والتأوه **والتنهد** في أي لحظة.

في مكان ما في قلب المعسكر التركي، يتناهى إلى الأسماع صوت قرع طبول المطر. وكان في وسعنا ونحن في مكاننا العالي مشاهدة الجنود وهم يغطون المعدات بالمشمّع. آلاف الرماح والشارات تنتصب مثل أشواك على ظهر قنفذ في ذلك المعسكر المظلم مترامي الأطراف الذي يشوه الأرض على مد البصر. ويمكن مشاهدة نشاط غير اعتيادي حول خيمة القائد العام. حملة المشاعل يدخلون ويخرجون بلا توقف. المؤكد أنها تدل على حدث مهم: اجتماع طارئ، طرد أو موت.

سمعت نفسي وأنا أتضرع: آه يا الله! لا تخفّف حدة المطر بسرعة. إنه **ينهي** هذا الموسم من الحرب، فلا تهجرنا الآن يا مطر!

* * *

الفصل الأخير

سارت العربة المغلقة التي تنقل الحريم على امتداد الطريق وحدها. في بدء الرحلة، كانت قد انطلقت في قافلة مع عربة أخرى محملة بأسلحة القائد العام الراحل وحقائبه، ولكن بعد يومين من السفر، اضطُرت عربة الحريم إلى أن تخفف من سرعتها لأن إحدى النساء وهي أزهار شعرت بألم، ولهذا تلكأت في مسيرها.

السماء تمطر رذاذاً. والنساء يحملقن كالحمامات في الطريق الموحل الذي بدأت تتجمع فوقه أول برك الماء.

قالت آيزيل مشيرة إلى الجهة اليمنى:

- انظرن! في وسعكن رؤية القرى الصغيرة التي شاهدناها في طريقنا إلى هذا المكان فوق سفح ذلك الجبل. هل تشاهدن دار العبادة وبرجها والجرس؟

- يا له من مكان منسي!

- والقلعة؟ لا يمكن أن تكون بعيدة من هنا. أتتذكرن عندما شاهدناها. كان الوقت حينها وقت الشفق فبدت الراية فوق قمتها سوداء.

- لا تزال القلعة بعيدة.

قالت بلوندي:

- أتظنين ذلك؟ أتذكر أنها كانت على مقربة من هذه القرى.

- إنك مشوشة تماماً. لنسأل ليلى، فهي تسافر في هذه المنطقة للمرة الثانية.

- لا توقظيها!

واصلت عجلات العربة صريرها الرتيب. وكان في وسع الحريم أن يشاهدن من خلال الستارة الحريرية التي تتحرك برفق ظل كل من حسنٍ والسائق.

واصلت آيزيل تحديقها إلى الطريق الخالي والمناظر الخريفية الكئيبة. أما ليلى فكانت نائمة، وفي كل مرة تصادف العربة عثرة في الطريق ينتفض رأسها إلى الجانب فيبدو وكأنه سينفصل عن كتفيها.

هتفت آيزيل:

- انظرن! جنود الهندسة العسكرية! إنهم يشيدون جسراً جديداً!

صاحت ليلى بعد أن استيقظت:

- إنهم يعدون العدة للانسحاب!

راقبن لبضع دقائق الرجال وهم يعملون تحت المطر.

قالت آيزيل:

- لكنه لن يذهب إلى الوطن.

- لا بد من أنه دُفن اليوم!

- نعم. لا مناص من ذلك. وكل هذه الأمطار تهطل من أجله!

رفعت بلوندي رأسها قليلاً، ثم تركته يعود إلى الخلف. هذه هي المرة الأولى التي يتكلمن فيها عن سيدهن بعد الحادث، إذ لم يقدرن بعد على عدم ذكره.

وسألت آيزيل:

- لقد كنتِ أنتِ التي أمضيت الليلة الأخيرة وإياه. أليس كذلك؟ قولي لنا: هل كان يتكلم وهو نائم؟

أجابت بلوندي من دون أن تتحرك:

- نعم.

- ماذا كان يقول؟

- لم أفهمه، فأنا لا أجيد التكلم بالتركية إجادة تامة.

- ألـم تفهمـي أي شـيء، لعلـه لـمَّـح إلـى سـبب فعلته. هل تكلم عن إسكندر بِك؟

- لا أتذكر حقاً. لعله أتى على ذكر ذلك الاسم، لكنه كان يتحدث دائماً عن السلطان. كان يوضح على نحو مُربك ويقول إنه بريء، وتكلم أيضاً عن إسكندر بِك، لكنه استخدم اسماً آخر هو...

- هو الاسم الرهيب جورج كاستريوني.

- نعم، أظن ذلك هو الاسم.

غمغمت ليلى:

- كان معتاداً على الكلام وهو نائم.

كانـت بلونـدي توشـك أن تتفـوه بشـيء مـا، لكنهـا غيَّـرت رأيهـا وخفضت ناظريها، ونظرت إلى الأرض.

صاحت آيزيل مشيرة إلى خارج نافذة العربة الصغيرة:

- انظرن أيتها الفتيات إلى الرجال المشنوقين!

انحنين إلى الأمام كي يلقين نظرةً.

- هل هم الرجال الذين رأيناهم في طريق الذهاب؟

- نعم، هم أنفسهم.

- لم يبقَ منهم سوى هياكل عظمية.

جفلـت مجموعـة مـن الغربـان لصـوت العربة، وطـارت إلى نهاية الطريق.

- عندما جئنا من الطريق المعاكس كانت أجسامهم لا تزال كاملة. إذاً، لا بد من أنهم شنقوا حديثاً.

- كم سيمضي على بقائهم هكذا في العراء؟

- من يدري؟

بعد برهة سنشاهد رؤوساً فوق أوتاد.

- لا، لن نشاهد. لا بد من أننا تجاوزناها خلال سيرنا في الليل. أما العلامة القادمة فهي الدير برموز النصارى الدينية الثلاثة.

- هذا صحيح. لقد تشابكت عليّ الأمور.

- ربما لأننا في طريق العودة.

توقفت العربة بهزة قوية، وصاحت أصوات غليظة:

- قف! أفسح الطريق!

سألت الفتيات خائفات مرتعدات:

- ماذا يجري؟

استغرقن برهة من الزمن كي يدركن أن رتلاً عسكرياً يوشك أن يجتازهن. وكانت الكشافة في طليعة الرتل لإفساح الطريق. وكانت خوذهم وأمتعتهم مبللة بالمطر، وخفّفوا من وقع خطواتهم. أما عيونهم فكليلة تجعلهم يبدون وكأنهم فقدوا بصرهم.

همست ليلى:

- لديهم معدات حديثة، ألا ترين سيوفهم القصيرة؟ وخوذهم الخضراء؟ هذه هي المرة الأولى التي أشاهد فيها مثل هذه الأشياء.

التزمن الهدوء فيما استمر مرور رتل طويل من الجنود بدا بلا نهاية وهم يقودون بغالهم المحملة بالأمتعة والمعدات، وممسكين بها من شكيمة اللجام. ثم مرَّت عربات بست عجلات محدثةً صوتاً بشعاً.

أوضحت ليلى:

- هذه هي حوانيت الميدان، وهي عادة آخر العربات في أي رتل!

ثم متنهدةً:

- أعتقد أن كل شيء قد انتهى الآن.

عادت عربة الحريم إلى الطريق العام ببطء.

فسألت أزهار:

- ماذا نحن الآن؟ أرملات شابات؟ لاحظن أنني لا أعارض هذا شخصياً ولكن...

- علينا ألاّ نتذمر، فقد كنت أخشى ما هو أسوأ بعد وفاته.

- ماذا تعنين؟

لاحظت ليلى:

- ربما يسهل عليهم التخلص منَّا جميعاً، فقد تجمد الدم في عروقي في ذلك الصباح الذي انعقد فيه مجلس الحرب، وانتابني الهلع وأنا أفكّر في احتمال أن يسلموا القيادة إلى تافجا العجوز. لقد سمع حسنٌ حراس الخيمة في أثناء نوبتهم في ذلك الوقت وهم يقولون إن تافجا سيعمل على قطع رؤوسنا إذا ما عُيِّن قائداً عاماً، فقد لامنا هو والمفتي بسبب كل ما أصاب الجيش من طالع نحس.

هتفت آيزيل:

- أغبياء!

- لم ينبعث الدفء في أوصالي إلاَّ بعد انتهاء الاجتماع، وعلمت أن القيادة العليا قد سُلِّمت إلى ثلاثة قادة بارزين.

نفدت الكلمات، مثلما نفدت مرات عديدة في السابق، فوضعت آيزيل ذقنها فوق حافة باب العربة.

سألت آيزيل ليلى وهي تميل فوق أزهار:

- ألا زلت تشعرين بالألم؟

فأومأت برأسها، شفتاها شاحبتان، وعيناها غائمتان.

- أظنني بدأت أنزف من جديد.

لم يتفوهن بكلمة خلال دقائق، لكن أزهار بدت مرتاحة بعض

الشيء، في نهاية المطاف. ابتعدت آيزيل عن النافذة فيما مسَّدت بلوندي شعرها بأصابعها.

قالت ليلى:

- هذا مرعىً شتوي. أهناك ما يماثله في بلادك؟

ردَّت آيزيل:

- لا أدري، فأنا لم أزُر مثل هذا البلد من قبل.

شاهدن من حين إلى حين آخر أعشاش اللقالق، ورعاة يغطون رؤوسهم بأغطية سوداء، ومنحدرات صخرية متماثلة لا نهاية لها.

سألت أزهار مشيرة إلى الريف:

- أهذه هي الدولة؟ أعني: هل الدولة هي الأرض، أم هي مختلفة؟

انفجرت الفتيات ضاحكات، ولم تستطع أي واحدة منهن الإجابة عن السؤال. إذ قالت ليلى إن الدولة هي السلطنة. أما آيزيل فأوضحت أن الفرق بين الأرض والدولة هو أن الدولة لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة.

صاحت بلوندي بغتة وقد جحظت عيناها:

- يا الله! انظرن إلى العربة القادمة خلفنا...

شاهدن من خلال كُوَّة العربة الخلفية ذات الشبك السلكي عربة مغلقة عرفن لونها وشاراتها معرفة جيدة.

سألت ليلى:

- أيمكن أن يكون هذا تابوته؟

- هذا كل ما نحتاج إليه! أن يسير في إثرنا تابوت!

كانت العربة تلحق بهن محدثةً جلبة فظيعة. وبدا واضحاً أنها تروم اجتياز عربتهن، فما كان منهن إلاَّ أن اتكأن إلى الخلف وانتظرن ما

سيحدث. انتاب القلق السائق وحسن فالتفتا لإلقاء نظرة.

مرت بضع ثوان والعربتان تسيران جنباً إلى جنب، فوضعت النساء أيديهن على عيونهن باستثناء ليلى التي ظلت ترنو من النافذة. وتبين أن ما رأته أثار خوفها أكثر مما لو رأت تابوت الباشا وراءها.

وهتفت مولولة:

- يا الله! إنه المعماري جاور!

كانت قرقعة العجلات عالية جداً فلم تسمع أي واحدة منهن ما قالته. وتعين عليها أن تنتظر حتى تتقدم العربة أمامهن كي تصف ما شاهدته. كان جاور منحنياً إلى الأمام يتأمل في خرائطه بعينين متقدتين ويرسم!

قالت آيزيل:

- ثمة شائعة تفيد أنه يخطط للاستيلاء على القسطنطينية.

ظلت عيونهن مثبتة على الجزء الخلفي الأسود من عربة المعماري الآخذ بالانحسار إلى أن تلاشى في الضباب وتنهدن تنهيدة ارتياح.

فقالت ليلى:

- ثمة طائر لا يظهر إلا مع تساقط الثلوج.

ثم بصوت ناعم وهي تنقر على النافذة:

- تعال أيها الطائر الصغير!

وأضافت بعد هنيهة:

- هذه الطيور لا تخطئ أبداً، والشتاء على الأبواب.

تأوهت أزهار:

- الويل لي!

شحب لون وجهها وبدأت ترتجف. فنظرت النساء بعضهن إلى بعض.

وأضافت:

- هذا الطريق الملعون يقتلني. إنني أشعر وكأنني سوف...

- هل نطلب من حسنٍ أن يتوقف لاستراحة أخرى؟

قالت ليلى:

- وما الفائدة؟ ستتعرّض لإجهاض جنينها في كل الأحوال.

شرعت أزهار بالبكاء.

ثم هتفت وسط إجهاشها بالبكاء:

- وكان يأمل أن أُنجب له ذكراً.

قالت ليلى:

- استلقي على ظهرك، فقد أتمكن من إيقاف نزيفك.

استلقت أزهار على ظهرها ورفعت ساقيها، ويبدو أنها شعرت بتحسن بعد فترة وجيزة.

ارتجت العربة وهي تتوقف مرة أخرى.

قالت آيزيل:

- رتل آخر. انظرن إليه وحسب!

بدا الرتل رهيباً لا ينتهي، الجنود مدججون بالسلاح، والجياد محملة به، رؤوس الجنود مثيرة للوجل بخوذها ذات الثقوب الصغيرة الخاصة بالعيون.

كان الجنود يجلسون في صفوف متراصة على عربات طويلة بست عجلات أو ثمانٍ، ذقونهم تستند إلى أسلحتهم. ثم مرت عربات أثقل، وبدا واضحاً أنها تحمل مواسير المدافع السوداء.

لاحظت ليلى:

- كل يوم يأتينا باختراع جديد. يا الله! لِمَ لا يمكنهم التوقف عند هذا الحد؟

لـم ينبسـن بكلمـة حتـى اجتازهـن الرتـل بأكملـه، وعندئذٍ بات في إمكانهـن النظـر مـن النافـذة مـرة أخرى باتجاه مقدمـة المضايق الجبلية، وشاهدن أيضاً رمز النصارى الديني معوجاً على قارعة الطريق وأشجاراً مكللة بالصقيع. وبين الفينة والفينة مررن بيافطات دالة مثبتة على أعمدة كتب عليها: 113 ميلاً إلى العاصمة، و330 ميلاً إلى القسطنطينية، وعليها أيضاً أسهم تشير إلى الاتجاه الصحيح.

وسألت آيزيل بصوت عالٍ:

- مَن سيشترينا الآن؟

رفعت بلوندي ناظريها، وبدت وكأنها تفكّر في شيء لتقوله، لكن ليلى سألت من دون أن تشيح بنظرها عن المناظر الطبيعية:

- هل في وسْعنا أن نتوقع مصيرنا؟ لو اشـترانا جندي، فعلينا أن نسافر على هذا الطريق مرة أخرى.

ولولت أزهار:

- آه! أي شيء ولا هذا الطريق. إنه الطريق إلى الجحيم!

خفضـت بلونـدي ناظريهـا، وبدأت تدندن بنعومة أغنية حزينة ذات كلمات عصيَّة على الفهم بلغة بلادها.

قالت ليلى في محاولة لكسر الصمت الذي أطبق عليهن:

- قرى أخرى. لا بد من أن أوروبا أصبحت وراءنا الآن.

واصلت العربة سيرها تحت المطر.

تيرانا 1969-1970

باريس 1993-1994

* * *



في القرن الخامس عشر تحاصر جيوش الإمبراطورية العثمانية حصناً منيعاً في ألبانيا بغية احتلاله، في خطوة لإخضاع كامل البلاد إلى سيطرتها. ولكن المحاصرين يرفضون الاستسلام ويستعدون للدفاع عن حصنهم رغم الجيش الجرار الذي أدخل سلاح المدفعية الثقيلة إلى ساحة المعركة وإصرار الباشا التركي على احتلاله مهما كلفه الأمر من ضحايا.

تنقلنا الرواية بين ضباط وجنود الجيشين لتبرز الحالة النفسية للفريقين. فريق يدافع عن تراب وطنه ومستعد للموت فداءً له، وآخر يعاقر الخمرة ليستبسل في هجومه ضد «البرابرة» - كما وصفهم القائد لجنوده، مختلقاً مخاطر وهمية إذا لم تتم إبادتهم، في حين يسلّط شرطته السرية في أعقاب ضباطه المتخاذلين. ومع اندلاع القتال الدموي وتدفُّق الموجات المهاجمة واحدة إثر أخرى باستخدام شتى الخطط العسكرية والأساليب والخدع: من محاولات اقتحام عبر السلالم الخشبية الطويلة، وتسللٍ عبر حفر الأنفاق تحت أسوار الحصن، وإطلاق للجرذان المصابة بالطاعون نحو الأسوار، نلمس الصراع الأبدي بين الديانات والإمبراطوريات للفوز والسيطرة، وتأثير معاركها على الجنود والمدنيين الذين هم دائماً وقود الحروب.

ملحمة تجسّد الصراع بين المستعمِر والشعوب المدافعة عن حريتها، نستشف منها الحالة النفسية، والروح المعنوية لكلا الطرفين في حالتي السلم والحرب، ونعيش فيها تعملُق صاحب الحق ولو كان أقل قوة، أمام جحافل المعتدي مهما بلغت عتياً وقوة.

ولد **إسماعيل كاداريه** في الثامن والعشرين من كانون الثاني عام 1936 في مدينة جيروكاستر في ألبانيا، لأب يعمل موظفاً حكومياً، ونشأ في سنوات الحرب العالمية الثانية الصعبة والمريرة والمضطربة. وبعد أن تخرج من جامعة تيرانا، عام 1956، انتقل إلى موسكو لدراسة الأدب في معهد غوركي العريق، إلاّ أنه اضطُر إلى مغادرة موسكو عام 1961 بعد أن قطع أنور خوجا علاقاته مع الاتحاد السوفياتي وتحالف مع الصين الشعبية. بعد وفاة أنور خوجا عام 1985، تزعم كاداريه حركة من أجل الإصلاح الديمقراطي في ألبانيا، لكنه شعر بالإحباط بسبب انعدام فرص التقدم على المسار الديمقراطي في ظل الزعيم الجديد رامز عليا، كما بدأ يخشى على سلامته وأمنه الشخصي مما اضطُره إلى اللجوء إلى فرنسا عام 1990.

ISBN 978-9953-87-809-6





